Folklore

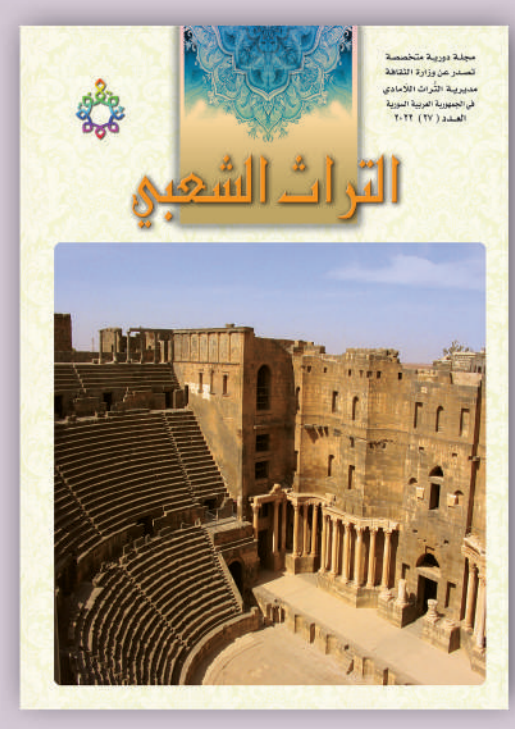

Aquartly issued by: Ministry of Culture in S.A.R
Issue No. (27) 2022

General supervision

Dr. Loubana Mouchaweh
Minister Of Culture

Chief Editor :

Thaer Zen ElDen

Managing Editor:

Roula Akili

Editorial Board:

- **Mohammed Kasem**
- **Hassan Abdel Hak**
- **Layal Abo Alezz**
- **Eyad Taba'a**
- **Mozaina Tawami**

Language Checker:

Mohammed Kasem

Printing Supervision:

Anas Al-Hasan

Technical Output:

Abdel Aziz Mohammed
azizmhmd32@gmail.com

For correspondence:
Chief Editor

Price: 2500 S.P. or what equate

التراث الشعبي

فصلية تصدر عن وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
العدد (٢٧) - ٢٠٢٢م

الإشـــراف العـــام

الدكتورة لبانـة مشـوّح
وزيرة الثقافة

رئيس التحرير

ثائـر زيـن الديـن

مدير التحرير

م. رولا عقيلـي

هيئة التحرير

- محمّـد قاسـم
- حسان عبد الحق
- ليـال أبـو العـز
- إيـاد طبـاع
- مُزينـة توامـي

المراســلون

- كمـال الشـوفاني ... مراسل المنطقة الجنوبية
- نـدا حبيـب عـلي ... مراسلة المنطقة الساحلية
- أحمـد الحسـين ... مراسل المنطقة الشرقية

التدقيق اللُّغويّ

محمّـد قاسـم

الإشـراف الطّباعيّ

أنـس الحسـن

الإخـراج الفنّـيّ

عبـد العزيـز محمـد

المراسلة : باسم السيد رئيس التحرير

الطباعة وفرز الألوان: مطبعة الهيئة العامة السورية للكتاب
السعر : 2500 ل.س أو ما يعادلها

عنوان المجلة: alturathalshabe@gmail.com

الفهرس

- كلمة الوزارة :

التراث اللامادي مسؤولية وطنية

وزيرة الثقافة الدكتورة لبانة مشوّح ٤

- **الافتتاحية :** الوردةُ الدمشقيّة (رئيس التحرير) ٦

- مسرح بصرى جدليّة روعة البناء والدّقّة الفنّيّة

عبد الحميد غانم ٨

- بالأدلَّة الأثريَّة الكتابيّة العائدة للألف الثاني قبل الميلاد:المليحي الحوراني أقدم طبخة في العالم

ياسر محمَّد أبو نقطة ١٥

- تراث الرعي في الجزيرة السّوريّة

أحمد الحسين ٢٣

- القضاء العشائريّ في جبل العرب

د. عبّاس مِرْهج فرج ٣٧

- العِمارة وفَنُّ البناء القديم في السويداء

د. ليال أبو العزّ ٥١

- الطرق التقليديّة للزراعة في سَلَمِيّة
د. علي حسن موسى ٦١

-القبقاب الدّمشقيّ تاريخ وحكايات
أحمد بوبس ٦٩

- طرائق تقديم الطعام وتناوله في دمشق من القرن العشرين إلى القرن الحادي والعشرين
نبيـــل تللـــو ٧٥

- الجاهة في مدينة الرحيبة
د. حسان عبد الحق ٨٨

- تجفيف الخضار والفواكه في التُّراث الشّعبيّ
محمود علقم ٩٤

- الحياة الاجتماعيَّة في ألف ليلة وليلة
حســـام فرحـــان ٩٧

- حكاية شعبية من سورية:
الملك والعجوز الحكيمة
د. ثائر زين الدين ١١٢

- آخـــر الكـــلام ...

«الثَّعْلَبُ» في الذَّاكرة الشَّعبيَّة
مُحَمَّـــد قاســـم ١١٥

التراث اللامادي
مسؤولية وطنية

وزيرة الثقافة

الدكتورة لبانة مشوّح

كلنا بتراثنا شغوف، وعليه أمين. ونحن في ذلك كسوانا من الشعوب الغيورة على إرثها الثقافي، نخشى عليه من العبث والاندثار، ونحرص على إبرازه وتطويره والترويج له، لإيماننا العميق بأنه، على تنوعه واختلاف ممارساته ومنابعه ومشاربه، وخصوصيته في كثير من الأحيان، يُؤَلِّفُ جزءاً مهماً، بل أساسياً من هُويتنا الوطنية الجامعة، لا بل هو أحد أسباب تفرّدها وجمالها.

تراثنا غنيّ إلى حدّ يبدو معه مستحيلاً حصرُ كلِّ عناصره، فهو نتاجُ حضارات متعاقبة عميقة الجذور في التاريخ. وكثر اليوم هم المهتمون بالشأن التراثي. فإلى جانب الجهات الرسمية، هناك الجهات غير الحكومية والمنظمات والجمعيات من المجتمع الأهلي، وقد أحصينا في الداخل السوري نحو ٣٥٠ جمعية حصلت على ترخيص للعمل في الشأن الثقافي والتراثي. ولعلّ إحدى مشكلاتنا تكمن تحديداً في كثرة الجهات وتبعثر الجهود، وفي غياب إطار تشريعي

يحمي التراث اللامادي من العبث والتشويه والضياع، وغياب إطار تنظيمي وخطة وطنية تنظّم تلك الجهود وتوجّهها لخدمة التراث اللامادي وضمان استدامته.

لهذا دعونا إلى ورشة عمل عُقِدت في مكتبة الأسد الوطنية في حَزيران الماضي نوقشت فيها محاور متنوعة، على أمل أن نصل بعد أربعة أيام من العرض والشرح والنقاش إلى رؤية واضحة لعملنا في هذا الإطار. وخرجت الورشة بتوصيات مهمة ستعتمد أساساً لإطلاق خطتنا الوطنية للتراث اللامادي.

أوضحت العروض والنقاشات أن إحدى مشاكلنا في التعاطي مع «التراث اللامادي» هي غياب الإطار القانوني الناظم للعمل فيه، إضافة إلى حداثة المصطلح والغموض الذي يعتريه في أذهان الكثيرين، ولا سيما غير المختصين الذين هم في الواقع حملة هذا التراث وحماته، سواء في ممارستهم الحرفية أم طقوسهم اليومية. ويتأتى اللبس مما يحمله المصطلح من ازدواجية ناتجة عن تجريد المفهوم ومادية المنتج، أي عن اختلاط المادي باللامادي. أمّا الأول فهو المنتج التراثي النهائي لغةً محلية كان، أم أهزوجة، أم حكاية شعبية، أم طبقاً تقليدياً يختصّ بمناسبة دون سواها، أم طقسَ فرح أو حزن، إلخ... وأمّا الثاني، فهو القصّة الكامنة وراء هذا المنتج التراثي، والبيئة الحاضنة له والضامنة لاستدامته، والمهارات اللازمة لصنعه، ومكان ممارسته، وأسرار تلك الممارسة وطقوسها ودلالاتها الفكرية والاجتماعية... إلخ.

مهمتنا كمعنيين بحماية التراث اللامادي وصونه أن نجلي الغموض الذي يعتري هذا المفهوم الواسع، وأن نعمل على إيجاد البيئة المناسبة لضمان استدامته، بوضع الإطار القانوني الوطني الناظم لعمل كل الجهات المعنية به، عامة كانت أم خاصة، وبالعناية بالإنسان حامل هذا التراث وأساس ديمومته، وبالتأسيس لصناعة تراثية تطور المنتج، وتحميه من السرقة والتشويه.

الوردةُ الدمشقيّة

رئيس التحرير
د. ثائر زين الدين

ربيع عام ١٩٩٠، أيّام كان الاتحاد السوفييتي يلفظ أنفاسه الأخيرة، اتفقت نخبة من المعيدين السوريين في «معهد البوليتيكنك» في مدينة خاركوف؛ مدينة الصناعة والطلبة كما كانت تُسمّى، وهي المدينة الثانية في جمهوريّة أوكرانيا السوفيتيّة يومذاك، على زيارة شبه جزيرة القرم، وبالتحديد مدينة يالطا الجميلة، كنا خمسة أو ستة أفراد ممن أوشكوا أن ينهوا العمل على أطروحات الدكتوراه، في موضوعات مهمة وضروريّة للصناعة وللبحث العلمي كالآلات الهيدروليكيّة والأجهزة الهيدروهوائية، والعنفات البخاريّة والغازيّة، وآلات سباكة المعادن والتحكّم الآلي والأتمتة وما إلى ذلك... سحرنا جمال تلك البلاد؛ البحر والشواطئ وأماكن الاصطياف الرائعة رخيصة التكاليف، البشر الطيبون الذين يخفّون لمساعدتك وإرشادك ونجدتك إن لزم الأمر، ومن هؤلاء امرأة فاتنة نصحتنا بزيارة إحدى أشهر حدائق العالم التي تضمّ آلاف أنواع النباتات والأشجار والأزهار، المجلوبة من مختلف بقاع العالم، وقالت لنا إننا سنعثرُ على ما يذكرنا ببلادنا، وبالشام تحديداً، وعرضت أن تكون مُرشدتنا في الزيارة، فوافقتُ أنا بلا تردّد، وامتعضت زميلتان؛ المهم أن الحديقة النباتية التي دخلناها «بوتانيتشكي ساد»، كانت تحتاج إلى أيام عدّة كي نرى نباتاتها كلّها؛ تلك النباتات التي وثّقَ القائمون على الحديقة موجوداتها وفق تصنيف المملكة النباتيّة، ووضعوا معلومات كاملة بجوار كلّ نبتة أو حقل نبات، تكون بمنزلة هويّة شخصيّة يوثّقُ فيها الاسمُ العلميُّ للنبتة، وفيها تعريفٌ بها، والفصيلةُ والشعبةُ النباتيّةُ التي تنتمي إليها. كانت النباتات ساحرة، وتسرقك من نفسك، لكن مُرشدتنا قادتنا إلى «ما يذكرنا ببلادنا» كما أشارت؛ ومن ذلك مثلاً شجرة الأرز الرصينة الشامخة، التي أشارت اللافتة إلى أنها تنمو في جبال لبنان، ونباتات أخرى مختلفة؛ ثم هذي كوكبة من الورود الجوريّة الخلابة تتراءى لنا من بعيد،

فنقتربُ من موضعها، ونقرأ عنها، ونسعدُ أنها تدعى «الوردة الدمشقيّة»، وأشكر الإغريق في سرّي لأنهم أول من نقل هذه التسمية إلى الغرب؛ قبل أن تفعل ذلك الحملةُ الصليبيّةُ. تشرحُ لنا المُرشدة أن ألطف وأرق العطور تُصنعُ من هذه الوردة بعد أن تخضع لعمليّة معقدة من التقطير؛ وهنا يصيبُني من المشاعر ما أصاب عمر أبا ريشة مع الحسناء الإسبانيّة؛ وهي تفاخر بأجدادها العرب، وتظنُّ صمته الحزين إقلالاً من شأنِ من تتحدّث عنهم، فتختم كلامها قائلةً:

هؤلاء الصِّيْدُ قومي فانتسب إن تجد أكرم من قومي رجالا

وأشعر بما جال في خاطر أبي ريشة، فأُطرِقُ كما فعل، وتغيمُ عيناي برؤاها، وأتجاهلُ الكلام كما حدث لأبي ريشة تماماً. أتذكّرُ أن إنتاج الزيوت والعطور من الوردة الدمشقيّة حرفة تُراثيّة قديمة في الشام، وأن هذه الوردة نمت في بلادنا منذ آلاف السنين، وذكرتها مخطوطاتٌ عمرها ما لا يقل عن ٣٠٠٠ آلاف عام، وكان ابن سينا أول من اكتشف الفوائد والسمات العطريّة التي تنتج منها بالتقطير، وأن هذه الحرفة ازدهرت ذات يوم في بلادنا قبل أن تتقلّص المساحات المخصصة لزراعتها في غوطة دمشق والقلمون في قرى المراح والقسطل، وفي حلب وبعض مناطق السويداء وغيرها لأسباب كثيرة منها تقلّص الأرض الزراعيّة المخصصة للوردة بسبب المد العمراني الجارف غير المنظّم، وتراجع اهتمام الأبناء بهذه الحرفة، والرغبة في استثمار الأموال في حرف ومهن قد تكون مربحة أكثر وأسرع، فانتقلت إلى أوربّا وبعض دول العالم بطرق مختلفة، واهتم بها الأوربيّون، واستخلصوا العطر منها، وأدخلوه في تركيب عطور تُعدُّ الأروع في العالم، كنت أُفكّرُ في كلّ ذلك، وأتمنى أن أرجع إلى دمشق لأرى أنَّ الاهتمام بهذه الوردة وحرفتها قد اشتد، وأنَّ مؤسسات رسميّة قد تبنت الأمر، وما انتبهت أن مرشدتنا الجميلة كانت قد أنهت حديثها عن الوردة الدمشقيّة، وتمنّت أن تقدر ذات يوم على رؤية هذه الوردة في مناطق نموِّها الأولى، وفي حدائق دمشق نفسها... سارعت زميلتانا إلى أخذ رقم هاتفها وعنوانها، ووعدتاها بدعوتها إلى الشام، خرجنا من الحديقة، وشكرنا السيدة الروسيّة التي عرَّفتنا أن اسمها أيضاً «روزا» أي «وردة»، فخمَّنا جميعاً أن اهتمامها بوردة دمشق، ما هو إلّا شكل من أشكال البحث عن الهويّةِ والذات بصورةٍ من الصور.

مسرح بصرى
جدلية روعة البناء والدقة الفنية

عبد الحميد غانم

حين تتجول في رحاب الأوابد التاريخية التراثية ينتابك شعور رائع لا يوصف بسهولة، فإنك تدخل التاريخ، ويعود بك الحال إلى التاريخ العريق، والأجمل أن يكون هذا المكان الأثري مسرحًا عريقًا، فتتخيل كيف كانت تقام فيه الحفلات، ويغص بالمشاهدين الذين يتابعون الفرقة الموسيقية وجماعة من الممثلين يؤدون أدوارًا تمثيلية، منظر رائع جميل ينقلك إلى عبق التاريخ.

لقد احتل المسرح مرتبة مهمةً في حياة الشعوب على مر العصور والأزمنة، وكان حاضرًا في كل الحضارات كمرآة تعكس ملامح المجتمع، وبصفته شكلًا من أشكال التعبير الثقافي. وتأتي أهمية المسرح في تشكيل الوعي والفكر لدى الجمهور، من خلال محاكاته للأحاسيس وحشد الانفعالات ومن ثم بثّها في الآفاق الاجتماعية، رافعًا مستويات الوعي في كثيرٍ من الأمور والموضوعات المختلفة التي تشغل اهتمام المجتمع.

كما أن المسرح ظل ملازمًا للإنسان، ومجسدًا للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية التي يعيشها، بل إنه كان مؤثرًا ومشاركًا في بلورة هذه الأنساق وصياغتها وبثها للمجتمع.

ويعد مسرح بصرى الأثري أهم الأوابد الأثرية التي تزخر بها مدينة بصرى الشام جنوب مدينة درعا بنحو ٤٠ كيلومترًا، و١٤٠ كلم عن العاصمة دمشق، وهو المسرح المكتمل الوحيد في العالم الذي يجمع بين روعة البناء والدقة الفنية، وأحد المعالم السورية التاريخية المتميزة، ويحتل موقعًا متقدمًا في التراث العالمي لليونيسكو، ويمثل بأهميته التاريخية والسياحية المرتبة الثانية بعد تدمر.

وعد مسرح ومدرج بصرى من أكبر وأكثر المسارح والمدرجات الرومانية اكتمالًا وجاهزية في العالم، وما زالا إلى اليوم محافظين على أهم شواهدهما التاريخية التي مرا بهما، ولا سيما الأبراج التي بناها القائد صلاح الدين الأيوبي حوله .

بصرى عبر التاريخ

بصرى الشام يطلق عليها أيضًا «بوحورا»، أوّل مدن الأنباط في القرن الثامن قبل الميلاد، وهي «بوسترا» في الفترة الهلنستيّة. أمّا في عهد الملك «تارجان»، نحو ألف وستمئة قبل الميلاد فهي «نيو تارجة بوسترا»، إذ كانت عندها عاصمة الولاية العربيّة التابعة للروم.

وهي أيضًا، مدينة الإمبراطور فيليب الأول، وهي مبرك ناقة الرسول، وهي مدينة الجامع العمري، أو جامع بصرى الكبير، الذي يعد أقدم المساجد وأروعها، إذ إنّه أوّل مسجد بناه المسلمون في سورية. وهي مدينة الكاتدرائية، ذات النموذج المشابه لكنيسة الآية صوفيا في إسطنبول بتركيا، التي بنيت عام ٥١٢ م.

مثلت بصرى منذ القرن الرابع حتى السابع الميلادي مركزًا مسيحيًا مهمًا، وفيها التقى رسول الله محمد صلى الله وسلم الراهب النسطوري «بحيرا» الذي تنبأ بنبوته، خلال إحدى رحلاته التجارية بين دمشق ومكة، وما زال «دير الراهب بحيرا» شاهدًا على هذا الحدث الديني والتاريخي المهمّ، كما بني في المكان الذي بركت فيه ناقة الرسول مسجدٌ جامعٌ يسمى «مبرك الناقة» وإلى جانبه مدرسة، وهناك أيضًا جامع «العروس» أو الجامع العمري الذي بناه الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، وهو أول مسجد يبنى في بلاد الشام، وواحد من ثلاثة مساجد ما زالت تحتفظ بالطراز الإسلامي القديم، إلى جانب مسجد النبي محمد في المدينة المنورة ومسجد عمرو بن العاص في مصر.

يعود بناء مسرح «بصرى» الأثري إلى منتصف القرن الثاني بعد الميلاد، في فترة حكم الإمبراطور «تراجان» في الحقبة الرومانية، التي أصبحت فيها مدينة «بصرى» عاصمة للولاية العربية الرومانية التي ضمت الجنوب السوري وشرقي الأردن، حيث جعل الرومان من «بصرى» صورة مصغرة عن مدينة روما بكل منشآتها.

يعني اسم بصرى الحصن أو المدينة المحصنة، تاريخ وجودها يعود إلى عصور موغلة في القدم، وأنها كانت مسكونة في العصور الحجرية، لكن أقدم ذكر لها ورد حسب موسوعة تاريخ سورية، في ألواح فراعنة مصر تحوتمس الثالث وأخناتون، وفي رسائل تل العمارنة، وكذلك على قاعدة تمثال للفرعون أمينوفس الثالث، وتعاقبت عليها حضارات كثيرة، كالكنعانيين والأكاديين والعموريين والآراميين والآشوريين والكلدانيين والأنباط، إذ كانت مدينة العرب الأنباط الأولى منذ القرن الثاني قبل الميلاد، وعرفت في ذلك الزمن باسم «بوحورا»، وبلغت شأنًا عظيمًا في القرن الأول الميلادي، فيما حملت في زمن اليونان اسم «بوسورا»، وفي زمن الرومان «بوسترا» . وبلغت بصرى ذروة من ذرا مجدها خلال القرن الثالث الميلادي في عهد إمبراطور روما العربي الأصل فيليب الأول ابن بلدة شهبا القريبة من بصرى، الذي أعطاها درجة عاصمة.

مهندس دمشقي مصمم المسرح

صمم مسرح بصرى المهندس الدمشقي «أبولود ورو ديماشياني»، وهو من بنى أول جسر على نهر الدانوب، وهندس عامود ترجان في روما، واخترع هندسة الصوت والضوء في المدرجات التي عرفتها المنطقة السورية قبل وجود الرومان.

أبولودورو الدمشقي، هو الاسم الذي أطلقه عليه الرومان، واسمه العربي أبو الدر الدمشقي. ولُقِّب بـ «مهندس روما».

وظف أبو الدر علوم الفيزياء في إبداعه المعماري، فوضع للمسرح تصميمًا فريدًا من نوعه في ذلك الزمن، إذ يصل صوت الممثل إلى آخر مشاهد في الصفوف الأخيرة من المدرج، من خلال استخدامه رفاريف حجرية، تقوم بوظيفة تضخيم الصوت.

بني مسرح بصرى على أنقاض قلعة نبطية خلال حكم الإمبراطور الروماني تراجان الذي احتل بصرى عام ١٠٦ م، عندما كانت عاصمة للعرب الأنباط في عهد آخر ملوكهم رعبيل الثاني، وأذهل هذا التصميم الفريد الرومان، فاستدعوا أبولودورو إلى روما، وهناك صمم الكثير من الصروح المعمارية المعروفة، فبنى أول جسر على نهر الدانوب، وهندس عمود تراجان في روما، وغيرها.

وصف المسرح

نحت مسرح بصرى من الحجر البازلتي الأسود، وهو يتسع لأكثر من خمسة عشر ألف متفرج، ويبلغ ارتفاع جدرانه نحو ٢٢ مترًا، وعرضه ٥٤ مترًا، وقطره نحو مئة متر. ويتألف من ثلاثة أقسام هي منصة التمثيل المزينة بمحاريب وأبواب كبيرة، والمدرج الذي يتألف من سبع وثلاثين درجة، وساحة تتوسطهما على شكل نصف دائرة، كانت مخصصة لجلوس العازفين وإقامة الشعائر الدينية، ويتميز بكثرة مداخله، بحيث يمكن للجمهور أن يخلي المسرح خلال عشر دقائق فقط.

وحسب كتاب تاريخ آثار سورية القديم فإن «طول المسرح (٤٥) م وعرضه (٨,٥) م، ويبلغ عرض منصة التمثيل ٤٥,٥ م بعمق ٨ م، وكانت أرضها مصنوعة من الخشب الذي يستند إلى قواعد مبنية من الحجر بشكل قوائم مربعة الشكل تسمح بجلوس الملقنين تحتها، وينفذ الملقنون إلى مكانهم تحت أرض المنصة بوساطة باب مبني في الممشى الخلفي الواقع وراء واجهة المسرح.

وكانت هذه الواجهة مزينة بثلاثة طوابق من الأعمدة المنحوتة على الطراز الكورنثي، ومزينة بمحاريب مغلقة معدة لوضع التماثيل. ويقام وراء جدار المسرح ممر مؤلف من طابقين، الأرضي معد لانتظار الممثلين الذين ينفذون منه إلى منصة التمثيل بوساطة ثلاثة أبواب شاهقة، وبابين جانبيين يعلو كل منهما أربعة ألواح من الجهات الشرقية والغربية من هذا القسم، وينفذ إلى كل لوح بوساطة درج خلفي يسمح بالوصول إلى المماشي الخلفية والقسم الأوسط من المدرج أيضًا.

ميزاته الهندسية

حافظ مسرح بصرى على معظم أجزائه، حتى إنه يعد اليوم المسرح الأكمل من نوعه في العالم. ويُرجع عدد من المختصين الآثاريين ذلك إلى إنشاء القلعة من حوله، بجدرانها وأبراجها الأيوبية الأحد عشر، التي أسهمت إلى حد بعيد بالحفاظ عليه، ولا سيما أن المسرح جرى إلغاء دوره في بعض المراحل التاريخية، وأقيمت في تجويفه أبنية أخرى، ظلت موجودة حتى خمسينيات القرن الماضي، إذ جرت إزالتها في عملية ترميم واسعة وعلى عدة مراحل، لكشف المسرح المتواري تحتها.

يقوم المسرح فوق قلعة من العصر النبطي، والمدرج مبنى على غرار المسارح الهلنستية، بحيث تمتد أطرافه إلى أكثر من نصف دائرة، وترتفع جدرانه إلى ما يزيد على العشرين مترًا، وهو محاط بأبواب أرضية ونوافذ علوية بعضها مفتوح وبعضها مغلق، يتسع المدرج لأكثر من خمسة عشر ألف متفرج، وهو مقسوم إلى ثلاثة أقسام مفصولة بممرات تفتح عليها الأبواب التي يدخل ويخرج منها المتفرجون، ويتألف القسم الأول من ١٤ درجة، والثاني من ١٨ درجة، والعلوي ٥ درجات، وقد استعاضوا عن بناء حواجز بين كل قسم من الأقسام الثلاث كما هو معروف في المسارح القديمة بمظهر المقاعد الحجرية المصفوفة بعضها إلى جانب بعض في أعلى كل قسم، وتحتفظ ساحة العازفين ببلاطها الأساسي على حالته القديمة التي نستدل منها على أن هذه الساحة كانت تستعمل لإقامة الطقوس الوثنية في الأعياد والمواسم المعينة لهذه الغاية علاوة على جلوس العازفين، وعند النزول من المدرج إلى المسرح يوجد ثلاثة أبواب، الباب الأول للزائرين أو للمسافرين، والباب الثاني لسكان المدينة، والباب الثالث للطبقة العليا .

تراث عالمي

تعد مدينة بصرى متحفًا تاريخيًا مفتوحًا، وتصنفها منظمة اليونيسكو ضمن قائمة مواقع التراث العالمي، إذ تتجاور فيها الآثار العائدة إلى حضارات وعصور مختلفة، فهناك الأبنية والمعابد الوثنية والحمّامات والمدارس والقصور الملكية، مثل القصر الإمبراطوري، والمعبد النبطي، وسرير بنت الملك، ومعبد حوريات الماء، وحوض الألعاب المائية، وقوس النصر الروماني الذي يخلد ذكرى انتصار جوليوس جوليانوس أحد قادة الإمبراطور فيليب العربي، وكذلك الكنائس والمساجد، ولا سيما دير الراهب بحيرا والكاتدرائية التي يشكل أسلوب بنائها نقطة تحول تاريخية وجذرية في أساليب العمارة الكنسية في العالم، باعتبارها أول كنيسة تظهر فيها القبة، وانتقل هذا التطور في العمارة إلى الأبنية الإسلامية فيما بعد.

وتضم بصرى أيضًا كثيرًا من الأبنية والمواقع الأثرية التي تشهد على أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية مهمة في تاريخ المنطقة والعالم.

مكانة فنية

نظرًا لما تحتله مدينة بصرى من مكانة تاريخية، وما تضمه من صروح أثرية عظيمة، يقام فيها في العصر الحديث مهرجان سنوي دولي خلال الصيف، يشارك فيه مطربون عرب وفرق فنية وفولكلورية عربية وأجنبية، ويتضمن عروضًا مسرحية، ومعرضًا للخيول العربية الأصيلة، ومهرجانًا للشعر النبطي،

وعروض سيرك عالمية، ومعارض للكتب والحرف اليدوية التقليدية، وقد أصبح لهذا المهرجان سمعة عالمية، إذ شاركت فيه فرق عربية وأجنبية . وبالتوازي مع ذلك تجد المدينة التاريخية إقبالًا كبيرًا من السياح وعشاق الآثار الباحثين في خفايا الأساطير القديمة، فبصرى منجم حقيقي للمنقبين في التاريخ، ويتفق الآثاريون على أنها ما زالت تخفي في سراديبها وثراها كثيرًا من الحكايات والأسرار.

أهميته المعمارية

يُعَدُّ مسرح بصرى، هو الأجمل والأكمل في كل العالم، إذ إنّه يتّسع لأكثر من خمسة عشر ألف متفرج، وكان مجهزًا بمداخل عدة، تسمح لهم بالخروج جميعًا، خلال عشر دقائق دون أي تزاحم. ويعود للعصر الروماني، لكنّه تميز بهندسة مذهلة، تسمح بتضخيم الصوت، وتقويته، دون أي استعمال لمكبرات الصوت، فمن يقف على المسرح ويغني، يسمعه الجالس في أعلى المدرج بكل وضوح، ويعود هذا لمعرفة المصمم بأصول السماعيات، وضبط شكل البناء العام، وعمق المسرح وارتفاعه بالنسبة لجلوس المتفرجين.

و«مسرح بصرى» لم يكن بحاجة للاكتشاف، فقد بقي ظاهرًا منذ بنائه حتى الوقت الحاضر، إلا أنه تعرض لبعض التخريب والتغيير عبر العصور المختلفة، واختفت أجزاء عديدة منه أسفل المباني الملحقة ولا سيما الداخلية منه.

ولعل ما حمى هذا المسرح، هي الأبراج التي بنيت ملاصقة له وبشكل متتالٍ، وكان آخرها الأبراج الخمسة التي بناها صلاح الدين الأيوبي، كمحاولة لاحتواء هذه التحفة، وتحويلها إلى قلعة تصمد في وجه الزمن، إذ بناها بعلو شاهق، كما أغلق كل المنافذ القديمة للمسرح، ليصبح للمسرح والقلعة معًا، مدخل واحد يمتد فوق جسر خشبي يعلو الخندق الكبير، الذي حفره الأيوبي حول القلعة.

وهكذا تحولت هذه القلعة مع المسرح، لكتلة واحدة تجعلك بطلًا من أبطال التاريخ حين تدخلها، وتترك في روحك شعورًا بالعظمة لا ينسى.

يقول الباحث السوري منير كيالي لوكالة الأنباء العمانية(٢٠١٧/٤/٢٦) إن «مسرح ومدرج بصرى» من المسارح الرومانية القليلة التي بقيت محفوظة بصورة متقنة، إذ يظهر بكامل أقسامه، وتبدو منصة التمثيل وجميع تفرعاتها غير منقوصة، وهي مزينة بمحاريب وأبواب كبيرة، ويتوج البناء رواق مسقوف لا تزال بعض أجزائه ظاهرة، ولا يزال المسرح يحتفظ ببعض أعمدة الرواق والأفاريز الموجودة فيه وهي من الطراز الدوري والكورنثي.

إضافة إلى كون مدرجه من أكبر المدرجات الأثرية وأجملها، وما يزال محافظًا على معظم أقسامه وسائر عناصر عمارته منذ العصر الروماني. يتسع المدرج لأكثر من ١٥ ألف متفرج، وتقام عليه فعاليات مهرجان «بصرى» الدولي.

الوحيد في العالم

يعد مسرح بصرى المسرح الوحيد المكتمل في العالم، وبقي محتفظًا بمعظم أقسامه وسائر عناصر عمارته منذ العصر الروماني، وهو منحوت من الحجر البازلتي، ويظهر بكامل أقسامه، وتبدو منصة التمثيل وجميع تفرعاتها غير منقوصة، وهي مزينة بمحاريب وأبواب كبيرة، ويتوج البناء رواق مسقوف على الشكل المعروف في الملاعب الرومانية.

شُيِّدَ المسرح والمدرج بالحجر البازلتي المحلي، ويبلغ قطر الحجر المستخدم ١٠٢ م، وطول منصة التمثيل ٤٥,٥ م، وعمقها ٨,٥ م، ويبلغ ارتفاع المسرح ٢٢ م، وتخترق المنصة أبوابٌ تؤدي إلى الكواليس، وفي الجدارين الجانبيين حول المنصة شرفات كان يجلس عليها حاكم الولاية وكبار الشخصيات والزوار، ويصل الباحة بالخارج ممران معقودان من اليمين واليسار بالأعمدة الدورية، ومنصة التمثيل عريضة وقليلة الارتفاع نسبيًا، ووراء الجدار الغربي للمنصة باحة مكشوفة تستخدم للاستراحة.

ويجد الزائر للمدرج ٣٧ صفًا من المقاعد المتصلة، منها ما هو مخصص للشيوخ وآخر للفرسان والطبقة الوسطى، ثم ممر تليه ٥ صفوف مخصصة للعامة، وتوصل إلى المستويات الثلاثة أدراج صاعدة تحت ممرات معقودة تسمح بالدخول والخروج خلال ١٠ دقائق وتتسع لنحو عشرة آلاف مشاهد، وباستطاعة المشاهدين من خلالها مشاهدة وسماع كل ما يجري في باحة العرض بوضوح .

أهميته وميزاته الفنية

تشير الوثائق التاريخية الموجودة إلى أن أول من أدخل العروض التي كانت تتم داخل «مسرح ومدرج بصرى» هم الرومان ، إذ بدؤوا بعروضهم الأدبية، وكانت تتم باللغة اليونانية واللاتينية بنوعيها الكوميدي والتراجيدي.

الجدير بالذكر أنه لم يُعثر على أي دلائل تشير إلى استخدام المسرح لعروض مصارعة الحيوانات كما هو الحال في «مسرح مدينة تدمر» شرق سورية.

و«مسرح ومدرج بصرى» كانا يحتضنان قبل الحرب الإرهابية التي استهدفت سورية قبل إحدى عشرة سنة أكبر المهرجانات السورية الدولية التي تعرف باسم «مهرجان بصرى الدولي»، ويشارك في فعالياتها عدد من الفرق الفنية والتراثية السورية والعربية والعالمية.

يعد هذا البناء من المسارح القديمة التي صمدت أمام كوارث الطبيعة، ويجمع بين روعة البناء وقوة العمارة، ويعطي مدينة «بصرى» خلودًا أبديًا لكونه المسرح الوحيد الكامل في سائر أنحاء العالم الذي بقي محتفظًا بمعظم أقسامه. فالمدرج منحوت من الحجر البازلتي ويظهر بكامل أقسامه، وتبدو منصة التمثيل غير منقوصة، وهي مزينة بمحاريب وأبواب كبيرة. ويتوج البناء رواق مسقوف على الشكل المعروف في

الملاعب الرومانية، ولكنه اندثر فيها جميعًا والرواق العلوي كان القسم الوحيد المخصص للنساء.

يتميز مسرح «بصرى» بواجهته الجميلة المشكلة من مجموعة من الأعمدة الرخامية البيضاء، وبالوقت نفسه كان لها مساهمة في عملية كسر الصوت والمساعدة على انتشاره على المدرج، وكانت هناك ثلاث تقنيات في بناء المسرح الأولى توزيع الصوت دون وجود مكبرات للصوت في ذلك العصر، والتقنية الثانية دخول وخروج المتفرجين خلال عشر دقائق دون أي تزاحم، والتقنية الثالثة تقنية تصريف الأمطار، ووزعت الطبقات الاجتماعية في المجتمع الروماني للجلوس في المسرح الطبقة الأولى خصصت لأعضاء مجلس الشيوخ ومجلس المدينة، والطبقة الثانية كانت مخصصة لقادة الجيش والتجار وصناع السيوف، والطبقة الثالثة كانت مخصصة لعامة الناس والعبيد وقوفًا على الأقدام في الرواق العلوي.

ويدل البناء الكبير العظيم لمسرح بصرى على المكانة الكبيرة التي كانت تتمتع بها مدينة بصرى الشام عبر التاريخ .

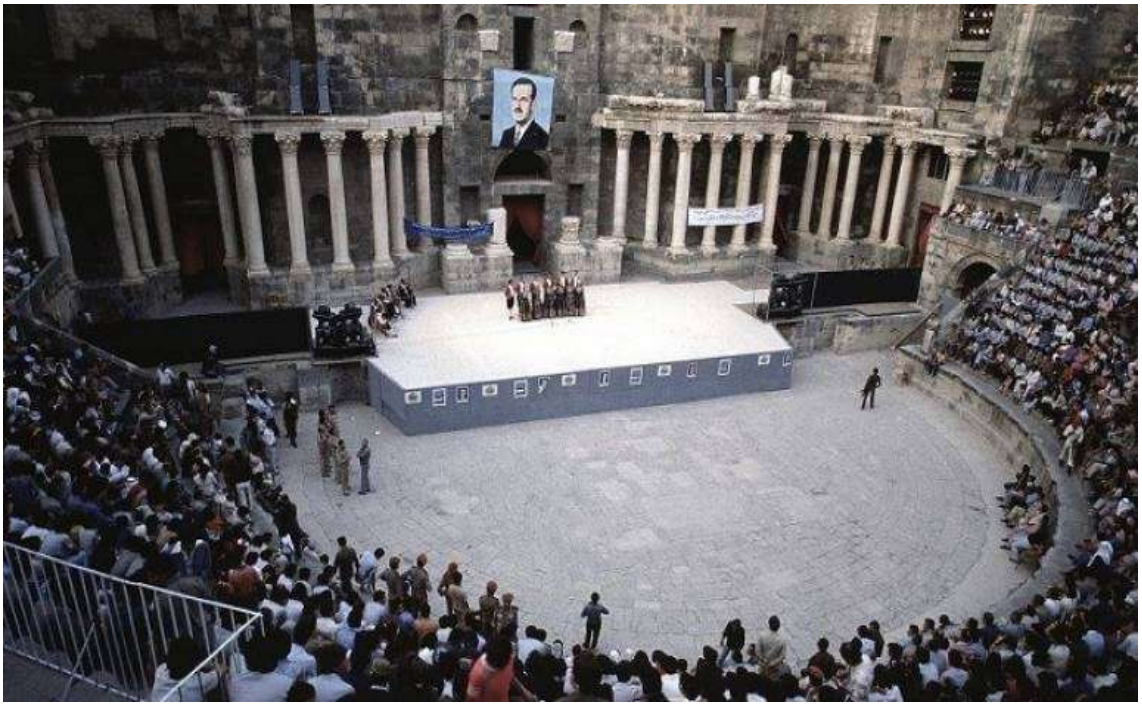

المراجع والهوامش

- دريد مقداد، «الأماكن الأثرية في بصرى»، ٢٠١٧م.
- موسوعة الآثار السورية – الموقع الإلكتروني.
- المرجع السابق نفسه.
- المرجع السابق نفسه.
- دريد مقداد، «الأماكن الأثرية في بصرى»، ٢٠١٧م.
- موسوعة الآثار السورية – الموقع الإلكتروني.
- موسوعة تاريخ سورية القديم والحديث، يوسف الدبس، دار نور حوران للدراسات والنشر والتراث، ط١، ٢٠٢٢.
- تاريخ سورية القديم وآثارها وحضارتها، عيد مرعي، الهيئة العامة السورية للكتاب.
- المرجع السابق.
- راجع موسوعة الآثار السورية – الموقع الإلكتروني وتاريخ سورية القديم وآثارها وحضارتها.

بالأدلة الأثرية الكتابية العائدة للألف الثاني قبل الميلاد المليحي الحوراني أقدم طبخة في العالم

ياسر محمد أبو نقطة

لم تذهب الاكتشافات الاثرية التي شهدتها منطقة حوران جنوب سورية، وعلى مدار السنوات العشرين الماضية، وتضم أقدم الأدوات والدلائل على السكن البشري، لم تذهب أدراج الرياح، فقد ثبت أن طبخات هذه المنطقة ومأكولاتها العريقة ترجع إلى ما يقارب الأربعة آلاف عام. وإنها بذلك لا تزال معروفة ومستخدمة بين جميع الأقوام والشعوب المحلية التي سكنت المنطقة منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا.

اليوم تثبت الدراسات والأبحاث التي طالعتنا بها جامعة يالا الأمريكية، مع تنسيق مع جامعة هارفارد الأمريكية أيضًا، أن أكلة المليحي هي حسب المعطيات المتوفرة وبنسبة تكاد تكون عظمى هي أحد أقدم الأطباق المعروفة التي أعدتها البشرية حتى يومنا هذا، وذلك ضمن دراسة لنصوص وألواح مسمارية مكتشفة في مدن العراق «بابل وآشور»، إذ إنها تمتد وتضم معظم مناطق العراق وبلاد الشام وتركيا، وكانت تدون للمنطقة كلها بجميع مناحي الحياة ومنها الطبخ والمأكولات، إذ دونت هذه الألواح

المسمارية ما لا يقل عن ٢٥ وصفة غذائية كانت تطبخ في عموم هذه المنطقة.

هذه المعطيات تضاف بالطبع إلى مجموعة الأدوات المكتشفة التي عُثر عليها في مناطق متعددة من حوران، وتثبت ممارسة الزراعة والحصول على القمح بشكل منتظم منذ ما يناهز الثمانية آلاف عام.

تاريخ الحالة الغذائية

شهدت حوران سكنًا إنسانيًا مبكرًا جدًّا يرقى للعصر الحجري القديم الباليوليت، ٢٥٠ إلى ١٠٠ عام خلت، وذلك في واديي الزيدي واليرموك، حيث عُثر على رؤوس حادة وقبضات مستديرة [١].

تصنف هذه الأدوات لما يعرف بثقافة الآشولي الدنيا، وهي من صنع إنسان الهوموراكتوس، وهي بالطبع من دلالات السكن المبكر بحوران[٢].

وفي منطقة زيزون اكتُشفت قواطع وأدوات حجرية تعود لنصف مليون سنة خلت، نسبها الأب فرنسيس أور إلى اللفلوازي الموستيري[٣].

وفي عام ١٩٦٢ عثرت الباحثة الفرنسية ماري كلير كوفان، على مستوطنة زراعية نطوفية في مدينة

الطيبة شرق درعا، وأجرت فيها موسمين تنقيبين، وهي تمثل مستوطنة زراعية مورست فيها الزراعات الأولى[٤].

وما بين الأعوام ٢٠٠٣ حتى ٢٠١٠، قمنا بكثير من الأعمال والنشاطات، واكتشفنا ووثقنا من خلالها عشرات المواقع الأثرية التي مورست فيها الزراعات الأولى، ونشير إلى موقع الميسري، حيث عثرنا على أكثر من ١٧ جاروشة حجرية مع بعض المدالك، وهي لسحق الحبوب، وأساسات لبيوت إضافة إلى كثير من الأدوات الصوانية العائدة للعصر الحجري الحديث النيوليت ما يطابق الألف الثامن قبل الميلاد، مرافقة مع توثيق رسومات ونقوش حجرية لأول مرة بتاريخ حوران[٥].

تعود لذات الفترة، في ظل انعدام اللقى الفخارية، ما يثبت بالأدلة المكتشفة مرجعية الموقع الزراعي للعصر الحجري الحديث وكون الميسري بات يمثل أحد أروع النماذج الحية لموقع زراعي كان يكفي نفسه من الاحتياجات الأساسية.

يضاف إلى الميسري عشرات المواقع التي قدمت دلائل لممارسة الزراعة والاستقرار البشري منها مواقع: خراب الشحم والشياح والخوابي وتل شهاب والقصير وأم الميادن، وهي متوزعة على مساحات شاسعة من حوران، تقدر بما يزيد على ٧٠ كيلومترًا[٦].

النقوش الكتابية تثبت صدق المكتشفات

نظـرا لكـثرة الأدوات والجواريش المكتشفة التي تـدل على قدم الاستيطان، وتنـوع الحياة والنشاطات البشريـة فيهـا، كنا نحتـاج لمـا يثبت ويجسـد نوعية المحاصيـل التـي زرعهـا الإنسـان، وما هـي الأكلات المفترضـة التـي أعدها إنسان المنطقـة، ولا سيما بعد أن تمكن مـن توفير الاستقـرار بالمحاصيل من خلال ممارسـة الزراعـات الأولى، والاستغنـاء عـن حالـة الجمع والالتقاط.

في السنـوات القليلة الماضيـة، دأب فريق أكاديمي متخصـص من جامعـات هارفارد ويـالا الأمريكيتين علـى دراسة نقوش وأرشيـف مسماري مـن مدينتي آشور وبابل يلخص كثيرًا من تفاصيل الحالة الغذائية السائـدة في منطقتـي بـلاد الشام وبـلاد الرافدين، وتمكنـوا مـن فك رموز أغلـب تلك النقوش، ومن ثم ترجمتهـا للغات الحيـة كالإنكليزية، وعرفـت مِن ثَمَّ أغلـب تلـك الوصفـات، وقـام الفريـق بالتنسيـق مع اختصاصيـين في الطبخ الأكاديمـي للتعرف على بناء تلك الوصفات ومطابقتها مع أكلات معروفة في أيامنا هـذه، وهنا كانـت المفاجأة الجميلـة. تم التعرف على أكلات لا تـزال سائـدة حتى اليوم كاليـبرق «الدولمة» التي لا يزال شعب العراق يطبخها ويعدها حتى اليوم.

وفي التفاصيـل الجديدة نمضـي، فقد أعاد السيد Barjamovic وهو خبير في علـم الآشوريات بجامعة هارفارد الأمريكية، ترجمـة اللوحات الكتابية، وشكل لأجل ذلك فريقًا متعـدد الاختصاصات مكلفًا بإعادة الوصفات الغذائية للحياة من جديد.

سُمِّيَـتْ كُلُّ الألـواح بالأرشيـف الكتابـي البابلـي «Credit Yale Babylonaincollection»، يعـود ثلاثة من هذه الألواح إلى نحو ١٧٣٠ قبل الميلاد بينما الرابعة تعود ل ١٠٠٠ سنة.

جميع هذه الألواح من منقطة بلاد النهرين العراق القـديم، التي تضـم بابـل وآشور، وهي اليـوم جنوب وشمال بغداد ومناطق شاسعة من سورية وتركيا.

مـن بين الألـواح الثلاثـة الأقدم أكثرهـا سلامة، وهـي قائمـة المكونات التـي تصـل إلى ٢٥ وصفة من اليخنة والمرق.

قالـت «بياسورنسن» عالمـة الكيميـاء الغذائية في جامعـة هارفـارد التي عملت مـع «باتريشيـا خورادو غونزاليـس» الزميلة في هارفارد للعلـوم والطهي على إتقـان نسـب المكونـات باستخـدام منهـج علمي من الفرضيات والضوابط والمتغيرات.

إن جميع المواد الغذائية اليوم وقبل ٤٠٠٠ سنة هي نفسهـا، قطعة من اللحم هـي الأساس من وجهة نظر الفيزياء العلمية هي نفسها قطعة اللحم.

قـال خـورادو غونزاليـس هناك علم نفسـه اليوم كمـا كان قبل ٤٠٠٠ سنة، استخـدم علماء الطعام ما

يعرفونـه عن الأذواق البشريـة، وأساسيات التحضير التي لا تتغير بشكل جذري بمرور الوقت، وما افترضوا أنـه قد يكـون نسـب المكونـات الصحيـة للتوصل إلى أفضل تخمين لأقرب وصفة أصلية[٧].

تقـول مؤرخـة الطهـي وخبـيرة المطبـخ العراقي نـوال نصر الله التـي ساعدت أبحاثها حـول الأطعمة العربيـة في العصور الوسطى، في ربط الألواح الكتابية القديمة، بتقنيات الطبخ اللاحقة.

تقـول: إن أحـد الأطبـاق يشبه وعـاء الدجاج مع طبقات من العجين وقطع من الطيور مغمورة بنوع من صلصة البشاميل البابلية من نفس المنطقة، وقالت إن عرضها يتضمن عنصر المفاجأة، إذ يُقَدَّم طبق الطيور مغطـى بغطاء يابس، ثـم يفتح رواد المطعـم ليكشفوا عـن اللحم بداخله، إنها تقنية تنـاول الطعام، وتراها الباحثـة نصر الله تتكرر في كتاب الطبخ البغدادي في القـرن العاشر «كتـاب الطبيخ» الـذي يصف التقاليد المحلية في العصور الوسطى.

المليحـي تشابـه وصفـة me-e Puhadi المسمارية

«مصدر الصورة Yale Babylonian collection»

لنبدأ بالترجمة الحرفية لما احتواه الرقيم الكتابي المسماري:

يقصد بحسـاء لحم الضـان me-e Puhadi أنه يـؤكل مع كعك الشعير الذي يُنـزل في السائل، كما قد يفعل اليوم مع الخبز لتذوق الحساء.

يقـدم الإصـدار الـذي توصـل إليـه العلمـاء من الطبـق طعمًا رائعًا وملمسًـا استُخلص من أشهر عدة من التجـارب الناجحـة أحيانًا والخاطئـة في أخرى، وباستخدام الطريقـة العلمية للمتغـيرات والضوابط لكشـف ألغاز وخفايا الوصفة، لقـد أدركوا على سبيل المثـال عندمـا كان إدراج عشبـة الصابـون وهو نبات معمـر يستخـدم أحيانًـا كصابـون لطيـف، ترجمـة خاطئـة إضافـة إلى أن هذا المكون بـأي مقياس جعل الطبـق الناتج مرًّا ورقيقًا وغـير مستساغ. وبالمثل فإن

وصفة المليحي التي اعادت تجربتها جامعة هارفارد

مستويـات التوابل لها عتبة، فهنـاك كمية من الملح في أي طبـق سواء قبل ٤٠٠٠ سنة أو اليوم ما يجعلها غير صالحة للأكل كما قالوا.

ترجمة النص المسمـاري للعربي مباشرة: «حساء اللحـم، أنـت تستخدم اللحـوم، أنت تستخـدم الماء، يمكنك إضافة الملـح الناعم الحبيبات، وكعك الشعير المجفـف والبصل والكُـرَّاث الفارسـي والحليب، أنت تسحق وتضيف الكُرَّاث والثوم»[٨].

المطابقة بين المليحي والمـي بوهادي «me-e Puhadi» :

المقصود بكعك الشعير هو حبات الشعير، وبالطبع يمكن هنـا أن يكـون المقصود هو البرغـل بعد طحنه بشـكل جزئي، وربما الشعير نفسـه، لكنه القمح الذي جـرى التعـرف عليـه أولًا في الزراعـات القديمـة في مناطـق بلاد الشام وجنوب شـرق تركيا وحوران منذ الألـف الثامن قبل الميلاد. ومِن ثَمَّ نحن أمام الحبوب سواء الشعير أم البرغل أو القمح بشكله الأصلي.

الحليـب، لم يتم تحديـد إن كان حليبًـا تمامًا أو لبنًا سائلًا، وليـس بمقدورنا الآن التأكد متى حصل الإنسـان علـى اللـبن أوَّل مـرة، واللـبن السائل وهو المعد حاليًّا للحصول علـى مرقة المليحي، ربما يكون بالأساس هـو الحليب الطازج من الأبقـار أو الغنم، وتحول للبن مـع مرور الوقت، ومن اللبن إلى الجميد أو الهقـط أو الكشي كما يسمى. إذنْ فالعنصر الثاني مـن الوصفة جرى إثباته، وكانت سهول حوران غنية بالمراعي والوجود الحيواني بدلالة رسومات الميسري الحجريـة المنقوشـة التـي تضـم الأبقـار والخيـول والغـزلان والثـيران والأغنام، وتعود للألـف السابع قبل الميلاد.

الملح بالأكيـد عَرَفَـهُ الإنسان منذ فـترات بعيدة، وليـس غريبًـا أن يكـون معروفًـا في المنطقـة، سـواء الحصـول عليه منها بالذات أو استقدامه بنظام البيع والمقايضة من الحواضر العامرة القريبة من حوران.

أمـا اللحوم وهي العنصر الرابـع فموجودة بكثرة تبعًا لشروح الحليب التي أشرنا لها قبل قليل.

أمَّـا الثوم والبصل فتعدُّ حوران منذ أقدم العصور منتجًا زراعيًّا لكلِّ المحاصيل، وأرضها بركانية حمراء غنيـة بالأكاسيـد المعدنية، فعرف سكانهـا الزراعات منذ القـدم. وهنا يجري إثبـات العنصرين الخامس والسادس من الوصفة.

يبقـى العنصـر السابـع وهـو يتبـع للعنصريـن الخامس والسادس هو الكُرَّاث، والكُرَّاث نوع من أنواع الثوميـات كان معروفًا تاريخيًّـا بمصر القديمة وبلاد ما بين النهريـن، وإذا راعينا العلاقات التجارية التي كانت تجمع مدن بلاد الشام ومدن ما بين النهرين من جهـة، وما بين مـدن بلاد الشام ومصـر القديمة وما فيهـا من تبادل تجري قوي ونشـط، لرجحنا الاعتقاد بوصولـه لمناطـق سوريـة ولو بشكلـه المجفـف، أو أن نفترض زراعتـه بكثرة في تلك الأيـام والمرد خصوبة الأرض وكثرة المحاصيل وخاصـة القريبة منه كالثوم والبصل.

هذا مـن جهـة أولى، وإن أتينا للجهـة المقابلة مع قفزة تقدر بأربعة آلاف عام دفعة واحدة، لنصل للعام ٢٠٢٢، ونجد أن مقادير المليحي هي كما يأتي:

لحمة ضان، كمية من الماء، بصل، ورق غار، هيل، اللبن أو الجميد «كشي» «هقط»، البرغل، الملح.

نجـد المقادير تكاد تكـون متطابقة، أمـا الوصف بطريقة الإعداد للمليحي:

فالطريقة:

اللحم: نضـع اللحم في طاسة كبيرة، ونضع فوقها المـاء ونضعها على النار، وننتظر حتـى تبدأ بالغليان، ثمَّ نزيل الزبد المتراكم على الوجه، ثم نضيف البصل وورق الغار والهيل، ونضيف ملعقتَيْ ملح، ويجب أن يتم الغليان إلى ما بين ساعتين ونصف إلى ثلاث ساعات.

الطبيخ:

نحضر البرغـل، ونضيف إليه ملعقـة ونصف من الملح، ونضيـف إليها ماء اللحم، ونضعهـا على النار، ثـم نرفعه عن النـار، وندعكُه جيدًا مـع إضافة ملعقة سمن عربية، تسمى هـذه العملية التدعيك «التدعيج» وبعض شوربة المليحـي، ويستمر الدعك جيدًا ليصبح طريًّا للغاية.

«اللبن» الجميد:

نمرس الجميـد جيدًا بالماء حتى يتحـول لشوربة، ونضعـه علـى النـار ليطبخ، مـع تحريـك مستمر، ثم نضيـف إليه قطع اللحم، وتكـون جاهزة. بعد كل هذه المراحـل للحـم والطبيـخ والمليحي يُسكـب الطبيخ في المنسـف ويُدَلَّكُ الوجه، وتسمى هـذه العملية التدليك «تدليج» وتزيينه باللحـم وسكب شوربة المليحي فوقه. ويكون جاهزًا للتناول.

وهنـا نشاهـد المطابقة الكاملة بطريقـة الإعداد، وفحواهـا: إغـراق اللحـم بالسائل اللـبن أو الحليب، وسكب الحبوب القمح أو الشعير مع مجموعة البهارات المرفقة، ليستوي اللحم، وتكون الطبخة سائلة ومرنة، والقصد هو طراوة البرغل.

وإن أضفنـا إليهـا أن طبق المليحـي لا يزال الطبق الأوَّل في حوران، وأنه يطبخ على نطاق واسع، وبكميات كبـيرة، ولكل المناسبات الاجتماعيـة، ولا يوجد مثائل

الجميد او الكثي او الهقط

مطابقـة له في الأماكن الأخـرى، وتأكيد كل الناس أن هـذا الطبق قديم للغاية، ولا يعرف تاريخه بالتحديد، عَلِمْنـا أنـه طبق متأصـل يخص هـذه المنطقة، ويعود لفترات قديمة للغاية.

إذا يجب علينا مراعاة عدم وجود تفاصيل لطريقة الطبـق قبـل أربعـة آلاف عـام، وأن تدويـن المكونات والمراحـل الأساسية من جهة، وبهذه الدقة والتحديد، والفـترة الطويلـة التـي شهدتها المنطقة مـن تغيرات مناخيـة وتقنيـة ومعيشية والإضافـات أو الإسقاطات التـي قـد تتعرض له الأطباق، ونجدهـا رغم كل ذلك تصل إلينا بهـذا التشابه الكبير، نحن سعداء بمعرفة تاريخ بعض الموروثات القادمة من تلك الأزمان.

المليحي في التراث

يعـدّ المليحـي الطبـق الأول في حـوران مـن حيث شهرته وعراقته، ويعد رمزًا من رموز كرم أهل حوران في الضيافـة، وللمليحي كثيرٌ من الطقوس الاجتماعية المرافقـة لإعداده، فهـو يقام بوساطـة أدوات ضخمة وتراثيـة منهـا الحلة وهي قدر كبـير للطبخ، والمنسف النحاسـي الـذي يحمل بوساطـة حلقتـين جانبيتين، للتمكـن من حملـه، وفي أحيان أخـرى يكونن المنسف أكبر وعـدد الحلقات أربع يجب حملـه بوساطة أربعة رجـال. والمعـروف عـن النحاس أنـه يـوزع الحرارة بانتظام، والكفكير وهو ملعقة كبيرة جدًّا من الألمنيوم وخاص لدعك البرغل بعد أن يطبخ ويمسي طبيخًا.

إنها معتمدة على القمح الحوراني القاسي، والقمح الحوراني زُرع منذ أكثر من خمسة آلاف عام على أقل تقديـر نظرًا لاكتشاف كثير مـن الجواريش الحجرية والمدقـات والمفـارك التـي اسْتُعملـت لزراعـة وطحن القمـح وتحويله إلى برغل ورفيعة وطحين. ويقول كبار السـن من أهالي حـوران: إن جدودنـا وآباءهم كانوا يطبخـون المليحي، ومِن ثَمَّ فمن الصعب تحديد تاريخ إعداده أوَّل مرة.

يعد المليحي الأكلة الأولى بحوران عبر التاريخ وهي المتمركـزة بين جنوب سورية وأعـالي الأردن وأطراف دمشـق وتخـوم البادية السورية. وكان يقـدم كوجبة ضيافـة للزائرين لحـوران، وللمدعوين علـى الأفراح الشعبيـة ومختلف المناسبات، وبقـي يشكل ضيافة في الأعراس حتـى نهاية التسعينيات مـن القرن الماضي قبـل أن يدخـل الأوزي، وهو منسف من الـرز واللحم مكانه بشكل شبه كامل تبعا لعدة أسباب.

منسف المليحي مع الكبة والكبة المهبلة

منسف مليحي مع الشوربة

ويعـرف كذلـك بمنطقـة جبل العـرب محافظة السويداء كتف حوران المطلّ علـى البادية السورية، يعـرف باسم الملاحيـة أو الملحيـة، بتحريك اللام، ويـكاد يطابـق منسـف سهـل حـوران بالمواصفات والطريقة.

ويعد المليحي طبقًـا فاخرًا بالنسبة لباقي الأطباق العربية والعالمية الأخرى، فهو مشكل من مواد زراعية طبيعيـة، وهـي البرغـل واللـبن واللحـم، وفيهـا كل الفيتامينات اللازمة لبناء جسم صحيح وسليم.

ومنظـره وطقوسه الرائعة المرافقـة ولا سيَّما الكبة الحورانية المحشوّة باللحم، ورؤوس الخرفان بجوار قطع اللحم الضان، مضافًا إليها الأهازيج الشعبية الجميلة، مثل: «صبوا القرا يلي معلم عالقرا»، أي اسكبوا الطبيخ في المناسف، وادعكوها جيدًا يا أيها الوكلاء والمعازيب، كُلُّ أولئك يجعل منه طبقًا لذيذًا مُشْتَهًى. فهناك عمليتا التدعيـك والتدليك اللّتان تُلْفظـان بلهجة أهل حوران: «التدعيـج والتدليـج»؛ التدليـج طبعًا هـي تنعيم سطع المنسـف ليكون ملسًا ومنتظمًـا وسكب بعض المرق عليه قبل أَنْ يُزَيَّنَ بقطع اللحم.

الهوامش والمراجع

(١) عصـور ما قبل التاريخ، الدكتور سلطان محيسن الطبعة العاشرة، دمشق، جامعة دمشق، ٢٠٠١- ٢٠٠٢، ص ٢٢٠.

(٢) الحوليات الأثرية العربية السورية، الدكتور سلطان محيسن، دمشق المديرية العامة للآثار والمتاحف، ١٩٩٧ المجلد ٤٢ ص ٤٣ .

(٣) درعا مدينة المدائن، الدكتـور خليل المقداد، دمشق، دار عكرمة، ١٩٩٨، ص ٦٦.

(٤) الحوليـات الأثرية العربية السورية، مـاري كلير كوفان، ١٩٧٣، ص ٣٥٥.

(٥) تقاريـر أثرية مقدمة لدائرة آثار درعا، ياسر أبو نقطة، درعا، ٢٠٠٤.

(٦) الثقافـة الشعبيـة، مجلة دوريـة، ياسر أبو نقطـة، النقوش الصخرية في جنوب سورية، مملكة البحرين، العدد ١٥ خريف ٢٠١١.

(٧) دراسـة تاريخيـة صـادرة عـن جامعة يـالا البريطانية، Yale University's Babylonian Collection ومنشـورة على موقع الجامعـة، «Andy corbley ». Feb 11.2021 .

وعلـى موقـع وكالـة بـي بـي سـي «B B C » البريطانيـة بتاريـخ 4 November 2019 عـن طريـق السيـد Ashley Winchester .

(٨) تَرْجَـمَ النصـ من اللغـة العربيـة إلى اللغـة الإنكليزية الأستاذ كمال الشّوفانيّ، فله مني كلُّ الشكر والتحية.

تراث الرعي في الجزيرة السورية

أحمد الحسين

مدخل أولي:

شكّل الرعي وتربية الماشية مهنة أهل البوادي، وسكان الجزيرة السورية، وحدّد نمط حياتهم الاجتماعية خلال القرن التاسع عشر، إلى مطلع القرن العشرين، إذ بدأت الزراعة تأخذ نصيبًا من اهتماماتهم، تمهيدًا لمرحلة الجمع بين المهنتين الرعوية والزراعية، ومن ثمّة الانتقال من حياة البداوة والترحال إلى الحياة الريفية الحضرية، وما يتصل بها من إقامة وسكن واستقرار.

لقد هيأت عوامل عديدة لشيوع مهنة الرعي وانتشارها في ذلك الوقت على رأسها: نمط العلاقات الاجتماعية القائمة على مبدأ التكاتف والتماسك في إطار وحدة القبيلة، وتفرعاتها العشائرية، واتساع مساحات المراعي والأراضي البور، ووفرة المصادر المائية، فضلًا عن غنى الغطاء النباتي، وتنوّع النباتات والشجيرات الرعوية، ما جعل مهنة الرعي في تلك الأيام من المهن التي لا تكلفة مالية تترتّب على القيام بها قياسًا إلى المهن الصناعية أو التجارية.

وتعدّ مهنة الرعي من المهن الموروثة، إذ وافقت نفسية الإنسان العربي منذ أقدم العصور، بما فيها من اتصالٍ بالطبيعة، وحريةٍ في الانتقال والارتحال، عدا عن كونها وفّرت فرص العمل أمام أجيال الشباب الذين لم تكن أمامهم فرص عمل أخرى في ذلك الزمن سوى امتهان الرعي في قطعان الآخرين، ريثما يكوّن الواحد منهم قطيعًا لنفسه من أجرة رعيه، ثم يختار لاحقًا ما يناسبه في العمل والحياة.

وكانت تربية الماشية مصدر العيش شبه الوحيد بما توفره من منتجات غذائية من لحوم ومشتقّات

قطيع عائد من المرعى

الألبان، ومصدر الدخل المالي للأسر، إذ تبيع تلك المنتجات للتجار الوافدين على البوادي والأرياف لشرائها في موسمي الربيع والصيف، وبثمن تلك المنتجات كان الناس يسدّدون ديونهم المالية، ويبنون بيوتهم، ويزوّجون أبناءهم، ويقتنون ما يحتاجون إليه من سلع وحاجيات، ويقيمون من فائض ما يبيعون مشروعاتهم الأخرى، ويدّخرون الفائض من المال لأوقات العسرة والشدّة.

وفي اللغة: «الرعي بالكسر بمعنى الكلأ، والمَرعى موضع الكلأ، وجمع المَرعى مراع، والمَرعَاة موضع الرعي أيضًا، والراعي جمع رعاة ورعيان ورعاء، والرعيّة: الماشية الراعية والمرعية»[1]، ويقال: «رجلٌ تِرْعَايةٌ وترعيّةٌ وتُرعيّة للذي يجيد رعيّة الإبل»[2]، وعليه فالماشية هو الاسم الشائع الذي يطلقه أهل البوادي والأرياف على الأنعام كالغنم والماعز والإبل والأبقار والجواميس، وقد عُرفت القبائل التي تمتهن تربية الأغنام والماعز في حوض الخابور والفرات باسم العشائر الغنّامة، وأطلق على القبائل التي تهتم بتربية الإبل والانتجاع بها نحو مواطن الكلأ وموارد الماء بالعشائر الجمّالة أو الرحّالة، وسُمّيَ من يعتنون بتربية الأبقار والجواميس العشائر الجوّالة.

وتسير إلى جانب مصطلح الماشية مصطلحات موازية، فيقال عن الماشية: السحت، ويشمل ذلك: الخيول والبغال والحمير والدواب، كما يطلقون اسم الهوايش واحدتها هايشة، أو السوايم مفردتها سايمة على الأبقار والجواميس، في حين نجدهم يطلقون اسم «البل» على الإبل إضافةً إلى مفردة الأباعر، والبعارين، ومذكرها بعير، ومؤنثها ناقة.

ولما كان لمهنة الرعي تقاليدها وأصولها وأعرافها التي شكّلت جزءًا من موروث الثقافة الشعبية، وأنَّ هذه المهنة أخذت تتراجع، وتنحسر أمام المهن الزراعية والتجارية والصناعية، خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين وما تلاها، كانت غاية هذه الدراسة الإحاطة قدر المستطاع بطبيعة تلك المهنة، والإلمام بجوانبها بغية توثيق ما يتصل بها وبتراث الرعي من أصول ومعارف وتقاليد.

تكوين الراعي:

الراعي اسم فاعل من رَعَى، وهو صفة تطلق على من يقوم بعملية رعي الماشية لنفسه أو لغيره وجمع الراعي «رعاة ورعيان ورُعاء»[3]، وهذه المهنةُ تتطلب كالمهن الأخرى تدريبًا وتأهيلًا يستغرق سنوات من أعمار أبناء البوادي والأرياف، تبدأ بطفولتهم المبكرة، وترافقهم هذه المهنة إلى أيام شيخوختهم، ما يقودنا للحديث عن الراعي بصفته محور مهنة الرعي وأساسها، وعليه نقول: إنَّ تكوين الراعي بمعنى إعداد الصبي ليكون راعيًا، عمليةٌ تمرّ بمقدّمات ومراحل متدرّجة، تبدأ بمرحلة رعي الصبيان للبَهَم، وهو مصطلح يُطلق على صغار الخراف قبل أن تُفطم، وقد يطلقون عليها اسم الطليان مفردها طلي وطليّة، ورعاية البهم تكون بإخراجه إلى البرية القريبة من المنازل، ويكون الرعاة الصغار آنذاك في سن السابعة إلى العاشرة من العمر، ويساعدهم في أداء عملهم بعض الكبار بإسداء النصائح والإرشادات العملية في سوق الخراف وجمعها وتعويدها البقاءَ خارج الحظائر، وتشجيعها على رعي النباتات وترويضها، إذ إنّ هذه الخراف بعد عدّة أسابيع من الخروج بها إلى المراعي القريبة تكتسب صفة القطيع فتصبح أكثر هدوءًا واستعدادًا لعملية الفطام والانفصال عن الأمَّات.

وتكون عملية رعي البهم مقدمة لما يسمّونه «المُبَاهَمة»، وهي خطوة ثانية على صعيد ضم هذه الخراف إلى قطعان الماشية، فيقوم أصحاب كلّ بَهَم بضم بهمهم إلى قطيع آخر غير قطيعهم لمدة شهرين تقريبًا، فيعتاد هذا البهم مرافقة القطيع وتناول النباتات، ثم يعاد إلى قطيعه الأصلي بعد أن يكون قد فُطم ونسي عملية الرضاعة.

ولما كانت عملية رعي البَهَم لدى الصبيان تتكرّر وتتجدّد كلّ سنة، فهذا يعني أنهم يُغنون تجربتهم الحياتية بما يؤهلهم لمعرفة بعض سلوك الماشية وطريقة التعامل معها، ما يجعلهم من جانب آخر على القيام برعي قطعان الماشية، سواء كانت لأسرهم أو للآخرين، ويكونون عندئذٍ قد تخطوا سن الرابعة عشرة، وهي السن الشائعة لبداية عمر امتهان هذه المهنة واحترافها.

ورعي الصغار للبهم من موروثات الحياة البدوية التي عرفها البداة وعاشها أبناء البادية في الماضي والحاضر على السواء، وقد ذكر ذلك قيس بن الملوح في شعرٍ له فقال[٤]:

تعلّقت ليلى، وهي ذاتُ ذُؤَابَةٍ
ولم يبدُ للأترابِ من ثديها حَجمُ
صغيرين نرعى البَهمَ يا ليت أنّنا
إلى اليوم لم نكبرْ ولم تكبرِ البَهمُ

ويُطلق على عملية الرعي اسم «السِّرَاحة» التي قد تكون مهنةً قصيرة أو طويلة الأمد، إذ نجد من الرعاة من قضى عمره وأفنى حياته في هذه المهنة دون أن يتركها، وأغلب هؤلاء الرعاة يكونون من الغرباء الذين وفدوا إلى المكان، فألفوا أهله الذين عاشوا بينهم ومعهم.

شرط الراعي:

يقال للغنم السارحة قطيع، وجمعه قطعان، وليس للقطيع عدد محدد من الرؤوس، ولا يرغب صاحبه بالأساس أن يذكر ذلك لاعتبارات متعدّدة، ويطلق على القطيع أحيانًا اسم العصا، فإذا كان لمالك الماشية أكثر من قطيع قيل: عنده أكثر من عصا، وكانوا يسمّون القطيع الكبير: طهامة، ويطلقون على القطيع الصغير مصطلح شلية أو خزلة، في ضوء ذلك فإن عملية رعي القطيع لدى المُسترعى له تقوم على مبدأ تحديد الحقوق والواجبات بين الطرفين، ويطلق على ذلك مصطلح شرط الراعي، ويراد به نص الاتفاق بينهما بما يتضمن الأجر والحقوق والواجبات والالتزامات، وكان الغالب في تحديد أجر الراعي أن يكون من نتاج قطيع الماشية لقاء أن يرعى له سنة حولية يجوز أن تتجدد أكثر من مرة باتفاق الطرفين، وقد لا تستمر أكثر من أشهر لخلافاتٍ قد تنشأ بينهما.

رعاة على ظهور الحمير

ويختلف مقدار الشرط لجهة جنس الماشية إن كانت من الأغنام والماعز أو الإبل والأبقار والجواميس، كما تختلف بحسب عدد القطيع وعمر الراعي وخبرته، ويختلف الشرط بشكل عام من منطقة إلى أخرى ومن عشيرة إلى عشيرة.

ويفضّل الراعي أن يكون أكثر شرطه من إناث الماشية طمعًا بتكاثرها وتوالدها بينما يحرص المالك على نقيض ذلك، فيدفع من ذكور الماشية والماعز ثم يكون هنالك تسوية بين الطرفين يتفقان عليها، فيعقد شرط الراعي بذلك ويتمّ.

بيد أن ما يُدفع للراعي في بعض الحالات قد يكون مبلغًا ماليًا يحددّ عن كلّ رأس شاة، وذلك عندما يكون القطيع مُلكًا لأكثر من شخص، وليس ملكًا لشخص واحد، ثم إنّ هذا الأسلوب صار هو الدارج والمعمولَ به، إذ يحصل الراعي على أجر شهري مقطوع سواء أكان القطيع ملكًا لشخص أم لعدة أشخاص.

هذا فيما يتصل بشرط رعي الماشية، أما رعي الإبل، فيكون شرطه من نتاجها كعودًا أو أكثر، وقد يكون غنمًا يدفعها المالك للراعي كل سنة، كما يجوز أن يكون نقدًا يُدفع حسب اتفاق شهري أو سنوي، أما شرط راعي البقر والجواميس الذي يطلق عليه اسم «جوّال البقر» وليس اسم «راعي البقر» فكان يدفع نقدًا عن كل رأس، لأن ملكية قطيع البقر تعود لأكثر من شخص، ويذكر أنه في بعض سنوات الجوع كان جوّال البقر يتقاضى رغيفًا عن كل بقرة يقودها أو يسترعيها في اليوم الواحد، ويجمع أرغفته في كيس يحمله على ظهره يسمّونه «توره» فيكون أجر رعيه تأمين قوته وقوت أسرته اليومي.

ومما يذكر أنّ شرط الراعي في مطلع شبابه لا يزيد على فطيمة غنم وسخل من الماعز، ثم إنّ هذا الشرط يتضاعف ويزداد حسب السنوات فيصل إلى عشرة إلى خمسة عشر حَمَلًا من ذكر أو أنثى.

ويذكر كبار السن أنّ بعض الرعاة في سنوات الجوع والجدب كان يقبل أن يرعى للآخرين لقاء كسوته وطعامه، وفي ذلك يضربون الأمثال ويطلقون الأقوال في خساسة همّة الراعي وضآلة الأجر، فيقولون «داب كدّو ببطنو» أو «داب رعيتو بخبز بطنو».

وحين نتتبّع مصطلح الشرط نجده مما عرفته العرب في ماضيها وعملت به في مختلف عهودها فاستمر في حياتها على نحو ما أورده الجاحظ من نص شرط بين راعٍ وبين رجل استرعاه على ماشيته فقال: «إن شرطهم عليه أن يقول المسترعي للراعي: إنّ عليك أن تردّ ضالتها، وتهنأ جرباها، وتلوط حوضها، ويدك مبسوطة في الرسل ما لم تنهك حلبًا أو تضر بنسل، قال: فيقول عند ذلك الراعي لرب الماشية، بعد هذا الشرط: ليس لكَ أن تذكر أمي بخير ولا شر، ولكَ حذفة بالعصا عند غضبك، أخطأت أو أصابت، ولي مقعدي من النار، وموضع يدي من الحار والقار»[٥]، وبهذا نكون أمام أقدم وثيقة تشير صراحة إلى مفهوم الشرط وتتضمن بنوده بين الراعي والمسترعى له الذي يطلق عليه في بيئة الجزيرة اسم «المُعَزّب».

كسوة الراعي وطعامه:

وهي مما يعدّ من شروط العقد ومتمّماته، وتقع على عاتق المُسترعى له، وتحدّد وفق الأعراف التي كانت سائدة بين العشائر في البوادي والأرياف السورية.

وطعام الراعي في العادة يكون من طعام أسرة «معزّبه» وكان يتّصف بالقلّة والندرة في بعض السنوات، وأكثر ما يكون من التمر والقليل من خبز الذرة أو ما يسمّونه «القُرصة أو العَصيدة» أو من خبز الشعير، وكان يحدّد للراعي حصته اليومية أو جعالته بحدود رغيف أو رغيفين على أكثر تقدير، يضعها الراعي في خرج حماره قبل انطلاقه في قطيعه فجرًا، فتكون زوّادته طيلة يومه، فإن عاد بالقطيع مساء قدّم له عشاؤه وهو من عشاء أهل البيت كما يقال.

ولكنّ الراعي في مألوف العادة لا يكتفي بما يُخصص له، فيعتمد على منتجات الماشية ويصنع منها لبن «الصَّليل» وهو حليب نيئ، يضعه في ظرف صغير من جلد طري، ويتركه حتى يغلظ ويصلب، فيحتسي منه ويشرب، وقد يصنع الجبن النيئ من حليب الماشية ولكن بمقادير محدودة، لا تثير انتباه ربّة البيت فتؤنّبه وتعنّفه، كما يلجأ الراعي إلى صيد بعض الطيور والحيوانات البرية وقطف بعض أنواع البقوليات والنباتات وفق سنوات الخصب والأمطار، ويستفيد من بيوض القطا والطيور، وجني ثمار الفطر والكمأ، وغير ذلك مما يجده في أنحاء البرية من حوله.

على أنَّ من حقوق الراعي المتعارف عليها بين أهل البادية أنّهم إذا نحروا شاة، وأعدّوا وليمة، فإنهم يخصّون الراعي بجزء منها يسمّونه «جُزو الراعي» يقدم له عند عودته مساء أو يُرسل إليه، إذا كان يبيت مع أغنامه في البرية، ويعد هذا السلوك من الشيم والقيم المعهودة، وذاك مما ذُكر كثيرًا في أمثالهم وأقوالهم وعباراتهم، ولا سيَّما في إطلاق الأيمان والحلف كقولهم:

«وحياة بنات زبيد أل ما كلن جزو الراعي»، الذي هو كما يقولون يتكوّن من لحم رقبة الذبيحة.

أمّا فيما يتصل بكسوة الراعي، فله كسوة شتوية وأخرى صيفية، وقد يهدى بعض قطع اللباس في الأعياد والمناسبات، وتشمل كسوة الراعي ثوبًا وجاكيتًا ومعطفًا سميكًا وفروة وبشتًا وغطاء رأس وحذاء للشتاء وآخر للصيف[٦].

ومن شروط منح لباس البشت والفروة أنها تترك للراعي إن أتمّ مدّة شرطه، فإن ترك القطيع قبل ذلك فيحق لصاحب الماشية أن يسترجعها منه.

وبالتوازي مع ذلك فالراعي يصنع لنفسه بعض قطع اللباس الإضافية من صوف الماشية الذي يغزله وينسجه كالقفازات، أي الكفوف لليدين والجرابات التي يسمّونها «رانات» للقدمين والقبع الذي يغطي به الرأس وأحيانًا ينسج صدرية أو يصنع حذاء من جلد وصوف يسمّونه «الجلم».

والواقع أنّ طبيعة الحياة في تلك المرحلة فرضت على الراعي أن يتدبّر كثيرًا من أموره، ويجد الحلول المناسبة لها على نحو ما رأيناه في إعداد طعامه وتأمين لباسه، إذ كان كما يقال يتعلم العجين والخبز بنفسه، لأنه قد يضطر أن يقضي أيامًا وأسابيع في البريّة دون العودة إلى مضارب الحي.

قطيع قرب جابية العلف

واجبات الراعي والتزاماته:

وهـذه الواجبـات تدخل في إطـار الشـرط المتفق عليـه، بـين الراعـي وربّ الماشية، فهي ممّـا يقوم به الراعي ويؤدّيه، لقـاء حصوله على الأجر الذي يناله، وتتبلـور هـذه الواجبـات في سيـاق الاهتمـام برعـي القطيـع وتغذيتـه، والحفاظ عليه وحمايتـه، ومراقبة أوضاعه الصحية، وما يعتريه من أمراض ومعالجتها بما يستطيع أن يقوم به الراعي وأهل الماشية.

وباستثنـاء بعض ساعات النهار القليلة، فإنّ مهمة الراعـي تتمثل بالخـروج مع قطيعه في الـبراري طلبًا للـكلأ، والانتقـال به من مكان إلى آخـر، وتعرف هذه العمليـة باسم «المدّة أو السراحة» ويقصدون بذلك أنّ الغنم تكون خارج نطـاق الحظائر والبيوت، فيقولون: مـدّت الغنم: أي انطلقت إلى المراعـي، ويقولون سرح بالغنم إذا رعـى بها في الحقول، ونقيض ذلك قولهم: روّحت الغنم إذا عاد بها الراعي إلى الحظائر والبيوت عصرًا أو مساءً.

وتبدأ فترة الرعي بالخـروج بالقطيع عند الفجر، ويسمّـون هذه المرحلة «سروةً» وهي من السُّرى وتعني: الانطـلاق والسفـر المبكر، إذ تبقـى الماشية في البرية إلى وقـت الضحى أو الظهيرة، فتعـود من أجل حلبها وتترك ساعةً أو أكثر لكي ترتاح، ثم يخرج بها الراعي من جديـد في مرحلة تسمى «المَـدّة» وتطلق على فترة الرعي بعد الظهر إلى مـا قبيل الغروب، فإن رجع بها لتحلـب أو لتأخذ علفها المسائي قادهـا في جولة ثالثة تسمّـى «المعشّى»؛ إذ يبقى مـع قطيعه إلى وقت غروب نجمة الراعي التي يسمونها معشية الرعيان.

ومن مراحـل الرعي وأوقاته ما يسمّـى «النشرَة»، وتكون هذه في الشتاء عند إنبات زروع القمح والشعير، أي مـا بين شهر كانون الأول وأوائل آذار، وفيها يتسلل الراعـي بغنمه ليلًا ليدعها ترتـع في تلك الحقول دون علم أصحابها، وبذلك فإنّ مواقيت رعي الماشية تتوزع علـى ساعات الليـل والنهار، لكن مددهـا تختلف من فصـلٍ إلى آخـر، وهذا ما يجـب أن يقوم بـه الراعي ويؤدّيه يوميًّا.

ويختلـف برنامـج رعـي الماشيـة عن رعـي الإبل، التـي يخـرج بهـا الراعـي صباحًـا، فلا يعـود إلى ما بعـد الغروب، وقـد يمكث في البريـة أيامًـا وأسابيع، ويسمّـون ذلـك «مبيتًا»، وهو كذلك غـير برنامج رعي الأبقـار والجواميس، التي يخرج بها الجـوّال صباحًا إلى المراعي والمواقـع القريبة، فيعود بها ظهرًا لتحلب وترتاح إذا كان الوقت صيفًا، ويعود ويخرج بها عصرًا لتعـود إلى حظائرها وبيوت أصحابها مسـاءً، أما إذا كان الوقـت شتـاءً فيخـرج جـوّال البقـر بقطيعه من الصباح ويعود به عصرًا أو قبيل الغروب.

ونعـود فنشير إلى بعض واجبـات الراعي الأخرى عـدا واجب رعي الماشيـة، والانتقال بهـا بين الحقول وفي الـبراري، فإلى جانب ذلك تناط بالراعي مهمات والتزامـات، وأعمـال يقوم بهـا، ويؤديهـا حسب واقع الحال ومن ذلك:

١- ألّا يشغـل نفسه بأي شيء سوى رعي ماشيته، وألّا يدعهـا تجثم في المـكان طويلًا، فذلك مما يضر بهـا، وعليه أن ينتقل بها من مـكان إلى آخر لتجديد نشاطهـا، وزيـادة إقبالهـا علـى الرعي، ويجـب ألّا يصرفـه عـن ذلـك شاغـلٌ، كمصاحبـة جامعـات الحطـب، أو مطـاردة بعض الطيور كقـبرة «ملهية الرعيـان» التـي تخدعـه وتطمعـه في اصطيادهـا، فتقـوده إلى مسافة بعيـدةٍ عن القطيـع، ما يعرضه للمخاطر والضياع.

٢- أن يتفقـد أوضاع قطيعـه الصحية، ويعالج ما يستطيـع معالجته من أمراض أو يعلم صاحب القطيع عن ذلك ليتدبر أمره.

٣- أن يتأكـد من عدد رؤوس قطيعه عند خروجها وعودتهـا، وأن يتفقّـد الضائع منها ويبحـث عنه، وإن لم يعـثر عليه، فيجـب أن يُعلِم صاحـب القطيع بذلك ليساعده في البحث عنها والعثور عليها.

٤- أن ينـام بـين قطيـع أغنامـه أو بالقـرب منه صيفًا وشتاء، تحسبًا للمفاجآت واعتداءات اللصوص والذئاب، ومراقبة حالات الولادات الجديدة.

٥- أن يقوم ببعض الأعمال الأخرى بنفسه كتوريد الماشية شتاءً مـن الشرائع والمناهل العامة، ومساعدة أهل القطيـع في وردها صيفًا من الآبار، والمساعدة في جـزّ صوفها أو تعليم ظهورهـا بصبغة المغر كي تعرف إذا اختلـط بعضهـا بقطيـع آخـر، وأن يقلـم أظلاف بعضها، ويجبر كسورها وغير ذلك.

٦- أن يُعلـم صاحـب القطيـع إن تعرض قطيعه لمهاجمـة اللصوص أو الذئاب، وأن يعـود بلحم الشاة التـي يضطر لذبحها لسبب مـا، إلى بيت مالكها، وإلا تعرّض للمساءلة والمحاسبة.

٧- أن يكـون رحيمًـا بالماشية، صبـورًا عليها، وألّا يضربها بعصا، بل ينهرها ويردها مستخدمًا الإشارة والإيمـاءة، والراعي الماهـر تدرك الماشيـة مقصده، فتستجيب له وتنقاد.

الطبل من زينة الماشية

عتاد الراعي:

ويعـدّ ذلـك مـن لـوازم الرعي، وممّـا يحتـاج إليه الراعـي في أداء عمله، فمـن ذلك: ما يتصـل بالأدوات التي يحملها ليهش بها على غنمه، أو لحمايتها كالعصي والمطـارق والدبابيـس، يضـاف إليهـا بعض الأسلحـة الفردية كالخناجر والجنـي والكلنك، وقد يزوّد الراعي ببندقيـة صيد «جفت» لحماية قطيعـه، والدفاع عنه من اللصوص والذئاب، وقد يستخدمهـا للصيد أحيانًا، ثم صارت قطعـان الماشية تـزود بأنواع البنـادق الحربية، التـي يخفيها الراعي في خرج حماره، أو في طيات صوف مرياعـه، خشية اكتشافها من رجـال الشرطة والدرك، مـا لم تكن مرخصة أو مسموحًا حملها، ولما كان الراعي يعتمـد على نفسه في كثير من الأعمال سعى إلى حمل ما يتعلق بها من أدوات، كالمقاليع والأمواس والإبر والخيوط، وزناد النار، وفيما بعد القداحة والآنية البسيطة للشرب، بحيث يمكنـه بهـذه الأدوات قضاء حاجياتـه، وإصلاح لباسه وإعداد طعامه، وغالبًا ما تقوم زوجة ربّ الماشية، بتزويده بهذه القطع من أدوات بيتها.

ومما يحتاج إليـه الراعي جُـود المـاء، وهو قربة صغـيرة تصنـع من جلـد الماعـز المدبـوغ، يحمل بها الراعـي مـاء شربه، ويربـط الجود إلى بطـن حماره كيلا يتعرض لأشعة الشمس، فيجف ويتشقق ويسخن مـاؤه، ثـم إنّ الجود اختفـى من الاستعمـال، وتراجع بعـد ظهور نوع من الأوعيـة القماشية، التي تصنع من كتـان سميك، تسمى الواحدة منها «مطرة أو مطارة»، يعلقها الراعي على جنـب حماره، أو يضعها في إحدى فتحتـي الخرج، وتمتاز هذه بأنها أكـثر فائدةً ومرونةً من الجود في هذا المجال.

أعوان الراعي:

بالرغم من أنَّ الراعي يقوم بكلّ ما يتصل بأعمال الرعي، فإنّه يحتاج إلى من يعينه في أداء عمله بصورة مباشـرة أو غير مباشرة سواءٌ أكان إنسانًا أم حيوانًا، ويشمل ذلك:

- المِلحَاق:

وهو مصطلح متعارف عليه يطلق على مَن يصاحب الراعي ويخرج معه عند غدو الماشية ورواحها، أو عند ازدحام القطعان في المراعي المكتظة، أو في أوقات الحصاد، والملحاق يخرج بالقطيع ويريح الراعي في بعض الأوقات، وقد يكون من أصحاب القطيع أو أقرباء الراعي، وتعدّ الحاجة للملحاق ضروريةً في أول عهد الراعي خاصة، وخروجه للمراعي إذا كان غريبًا عن المنطقة، ولا يعرف طبيعتها ومسالكها.

- حمار القطيع:

وبه تكتمل صورة القطيع وتكوينه، فهو وسيلة للركوب، عليه تعتاد الماشية في سيرها وتوقفها، ويحمل أمتعة الراعي كالبرذعة والخرج، وفي الخرج يضع الراعي طعامه، وصميل لبنه وبعض أسلحته، كما يضع الحملان الصغيرة التي تولد في البرية ولا تستطيع السير، فيعود بها إلى مضارب الحي، وعلى الحمار يحمل الراعي الشاة المصابة، ويربط على بطنه جودة مائه.

وللحمار رسن لقيادته ورشمة حول خطمه تنتهي بسكة صغيرة تغرس في الأرض كي لا ينتقل الحمار من موضعه، فترتع الغنم من حوله وترعى، وهكذا تبدو أهمية الحمار وعدم قدرة الراعي عن الاستغناء عنه، كما يبدو دوره في قيادة القطيع والتفافه من حوله.

- المِريَاع:

وله دور كبير في قيادة القطيع وحركته، ولهذا يحرص الراعي أن يكون لقطيعه مريَاعٌ يساعده في صورة غير مباشرة في أداء عمله ويخفّف عنه بعض الأعباء والجهد. ويؤخذ المرياع وهو حمل صغير، فيعزل عن أمه، ويتولى الراعي إرضاعه الحليب من يده بقرب الحمار، ويهتم بتغذيته وإطعامه، فتنشأ بين الحمار والمرياع علاقة خاصة، إذ يألف الحمار، فلا يفارقه، وتراه ملتصقًا به تابعًا له في سيره وتوقفه، وبذلك يتبع القطيع المرياع عند انتقاله من مكان إلى آخر، فيغني عن دور المساعد أو المرافق.

ويهتم الراعي بغذاء المرياع وزينته، فلا يقص صوف ظهره وأجنابه، ويعلق في عنقه الأجراس، ويضع على وجهه خطمًا من صوف ملون وودعًا، ويزيّن أجنابه بشراشيب الغزل الملونة والمرايا الصغيرة، و يصبغ إليته بالمُغرة ويحرص أن يكون المرياع في أجمل هيئة وصورة.

على أن اهتمام الراعي بزينة الماشية لا تقتصر على المرياع، فهو على سبيل المثال يعلق الأجراس والطبول في أعناق بعض المواشي، ولها أحجام ومسمّيات وأنواع مختلفة، من بينها الطبل: ويكون من صاج معدني أسطواني الشكل، والماويّ: الذي يكون من نحاس أصفر مدوّر، والدمَّام: وهو من جنس الطبل لكنه أكبر، فضلًا عن أنواع القراقيع والأجراس الصغيرة.

وللأجراس وظائف نفسية تجعل الراعي أكثر اعتزازًا ومباهةً للآخرين، بما تحدثه هذه إيقاعات موسيقية تجذب السامعين وتثير انتباههم، كما أنها تدلّ على موقع الماشية في حال انتشرت ليلًا في غفلة من الراعي، وضاعت في البرية، لكن ما يؤخذ عليها أنّها قد تنبه اللصوص والذئاب إلى وجود قطعان الماشية، كما تنبه أصحاب الحقول إلى وجود قطعان ترعى في حقولهم ليلًا، ولهذا يحتال الرعاة بربط ألسنة الطبول كيلا تصطدم بجدران الطبل، فتحدث صوتًا يسمعه الآخرون، أما بالنسبة للأبقار فأكثر ما تزين به رقابها بالقراقيع والأجراس وأنواع الخرز، وكذلك الإبل ولا سيَّما النوق منها.

- كلب القطيع:

ويعدّ دوره أساسيًا في حماية القطيع وحراسته، ولا سيَّما في الليل، وفي البراري والأودية، إذ يختبئ اللصوص وتكمن الذئاب، ويربي الراعي كلابه، فيأخذها عندما تكون جراءً صغيرةً، ويربطها بحبل

إلى برذعة حماره لتسير معه، ويقوم بإطعامها وتغذيتها حتى تألف القطيع والراعي، ثم إنّه يبدأ تدريبها وتشجيعها على مطاردة اللصوص والغرباء، فيركض معها في ما يشبه الغارة أو الهجوم ويستخدم بعض الأصوات والعبارات لتنبيهها وتشجيعها وتحريضها لتنطلق نحو هدفها ويعلو نباحها وعواؤها، ويدرّب الراعي كلابه على حراسة القطيع، لتظل في آخره، وهو ما يسمّى ريشة الغنم فتبادر إذا ما رأت خطرًا إلى النباح وتنبيه الراعي.

ولكلاب الراعي قصص وحكايات في الجرأة والوفاء، على أن بعضها قد يخاوي الذئاب أي يصاحبها فلا ينبح عليها عند مهاجمتها القطيع، ويقال إنّ الذئب قد يصاحب كلبة القطيع، فيسفدها فتلد جراءً تحمل صفات الذئب من قوة وجسارة.

وكانت العادة أن يجدع الراعي أذان جرائه ويقطع أذنابها وهي صغيرة اعتقادًا أنّ ذلك يزيد من حدّة سمعها وجسارتها وإقدامها، وقد اشتهرت بين الرعاة بعض أنواع الكلاب الجبلية التي كانت ترافق قطعان رعاة الكوجر الأكراد.

راع يرعى قطيعه

معارف الراعي وثقافته:

تباينت النظرة حول مكانة الراعي الاعتبارية ومنزلته الاجتماعية، وإن تكن تشوب بعض جوانب تلك النظرة مظاهر الدونيّة، إلا أن الواقع خلاف ذلك، فالراعي شخص إذا ما نظرنا في طبيعة عمله وسلوكه وطريقة أدائه، نجده شخصًا على قدر من الثقافة والمعارف التي تتصل بطبيعة الرعي، مما لا نجدها عند شخص آخر، ولعلّ بعض جوانب الصورة الدونية تتصل براعي البقر «الجوّال»: فلا تنسحب على راعي الماشية أو الإبل إذ يقولون: «بنت الجوّال ما تتأخذ» أي لا يقبل بزواجها أحد، وبالطبع فإن هذه العبارة تحمل نوعًا من المبالغة، ولكنها تشي بقيمة اعتبارية.

وما يؤكد أنّ هذه النظرة الدونية لا تصح في مطلق الأحوال، أنه لا يكاد يوجد شخص لم يمتهن الرعي في بيئة الجزيرة والبادية السورية خلال القرن التاسع عشر إلى مطلع القرن العشرين ولا سيَّما في مطلع شبابه وعمره، سواء كان راعيًا في قطعان أهله وذويه أو راعيًا في قطعان الآخرين.

على أننا قد نعزو بعض جوانب تلك النظرة إلى نمط حياة الراعي، وما تتطلبه طبيعة عمله من انقطاع أو انصراف عن ارتياد المجالس العامة والمشاركة في حل القضايا الاجتماعية، وقد لا تتيح له مهنته حضور الولائم أو الندوات أو الذهاب في وفد مصالحة، وباختصار فهو لا يشارك في الكثير من القضايا العامة التي يشارك بها الآخرون، ما كوّن بعض الاعتقادات الخاطئة حول تأهيل الراعي وثقافته ومداركه المعرفية، والواقع أنّ الرعي مهنة تقتضي خبرة وصبرًا ودراية في كثير من الجوانب وما يؤكد ذلك الآتي:

- الراعي خبير بطبيعة الأرض، ومسالكها، ومعرفة حيواناتها، وطيورها وحشراتها وزواحفها ونباتاتها الضار والنافع منها.

– وهو عـارف بظواهر الفلـك والأنـواء، وتقلّبات الفصـول وتقاسيم الليـل والنهار، وقـد يستقرئ من بعض مظاهرهـا حـال السنـة، ومـا تكـون عليه من خصب وجدب وجفاف وأمطار.

– الراعي راصد للنجوم، عارف أسماءها ومواقعها وحركة دورانها ومواقيت طلوعها وغروبها،

مـا يساعـده في تحديد الزمـن والمواقيت ومعرفة الجهـات وتبـدل الأنـواء، وتغـيرات المناخ وهـذا أمر متصل بحياته وحياة ماشيته.

– الراعـي مُلـمّ ببعض أمراض الماشيـة، وهو ذو خـبرة عملية بطرق معالجتها وجـبر كسورها، مدركًا حاجتها إلى بعض أنواع العلف والنباتـات، فيطعمها مثلًا الملح مرة في السنة، أو يرعى بها في الحقول التي تنبت بها نباتات الحمِّيض والرُّغل والطَّرطيع، فهذه ما يفيد صحتهـا وسلامة نظرها، كما أنه يبخّرها بنبات الحَرمَـل لتـزداد خصوبتهـا، ويطعـم كباشها جذور ودرنات نبـات «الكُـرُم» لزيادة خصوبتهـا ونشاطها، ويستخـدم بعض أنـواع الأدويـة ومساحيـق البودرة الخاصة لمعالجة جلدها ووقايتهـا من القراد والقمل، ويطلقون على هذه العملية اسم التسريب.

– إلى جانب ذلك فالراعي يتقن بعض الصناعات الخفيفـة، فيصنـع بعض قطع اللباس، والأهـم أنّ الراعـي فنـان بطبعـه يعشق الغنـاء والموسيقـا، وقد اشتهـر الرعـاة بإتقان العـزف علـى الآلات النفخية كالمطبق والمجـوز والزمّارة، فـكان يُدعى إلى حفلات الأعراس والدبكات، ويؤتى به لقاء أجر، ويكون موضع إطراء وإعجاب.

– والواقع أنّ الراعي بعد أن يتخلّى عن هذه المهنة، ويتفـرّغ للحيـاة العامة تصبـح هذه المعـارف ذخيرة معرفيـة ينقلها للآخرين للاستفـادة منها في معالجة شـؤون قطعانهـم، ومـن ثمة فهـو ناقل لهـذا الموروث المعرفي والثقافي بين الأجيال.

مصطلحات وأمثال رعوية:

وتتصـل بحيـاة الراعي بعض الألفـاظ والمفردات التـي كانت شائعـة ومتداولـة في المنطقة، لمـا لها من دلالات محدّدة نورد من بينها قولهم العبارات الآتية:

– أَنْهلت الشاة: إذا درّ حليبها.

– حطّـت الشـاة: إذا قـرب موعـد ولادتهـا، وبدأ يتكوّن الحليب في ضرعها.

– غرزت الشاة: إذا نضب حليبها وجف ضرعها.

– طرَحَـت الشـاة: إذا أسقطـت حملهـا قبل وقت ولادته.

– شاة رغوث: الشاة ذات الخروف.

– شـاة مخفوقـة: للتي لا ترفع رأسهـا عن الأرض اعتقادًا أن الطير ضربها بجناحه.

– شـاة نافـرة: وهـي التـي تمنـع خروفهـا مـن رضاعتها.

– غنم معرونة: مصابة بالعرن، وهو مرض جلدي يصيبها إذا رعت نبات العرن .

– غنـم مريوفـة: إذا كانت نعاجهـا بدينةً غزيرة الصوف.

– غنـم مجويـة: إذا كانـت نعاجهـا هزيلـةً قليلة الصوف وجائعة.

– طقـت الغنـم: إذا شـردت ليـلًا في البرية دون راعيها.

– هاجت الغنـم: إذا كانت جاثمة ونهضت لتسرح وترعى.

– ضـوت الغنم: نقيض هاجـت إذا جثمت ورقدت على الأرض.

– جفلت الغنم: إذا نفرت مذعورًا لسببٍ ما.

– حنـت الغنـم: إذا لقّحتهـا الكباش في موسـم الحنو.

– عشّرت الغنم: إذا بانت عليها مظاهر الحمل.

– الحايل: الشاة التي لم تحمل في هذا العام.

– الجّلد: تشمل من الماشية ما ليس بذي مواليد.

– الخوار: هو الفقد والضياع واختلاط شاة بقطيع آخر.

– الهجاجين: مفردها هجون السخل من بنات الماعز تحمل قبل أوانها.

– شجاية التوم: الشاة تلد توءَمًا يموت أحدهما، ويعيش الآخر، فيقال له شجاية.

– اللكوش: الخروف أو الجدي تموت أمه، فيرضع من شاة أو عنزٍ أخرى.

– الكوزة: سياج تعزل به الخراف الصغيرة عن أمهاتها.

– الرّبج: خيط من صوف له شرنقة تعقد على أظلاف الخراف كيلا تفلت.

– البلم: عود صغير يوضع بين فكي الخروف، ويشد على رقبته كيلا يرضع أمه.

– الشملة: كيس من قماش يلبس على ضرع الشاة أو البقرة أو الناقة، ويشد على ظهرها كيلا يرضعها وليدها.

– النعت: صوت الراعي يحث الماشية على السير خلفه.

ويتّصل بتلك التعبيرات بعض القصص والحكايات والأمثال التي تدور حول الرعي، وشخصية الراعي ومن ذلك قولهم:

راع يقود قطيعه

– بخشوم البل سَفا: إشارة إلى الغضب وإخفاء العداوة.

– الشهر المابي لك مرعى لا تعدو ولا تعد أيامه: دلالة على عدم اهتمام المرء بما لا يفيده.

– الما يحضر عنزه تجيب جدي: إشارة إلى خسارة من لا يتابع أموره.

– أم التوم ردت الجبَة: إشارة لمن يفقد الكثير فيخسره.

– لا على فلان سرحت، ولا على فلان روحت: تقال في شأن الشخص الذي لا يعتمد عليه.

– لا تفلح على من كان فلاح ولا تسرح على من كان راعي: لأنهما يرهقان من يعمل لديهما.

– تارك مال أبوي واسرح عند عمي بالكره: تقال في من يهمل ماله وينمي مال غيره.

وكل هذا وسواه من المفردات والتعبيرات والمرويات الشفوية، كان متداولًا بين الناس، يتناقلونه من جيلٍ إلى جيل، وقد قَلَّ استعمال أكثره واندثر.

نزاعات الرعي والمراعي:

وهي نزاعات تتصل بطبيعة هذه المهنة وما يدور حولها من صراعات بين الرعاة أنفسهم أو بين الرعاة وأصحاب الحقول والمزروعات، استئثارًا بالمراعي الخصبة والتنافس على موارد المياه، وقد تتسع هذه الصراعات، فتصبح نزاعًا بين العشائر، يقود إلى حروب وغزوات، كما كان يحدث خلال القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، وثم إنها أخذت تتراجع في ظل سيطرة نظام الدولة وميل العشائر إلى حياة الزراعة والاستقرار.

وكان من المألوف والمتعارف عليه، أن تخرج القبيلة بقطعانها باحثة عن أخصب المراعي وأجودها، فتتنافسها في ذلك عشيرة أخرى، وقد تسبقها في نزول المكان، فتفد عليها عشيرة أخرى وتستقر بقربها، وتزاحمها على موارد الرعي والماء، ومن هنا تبدأ الصراعات الأولى بين الرعاة، وتمتد إلى الصراع بين

عشيرتين، في ظل الاحتكام إلى قانون القوة، وتكون النتيجة أن العشيرة الأقوى والأكثر عددًا وعدّة تزيح العشيرة الأضعف إلى مكان آخر وتجليها عنه.

وبالرغم من أنّ العرف العام كان يعدّ البرية مرفقًا عامًا، تواضع ضمنًا على تقسيم أرجائها ومناطقها بين هذه القبيلة أو تلك، ومع ذلك كانت تقع التعديات وتحدث التجاوزات التي كانت تحل أحيانًا بالتوافق والتحكيم، وأحيانًا بالقوة والنزاع بين المتخاصمين.

ومع عملية التحوّل من الرعي إلى الزراعة التي أدّت إلى تقلّص مساحات المراعي نشأ خلاف آخر بين الراعي صاحب الماشية، والمسؤول عنها، وبين المزارع أو الفلاح مالك الأرض وصاحب حقولها، وهو صراع له أبعاده التاريخية في الحضارات القديمة[٧]، وقد ظل تأثيره ساريًا إلى اليوم، إذ لكل منهما مرجعية ثقافية تعكس الصراع التاريخي الاجتماعي بين النمطين الرعوي والزراعي، فالراعي لا يفكر بشيء سوى بما تقتات به أغنامه بصرف النظر عمّا إذا كانت مادة المرعى أعشابًا أو نباتات برية أو محاصيل زراعية، فإن وجد الفرصة سانحة و اغتنم غفلة، أطلق قطعانه في حقول الآخرين لتعيث فسادًا وتدميرًا وتخريبًا، و على النقيض من ذلك تبرز وجهة نظر الفلاح الذي يعد هذا السلوك تعدّيًا على حقوقه وجهده وماله، فيتصدى للرعاة وماشيتهم، فتحدث جرّاء ذلك مشاجرات قد تصل أحيانًا إلى استخدام السلاح والقتل، وغالبًا ما كان الفلاح يستعين بسلطة الدولة لتقف إلى جانبه وتؤازره في ملاحقة أصحاب الماشية والرعاة، وتعيد إليه بعضًا من حقوقه عن طريق المحاكم أو التسويات والأعراف الاجتماعية.

وقد أشرنا إلى أنّ هذه الصراعات مما عرفته الحضارات البشرية وثقافتها، وهو ما عبّرت عنه الأساطير البابلية والسومرية[٨] من نزاع وتنافس بين الراعي والفلاح، وهو ما تلخصه لنا سيرة بني هلال[٩] في تغريبتهم وانتقالهم من بواديهم في نجد طلبًا للكلأ والمراعي في رحلة طالت وامتدت لتصل بهم إلى مصر وتونس وأطراف أفريقيا، وخلالها تروي الحكايات الشعبية عن حروب وصراعات جرت بينهم وبين سكان المناطق التي مروا بها إثر تعدي قطعانهم وماشيتهم على الأراضي الزراعية أثناء عبورهم إلى تلك البلاد.

أغنام راتعة

أغنام ترعى في الحصاد

الرعي بين الأمس واليوم:

ونصل مما سبق أنّ مهنة الرعي من المهن التي لم تنقرض بصفتها نشاطًا اجتماعيًا واقتصاديًا، لكنها تراجعت وانحسرت إلى أبعد الحدود بعد التحوّل الكبير باتجاه القطاع الزراعي، وما يتصل به من صناعة وتجارة، إذ أدّى التوسع في استثمار الأراضي الزراعية إلى تقلص أراضي البور، وأدت التعديات على مناطق البادية والمناطق الهامشية وفلاحتها إلى انقراض كثير من النباتات والشجيرات الرعوية، وفاقم من المشكلة حالة الجفاف وانخفاض معدلات الأمطار، ما أدى إلى نضوب كثير من الأنهار والينابيع والمسيلات المائية وكانت النتيجة أنّ تربية الماشية والانتقال بها من مكان إلى مكان أصبحت مهنة شاقة وصعبة تقتصر على نسبة قليلة من السكان، وبالمقابل فبالرغم من توفر الكثير من المرافق والخدمات والرعاية البيطرية ظلّت أعداد الماشية في تراجع وانخفاض، وتزداد هذه المشكلة حدّة في سنوات الجفاف ودورات انحباس المطر التي تضع أصحاب الماشية أمام مآزق حقيقية تؤدّي إلى نفوق الآلاف من رؤوس الأغنام بسبب عدم القدرة على تأمين الأعلاف اللازمة لها.

لكنّ الأكثر تأثيرًا هو تغير طبيعة هذه المهنة وتبدل تقاليدها وطقوسها، بدءًا من انقراض الأعمال اليدوية المتصلة بها من حلب للماشية، وجزّ صوفها، ومخض لبنها، والحصول على الزبدة واستخلاص السمن منها، ما قاد إلى الاستعانة ببعض الآلات والمعدات الميكانيكية والكهربائية لأداء هذه الأعمال، الأمر الذي أفقد تلك المهنة جوهر طبيعتها وخصوصيتها التراثية.

ورافق هذه التحوّلات متغيرات أخرى طالت شخصية الراعي نفسه، فلم تعد تلك الشخصية الرومانسية المندمجة في الطبيعة، ومع غياب هذه الشخصية، افتقد رعاة اليوم المعارف العلمية والمواهب الفنية والغنائية، واستعاضوا عنها بأجهزة المذياع والراديو والتقانات الحديثة من أجهزة الاتصالات والهواتف النقالة وبرامج التسلية فيها، وبذلك اندثرت جوانب مهمة في حياة المجتمع وفنونه التراثية، من هنا تنبثق أهمية توثيق تراث الرعي وما يتصل به من عادات وتقاليد وطقوس وفنون، وبرزت ضرورة المبادرة إلى توثيق صورة هذا التراث بكل جوانبه المادة واللامادية.

فاليوم قد نرى قطعان الماشية، ونلتقي بمربيها ورعاتها، ولكننا افتقدنا روح الرعي كما كان ذات

طلي قرب أمه

يـوم، وافتقدنا الطقوس التي كانت ترافقه وتتصل به، فلـم تعد صورة الرعي المعاصر تنقلنا إلى صوت الناي والمزمـار والأجراس والطبول، لقد غابت من بنية تلك المشاهد صورة خروج الحلّابات إلى المراعي عصرًا في موكـب يرافقهن الصغار والأطفال لحلب الماشية، وما كان يسود ذلك الموكب من علاقـات إنسانية وأهازيج شعبية على نحو قولهم:

اروَاحي يمّه ع الحليبْ ارواحي

الشمسْ غابت والقمرْ ضحضاحي

آني بتبــهْ والعشـيرْ بتبـــهْ

منحــرْ ولبّه على الصـدرْ لوّاحي

الهوامش والإحالات

١. المنجد: مادة رعى.

٢. الصحاح: مادة رعى.

٣. المنجد: مادة رعى.

٤. الأغاني: ١/ ١٧٠.

٥. الحيـوان: ٥/ ١٠٨ والبيـان والتبيـين: ٣/ ٥٧. والقار والحـار: البارد والساخن من خـير الماشية أي لبنها ولحمها. هنأ: داوى بالهناء وهو القطران. لاطى الحوضـ: طلاه وطيّنه. الرسل: اللـبن. الحذفة: رمي العصا.

٦. تقاليد الرعي: ص٨٧.

٧. منعطف المخيلة البشرية: ص ٢٢.

٨. منعطف المخيلة البشرية: ص ٢٤٧.

٩-الفلكلور والأساطير العربية: ص ٢٣٨.

المصادر والمراجع

١-الأغـاني: أبو الفـرج الأصفهـاني، نشر صلاح يوسف الخليل، دار الفكر للجميع، بيروت ١٩٧٠.

٢. البيان والتبيـين: الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط ٤ بيروت.

٣. تقاليـد الرعـي: محمـود مفلـح البكـر، الهيئة العامة السورية للكتاب، ط ١، دمشق ٢٠١٣.

٤. الحيـوان: الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، نشر المجمع العلمي، ط ٣، بيروت ١٩٦٩.

٥. الصحـاح: إعـداد نـديم مرعشلـي وأسامـة مرعشلي، دار الحضارة، ط ١، بيروت ١٩٧٥.

٦- الفلكلـور والأساطـير العربيـة: شوقـي عبـد الحكيم، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٨٣.

٧- المنجد في اللغة: دار الشرق، ط ٣٥، بيروت ١٩٩٦.

٨- منعطـف المخيلـة البشريـة: صاموئيـل هنري لـوك، ترجمـة صبحـي حديـدي، دار الحـوار، ط١ اللاذقية ١٩٨٣.

القضاء العشائري في جبل العرب

د. عبَّاس مِرْهج فرج

إن الخوض في ميدان العادات والتقاليد والأعراف التي كانت سائدة في مجتمعنا قديمًا، وما زال بعضها مستمرًا حتى وقتنا الحاضر، يُشعِرنا ويُشعِر القارئ بأصالة تراثنا ورجاحة عقول أجدادنا، وحرصهم على تنظيم المجتمع من خلال الاسترشاد بحكم العقل، ونصب ميزان العدل، والاستئناس بمبدأ الأخذ بالشورى في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية، وإحقاق الحق، وإنصاف المظلوم. وإعطاء كل ذي حق حقه، إذ لا يخلو أي مجتمع إنساني في كل زمان ومكان من اضطرام نار النزاعات والخلافات بين أفراده، تلك النزاعات التي تنشب لأسباب مادية أو اجتماعية أو شخصية، مما يستوجب الاحتكام إلى شخصيات حكيمة عُرِفت باسم قضاة العشائر أو القضاة الشعبيين، الذين عملوا على حل هذه الخلافات وفق قوانين وأعراف عشائرية محدَّدة، وتقاليد موروثة عبر الأجيال، ولا بد أن يتَّسم هؤلاء القضاة بأسمى الشمائل والأخلاق والبصيرة والدراية والحزم وسعة الصدر ليكونوا قضاة عادلين. من هنا كان موضوع القضاء العشائري مجالًا رحبًا للاطلاع على طبيعة الخلافات التي كانت شائعة في جبل العرب قديمًا، وكيفية فض هذه الخلافات بالحسنى ووفق القوانين والسُّنَن الاجتماعية المحلية، وخصوصية كل قاضٍ في القضاء، ولا سيما أننا واجهنا تنوعًا في اختصاص القضاة بقضايا معينة، نتيجة تنوع تلك القضايا ما بين القتل والعرض والمال والدم والتجارة والخيول والأرسان[1] والمراعي وغير ذلك.

١- رسن الخيل: أصلها وسُلالتُها وجمعه أرسان، وهي خمسة أرسان تناقلها أهلُ العلم والخبرة، وأَنْسابها في الجبل حضرًا وبدوًا: ١- جِلْفة: زطَام البولاد، ٢- معنَقيَّة حَدرْجية، ٣- حَمْدانيَّة سمْري. ٤- دْهَمَة إمّ عامر، ٥- كَحيلة عَجُوز، ويتفرَّع من الكحيلة ثمانية أنواع هي: أ- أم عرقُوب (شويهة)، ب- عبيَّة إم جْريْس، ج- سْقلاويَّة جذْرانيَّة، د- كبيشة، ه- طويَّة، و- شويمَة، ز- معنقيَّة سبيليّة، ح- ذخَيّرة. ينظر: وهب قاسم، معجم الألفاظ والتعابير المحكية في محافظة السويداء: معجم لهجي فلكلوري مقارن، الجزء الأول، منشورات وزارة الثقافة- مديرية التراث الشعبي، دمشق، ٢٠٠٩، ص ٣٠٨-٣٠٩.

سوف نخصّص هذا البحث للحديث عن القضاء العشائري في جبل العرب، الذي هو جزء لا يتجزأ من المجتمع العربي السوري الأصيل، الذي احتفظ بإرثه وعاداته وتقاليده كغيره من المجتمعات التي جاورته، فاكتسب منها واكتسبت منه، وكان هناك تواصل دائم بين القضاة العشائريين في جبل العرب، وبين أقرانهم في سهل حوران والبادية السورية والأردنية، وكثيرًا ما قام هؤلاء القضاة بتبادل المشورة فيما بينهم لحل بعض القضايا الشائكة، والاستفادة من خبرات بعضهم بعضًا، من هنا تبدو المسؤولية في هذه المجتمعات التي سادها القضاء العشائري مسؤولية جماعية، وفي ذلك تأكيد لقواعد العُرف والعادة بما يتفق وخصوصية تلك المجتمعات.

وسوف نتحدث أيضًا في هذا المقام عن أسماء القضاة العشائريين، والمصطلحات القضائية، والصفات التي يتمتعون بها، ودرجاتهم واختصاصاتهم والمهام المنوطة بكل منهم، وأنواع القضايا، كما سنستعرض بعض الوثائق التي تتضمن الفصل في هذه القضايا، وطريقة حل كل منها، واجتهاد القضاة في ذلك، وطرق استنباط الأحكام لديهم.

بداية لا بد أن نتوقف عند كلمة القضاء في أصلها اللغوي، التي تعني: الحُكْمُ، إذ جاء في معجم لسان العرب: اسْتُقْضِيَ فلانٌ أي جُعِلَ قاضيًا يحكمُ بين النَّاس، ونقول قضى بينهم قضية. والقضايا: الأحكام واحدتها قضية[٢].

وجاء في معجم مقاييس اللغة (قضي): القاف والضاد والحرف المعتل أصلٌ صحيح يدلُّ على إحكام أمرٍ وإتقانه وإنفاذه لجهته، والقضاء: الحُكْم، قال الله تعالى: ﴿**فَاقْضِ ما أنتَ قَاضٍ**﴾ (سورة طه: الآية٧٢) أي اصنع واحكُمْ. ولذلك سُمِّي القاضي قاضيًا، لأنه يحكم الأحكام ويُنفِّذُها[٣].

٢- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ص:٣٦٦٥.

٣- ابن فارس، مقاييس اللغة، الجزء الخامس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢، ص٩٩.

والقَضْوَة: الحُكْم أو المُقاضاة، ولا بدَّ من سماع الشكوى من طرفين، لا من طرف واحد كي يكون الحكم صحيحًا[٤].

أما صفات القاضي، فيجب أن تتوفر في القاضي عدة صفات أساسية أهمها: المكانة الاجتماعية المرموقة بين أفراد المجتمع، وأن يكون مدركًا لما يقول وما يسمع وما يرى، وأن يكون زاهدًا في مال الدنيا متعفِّفًا عنها، بعيدًا عن سفاسف الأمور، وقورًا في مجلسه، مهيبًا في حضوره، ذا عقل راجح ولسان صادق، خلوقًا محبًا للناس، بشوشًا في غير ضعف، قاسيًا في غير عنف، يخضع للحق ويسير على هداه، ويجتهد في طلب العلم والمعرفة، ويتمتع بالصدق والأمانة وسداد الرأي، في المجمل يجب أن يكون من المشهود لهم برجاحة العقل ونظافة الكف والنزاهة.

مُسمَّيات القضاة ومهامهم:

من جميل ما لاحظناه في موضوع القضاء العشائري أن القضاة ليسوا على درجة واحدة، واختصاص واحد، وإنما نلحظ تنوعًا في ذلك يوائم تنوع الخلافات في المجتمع وتنوع مهامهم، كما نلحظ تشابه مسميات[٥] القضاة العشائريين في جبل العرب مع أقرانهم في المناطق المجاورة، نذكر من تلك المُسمَّيات والألقاب:

١- المُلمّ أو الوجه: هو القاضي الذي يلتقي عنده طرفا الخصومة لتحديد نوع القضية المعروضة، والاتفاق على تسمية القاضي الذي سينظر فيها، وبعضهم يطلق لقب الوجه على الكفيل.

٢- الكبار: هم القضاة الذين يحقُّ لهم إضافةً إلى مهمة القاضي الوجه، تحديد القاضي المعني بالنظر في القضية المعروضة، ولهم حق البت بحلها مباشرة، إن استطاعوا، وهم أشبه بقضاة التحقيق أو الإحالة في القضاء الرسمي اليوم.

٤- وهب قاسم، المصدر السابق، الجزء الثاني ص ٢٠٢.

٥- الملحم إسماعيل وآخرون، سويداء سورية: موسوعة شاملة عن جبل العرب، الطبعة الأولى، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ١٩٩٥، ص ٣٤١.

٣- أهل الديار: وهم القضاة المختصون بحل الخلافات المتعلقة بالأراضي والعقارات والإرث والديار.

٤- المناشر: ينظرون في قضايا العرض، وانتهاك حرمة المنازل.

٥- الزبود: ينظرون في قضايا المال.

٦- منافع الدموم والقصَّاصون: ينظرون في قضايا القتل والضرب.

ومن الألقاب التي تُطلق أيضًا على هؤلاء القضاة في جبل العرب، لقب العَوارف: أي العارفين بالعادات والتقاليد وأصول التقاضي والمحاكمة.

وكذلك حمل بعضهم لقب العليم، الذي يعني: الشخص الذي له «العلم» بعلاقة سكان الجبل مع العشائر البدوية وعشائر الجوار في حوران، وتحديد أيها العدو، وأيها الصديق؟

طرق التقاضي:

درجت العادة أن يتخذ القاضي من بيته (المضافة تحديدًا) مكانًا للفصل بين المتخاصمين، في مجلس يكون لائقًا للاستماع لشهود الدعوى وإطلاق الحُكم، ويجب أن يحضر في المضافة وجهاء القرية وأعيانها وكبار شيوخها وعقلاؤها من العائلات كافة[٦]، وليس ثمة أصول ثابتة يلتزم القاضي بها ويتبعها للكشف عن الجريمة، أو إحقاق الحق وإعادته إلى أصحابه، أو فض النزاعات، فهو حر في اختيار الطريقة التي يريد من خلالها التأكد من الواقعة معتمدًا على خبرته وبداهته وذكائه وسعة حيلته.

بعد أن يستقبل القاضي طرَفَي الخصومة ويجرِّدهما من السلاح إن كانا يحملانه، يطلب كفلاء من المتخاصمين يتكفلان بالالتزام بتنفيذ الحكم الذي سيصدره، ثم تبدأ المحاكمة بجلوس كل طرف من المتخاصمين في جهة يحدِّدها القاضي في المجلس، وغالبًا ما يقدِّم الأطراف كفلاء قبل التقاضي أو عند تأجيل القاضي إصدار حكمه كي يستمع للبيِّنات والشُّهود. بعد أن يأذن القاضي للفريقين بالكلام، يشرع كل طرف يشرح قضيته ويعرض ويسرد حججه وبيِّناته إلى أن ينتهي، ثم يأتي دور الطرف الآخر الذي يشرح موقفه ويقدِّم بيِّناته ردًا على أقوال خصمه، وبعد أن يسمع القاضي لكلا الطرفين، يطلب الشهود، ولا بد أن تتوفّر في الشاهد صفات الصدق والنزاهة، فلا تُقبل شهادة السارق أو الكاذب مثلًا، ثم يسأل القاضي كل طرف إذا كان هناك اعتراض على الشاهد قبل حلف اليمين، وما اليمين إلا وسيلة من وسائل الإثبات إذا لم يكن ثمة حجة أو دليل للحُكم غيرها، ولليمين أثر كبير في حلّ الكثير من الخلافات، ولها طرق وأشكال عدة، إذ تبدأ باسم الله سبحانه وتعالى، ويكون طلب الحلف بوضع اليد اليمنى على كتاب الله أو الحلفان بالشرف أو برحمة الوالدين، أو تقرن بالابن الوحيد، أو بالجنين في بطن والدته، ثم يختار القاضي نص اليمين، ويردِّدها الحالف من بعده، وأشد أنواع اليمين ما يُعرف بـ «الحَسَابة»، وهي يمين مُغلَّظة تلقي الرهبة في نفس الحالف، وتؤثِّر فيه تأثيرًا نفسيًا شديدًا يجعله يُحجِم عن أدائها حتى لو كانت صحيحة، وتنصُّ الحَسَابة على ما يأتي: «والله العظيم اللي على العرش مقيم، بالله ومحمد (ص) رسول الله، وشعيب (عليه السلام) نبي الله وكل بيت بناه، وسبعة جِمال محمَّلة غلَّة وكل حبة تقول والله، بالولد الفالح والطرش السارح، بالله المُشتَهَرْ، قطّاع الشوف من النظر، والحاصي نفوس البشر تطلع على العرش وتنزل على الفرش. إن أشهرتها تسرك وإن كميتها تضرك ... ما علمك عن قضية فلان المغدور فلان بن فلان من قرية ... بأنك لا شقيت له جلد ولا يتمت له ولد، ولا ضربت ولا غدرت ولا قتلت ولا مكرت

٦- أجريت مقابلة بتاريخ ١٥/٤/٢٠١٤ مع العم أبو رجوان إسماعيل فرج، الذي كان يحضر القَضْوَات التي أُجريت في مضافة قاضي العشائر الشيخ أبو سعيد فارس فرج في بلدة الغارية، وكانت مهمته كتابة تفاصيل القضوة وما يتلوه الشهود من شهادات، والقاضي من أحكام.

ولا ودّرت ولا نقلت لا بيد ولا بحديد ولا بحجر ولا بشجر، بالله العالي والضنى الغالي والقرآن الكريم والحكمة الشريفة وما لي علم عن قريب ولا بعيد، والله على ما أقول شهيد»[٧].

بعد أن يسمع القاضي للمدَّعي والمدَّعى عليه، ولشهادات الشهود تجري مناقشة فيما بين الجمع، ليصدر بعد ذلك القاضي حكمه ويتلو خلاصة الحكم على الطرفين، ويطلب من الكفلاء تنفيذ الحكم، ثم يطلب المصالحة ويلحُّ على ذلك، وأخيرًا يكتب الحكم ويمهره بخاتمه، ويشير إلى من قضى بمثل هذه القضية في الأعراف السابقة.

أجرة القاضي: من الطبيعي أن ينال القاضي أجرة تعبه ومعرفته والجهد الذي يبذله في إحقاق الحق، لذا درج في العُرف أن يتقاضى القاضي عند الفصل في القضايا وفضّ النزاعات ما يُعرف «بالرِّزقة»، التي إما أن تكون عينًا مثل شاة أو بعير أو فرس أو سيف، وإما مبلغًا من مال يُتفق عليه قبل البدء بالتقاضي، وقد يكون حصة مئوية من الحق موضوع الدعوى، وغالبًا ما يدفعها الفريق الخاسر للقضية، وأحيانًا تُؤخذ من الفريقين، وفي حالات خاصة يتفق الفرقاء فيما بينهم عليها، وقد تُودَع الرِّزقة لدى القاضي أو لدى شخص آخر يُسمَّى كفيل الرزقة، وقد يحدِّد الفريقان المتخاصمان كفلاء لدفع الرزقة يقبل بهم القاضي، ويذكر بعض أحفاد هؤلاء القضاة أن الرزقة مسموح بها في العُرف العشائري، لكن نادرًا ما يتقاضاها القضاة من المتخاصمين، زد على ذلك أنه كثيرًا ما كان القاضي يدفع من ماله الخاص حقَّ المُدّعي حين يكون المبلغ بسيطًا والطرف الآخر (المُدَّعى عليه) معسِرًا أو معذورًا[٨].

القضاة العشائريون في الجبل:

في عهد الاحتلال العثماني عَيَّنَ ولاة السلطنة قضاةً، مهمتهم حل القضايا والخلافات بين الناس مقابل أجر مادي، كما جاء في الوثيقة[٩] المحفوظة بين أوراق الشيخ فهد أبو عساف من قرية سليم، المؤرَّخة في شهر ذي الحجة ١٢٩٦هـ/ تشرين الثاني ١٨٧٩م، جاء فيها:

«مختار الأكارم والأماثل محمد أفندي أبو عساف زيدَ قدرُه

بمقتضى النظام قد صار انتخابكم عضوًا في المحكمة البدائية، وبناء على ما اتصفتم به من حسن الدراية [..] فقد عرفتكم الحكومة عضوًا دائمًا بهذه المأمورية بمعاش مئة وخمسين قرش شهري، والمأمول أنتم تقوموا بإيفاء مأموريتكم، وتداوموا الحضور للمحكمة بأوقات الشغل في مركز الحكومة بقرية السويدا، ونسأل الله أن يوفقنا جميعًا.

٢٦ ذي الحجة ١٢٩٦هـ»

من خلال دراسة هذه الوثيقة نلحظ أن ولاة السلطنة العثمانية يعتمدون في تعيين القضاة العشائريين على اختيار شخصيات محدَّدة من أبناء المجتمع المحلي تتوفَّر فيهم سمات مثل رجاحة العقل، وسداد الرأي، ونزاهة الخُلُق، من أجل ضمان حل المشكلات وحسم الخلافات فيما بين الناس.

وفي وثيقة أخرى[١٠] ممهورة بختم قائم مقام جبل حوران، نقرأ تكليف الشيخ محمد أبو عساف بالنظر في الخلاف الحاصل بين آل أبي فخر في قرية ريمة اللحف، والوثيقة مؤرَّخة بتاريخ محرَّم ١٢٩٧هـ / كانون الأول ١٨٧٩م، وقد جاء فيها:

٧- الزاقوت عطا لله، العادات والتقاليد في جبل العرب، دار علاء الدين، الطبعة الأولى دمشق، ٢٠٠٠، ص: ٩٦.

٨- المرجع نفسه، ص٩٢.

٩- أبو فخر فندي، تاريخ لواء حوران الاجتماعي: السويداء- درعا- القنيطرة- عجلون ١٨٤٠-١٩١٨، دمشق ١٩٩٩، ص:٣٣٨.

١٠- أبو فخر فندي، المرجع السابق، ص ٣٣٩.

«مختار الأكارم والأماثل محمد أفندي أبو عساف زِيدَ قدرُه

بتاريخه حضر عندنا حضرة المشايخ الروحيين، وهم الشيخ أبو محمد حسين الهجري والشيخ أبو علي الحناوي والشيخ أبو علي حسن طربيه والشيخ أبو حسن وهبة جربوع وعموم أبناء الطاعة بالسويداء، وقرروا لنا بخصوص المشايخ أبو علي بشير وأبو سلمان شهاب أبو فخر، وما هو حاصل لهم من أقاربهم، والتعدي عليهم بأملاكهم وبيوتهم، ومن كون التعدي، وبالأخص على أشخاص، كمن ذكرت أسماؤهم، لا تسوغه عدالة الدولة العلية، والحكومة تنظر لرفع الغدر [....] وحيث بلغناكم متعاطين صرف هذه المسألة، وأنتم على علم بدقائقها نستنهض بصرفها صرفًا باتًا حتى لا ينتابهم ما يوجب الخلاف، وإذا تعسر عليكم ذلك تفيدوننا بالتفصيل عمن حصل الخلاف منه لأجل نتبع ها المسألة رسميا [...] ودمتم بسلام».

لم يقتصر حل المشكلات والخلافات في منطقة جبل حوران فقط، وإنما تعدَّى ذلك إلى حل بعض النزاعات عند قضاة العشائر في سهل حوران، ففي وثيقة[11] يعود تاريخها إلى شهر شوال ١٣٣٧هـ/ حزيران ١٩١٨ ذُكِر فيها مثول عدد من مشايخ الجبل أمام شيخ مشايخ حوران وقاضي الدم، ومُهِرت بختمهم وتواقيعهم، حيث جاء فيها:

«بتاريخه أدناه قد حضروا لقريتنا شمسكين(١٢) مشايخ الهنيدات (المقصود مشايخ عائلة بيت هنيدي الكريمة): الشيخ أبو علي نايف بيك، والشيخ سليم بيك هنيدي، والشيخ أبو فواز هاني بيك، وبرفقتهم جماعتهم بو حمد شاهين المحيثاوي، وقبلاه بو يوسف حسين عريج، وحسن بو يزبك، لأجل يتقاضوا على الثلاثة زلم، الذين حل عليهم القدر من حضرة المولى وماتوا [...] بوحمد شاهين وجميع الذوات المذكورين مع كافة ربعهم اجتمعوا بمحلنا، وطلبوا الحق والصلح فيما بين الفريقين، حسين عريج وحسن بو يزبك وقبلهم بو حمد شاهين، ونشروا حججهم الفريقين، وبالنظر لعدم [...] لتلك الدعوى فصلنا بينهم بطريق الصلح من حيث عوايد بلادنا أن الثلاثة أشخاص الذي قضوا يلجون الحوراني والدرزي والشامي ابن الحايك أن لكل واحد منهم ماية ريال مجيدي وخمسون مد حنطة عن أرواحهم وحق أتعابهم، وذلك كافة المبلغ ثلاث ماية ريال مجيدي ومية وخمسون مد حنطة يدفعهم بو حمد شاهين المحيثاوي إلى أهل الزلم الذين ماتوا [...] وشهد الفريقان كل واحد منهم على كفيله، والفريق الأول المدعي حسين عريج وحسن بو يزبك صار كفيل عليهم من طرف الفريق الثاني بو حمد شاهين قفطان بيك عزام كفيل وفاء للمحيثاوي عن الغايط والنايط ما دام الدهر دهر والكف ما ينبت عليه شعر، وصار كفلاء [...] على المحيثاوي فضل الله بيك وسلمان بيك هنيدي، ولأجل حسم الدعوة وقطع الحيرة أن لا أحد يتجاسر على الزيادة عن حقه، وعن ما فصلنا برضاء الجميع صار تحت هذه الورقة [...] وتم ختمها من طرفنا مشايخ ووجوه قرية شمسكين، وأعطيت ليدهم إذا دعت الحاجة للعمل على موجبها. ٢٠ شوال ١٣٣٧هـ»

وكانت العشائر البدوية القاطنة في أطراف جبل العرب، أو إلى الشرق منه في البادية السورية تقصد قضاة الجبل للفصل في خلافاتهم، كما كان أبناء الجبل يتقاضون لدى قضاة العشائر الأخرى.

ولدينا مثال آخر عندما حصل خلاف بين أفراد من أهل الجبل مع أفراد من عشائر البدو، إذ ذكر هذا الخلاف الباحث عطا الله الزاقوت في كتابه «العادات والتقاليد في جبل العرب»[13]، إذ قضى القاضي المعروف

١١ نفسه، ص٣٧٠.

١٢ المقصود بها قرية الشيخ مسكين في محافظة درعا.

١٣- ينظر ص: ٩٨-٩٩.

بابـن جنـدل في خـلاف حصـل بـين أهل الجبـل وأهل الشمـال، وقـد ناب عـن أهل الجبـل محمـد الأطرش، وحسين الأطرش بصحبة أحد رجال البدو المدعو فارس ابـن صفيـان، إذ قـدَّم المتخاصمـون حججهـم، وحكم حينئـذٍ ابن جندل لصالـح حسين الأطرش وفارس بن صفيان، وشهد على ذلك الحُكم عدد من الشهود.

أما الآن فلابد أن نُعرِّف بأبرز القضاة العشائريين في جبل العرب، الذين وقع على عاتقهم حل المشكلات والخلافات بين أبناء المجتمع، والذين اتسموا بشمائل وفضائل أهلتهم للشهرة بين الناس من حيث أخلاقهم وفراستهـم وحزمهـم، وليـس ضروريًـا أن يكون ابن القاضـي قاضيًا كأبيـه، فالقضاء ليـس مهنة وراثية، وإنما يعتمـد على أهليـة الشخص لأداء هـذه المهنة، وإن كان الأبناء في حقيقة الأمر قد اكتسبوا الكثير من المعارف من آبائهـم، مما جعلهم يتوراثون هذه المهمة مـن جيـل إلى جيـل في بعض الأحيان. تذكـر إحدى الروايـات أن قاضيًا سـأل ابنه المرشَّـح ليكون قاضيًا بعده، فقال له: «يا بني إن جاءك للتقاضي كريم غانم، وآخر دنيء وفاين، فكيف تقضي؟ قال الولد: آخذ من الكـريم الغـانم، وأعطي الفايـن ليرضى. قـال الأب: حسنًا فعلت. وإن جاءك اثنان فانيان؟ قال الولد: آخذ مـن مالي وأعطيهما ليرضيا. قـال الأب حسنًا فعلت، ثم قال: وإن جاءك اثنان كريمان غانمان؟ قال الولد: اثنان كريمان لا يصلان إلى القاضي».

هـذه الروايـة تعكس ما يحتـاج إليـه القاضي من سرعـة البديهة وقـوة البصـيرة والفراسـة والحنكة في معالجـة الأمور، إضافـةً إلى الخـبرة الموروثة عن القضاة السابقين، والتحلي بالأخلاق الكريمة.

ممـا تجـدر الإشـارة إليـه أن القضـاة عـادة ما ينتسبـون إلى عائلات معروفة بسعـة المعرفة والقدرة على حل المشـكلات المستعصية، لدينا مثال على ذلك قضاة آل الأطرش الذين اشتُهِرَ منهم القاضي سلامي النجم الأطرش من قرية العانات، وقضاة الدم من آل «أبـو راس» من قريـة الرَّحَا، وقضاة الخيـل والأرسن مـن آل «أبو عساف» من قرية سليـم، وقضاة الحقوق العينيـة والأمـوال من آل فـرج من قريـة الغارية[١٤]، ومـن القضاة العـوارف أيضًا: حسن جـاد الله سلَّام مـن قرية طَرْبَـا، والقاضي هايل كنـج عامر من قرية مـردوك، وشاهـين المحيثاوي من قريـة لِبِّيْن، ومحمد نصـار من قريـة سَالَة، وخليل كيوان مـن قرية سهوة الخضر، وقاسم عز الديـن من قرية الرِّضيمَة، وعبد الله العبـد الله من قرية حوط، وهزَّاع الجرمقاني من بلـدة عُرْمَـان[١٥]، وآخـرون. وسوف نتحـدث في هذا المقـام الضيق عـن قضاء الـدم، والأمـوال والحقوق العينية، والخيل والأرسن، وفقًا للوثائق المتوفرة لدينا.

١ - قضـاء الدم: يختص هذا النوع من القضاء بالنظـر في جرائـم القتـل العمـد أو الخطـأ، وبـتر الأعضـاء، وفقدان الجـوارح مثل العـين والأذن واليد والرجـل، كمـا يختص بشـؤون العرض، مثـل انتهاك حرمـة البيت، والاغتصـاب أو الاعتداء على القاصر، وغير ذلك من قضايا الشرف.

من المعـروف أن فعل القتل وسفـك الدماء محرَّم دينيًـا واجتماعيًا، لكنه قـد يحدث في حالات محددة، ويكـون مسوَّغًا، كما في حالة الثـأر أو الاقتصاص من الجـاني، إذ يُعدُّ ذلـك من باب الشجاعـة والفروسية والقـوة، وغالبًـا ما يكـون ردًا على عمـل دنيء ارتكبه الجـاني بحـق الضحيـة، مثـل الاغتصـاب أو القتـل العمـد أو الاعتداء على العرض والإخلال بالشرف أو الاستهتار بعطـوة[١٦] إثر حادث دم، حين يكون القاتل قد أخـلَّ بالعطوة، ودخل مكانًا محظـورًا عليه دخوله من قبيل الاستهتار.

١٤- الزاقوت عطا الله، المرجع السابق، ص٩٠.

١٥- إسماعيل الملحم وآخرون، المصدر السابق، ص٣٤٢.

١٦- العطـوة: هدنـة تعطى للجـاني وذويه مـن ذوي المجنيّ عليه، ليعـدُّوا أنفسهم للرحيل بعيدًا عن مـكان وقوع الجريمة، ريثما تتم المصالحـة. ينظر: وهب قاسـم، المصدر السابـق، الجزء الثاني، ص٧٠.

نسوق مثالًا على قضاء الدم ما يتناقله آل «أبو راس» من أن القاضي محمد عثمان أبو راس قد قام بحلِّ خلاف بين أبناء العشائر البدوية، حين جاء محمد بن دوخى بن سمير شيخ قبيلة الولد علي مع مجموعة رجال من عشيرته، ليتقاضوا مع مجموعة أخرى من قبيلة الرولا على دم فيصل بن نايف الشعلان زعيم قبيلة الرولة، الذي اشتُهِرَ بشجاعته وقُتِل في معركة ضد قوة من الجيش العثماني، ثم وُجِّهَت التهمة لابن سمير بأنه استغل فرصة القتال بين القوة العثمانية والرولة، واشترك مع طرف غير معروف، وقتل فيصل الشعلان، وبعد تقديم الحجج من قبل الطرفين، أمر القاضي ابن سمير أن يحلف اليمين، بعد أن خط له دائرة في ساحة منزله وأنزله فيها، فما كان من ابن سمير إلا أن قال: «لو كان على بطني مئة محزم، فسيسقط فيصل الشعلان عند حل كل محزم، أنا قوَّست والله قتل»[١٧].

وقد قبلت عشيرة ابن الشعلان عقد راية لابن سمير إكرامًا لاعترافه بالحق، وعدم حلفه اليمين الكاذبة.

محمد بن الدوخى المُلقَّب بابن سمير.

١٧- الزاقوت عطا الله، المرجع السابق، ص ٩٦.

٢- قضاء الخيول والمواشي:

اشتهرَ سكان جبل العرب بحياتهم القروية التي تعتمد الاعتماد الأكبر على الزراعة وتربية الماشية، إضافةً إلى اقتناء الخيول العربية الأصيلة والبغال والكدش والحمير، وتربية الحيوانات الرعوية كالجمال والأبقار والأغنام والماعز، من هنا كان لا بد أن يكون هناك قاضٍ عشائري للطروش يقضي في قضايا متعلقة ببيعها وشرائها وسرقتها، أو ما يُعرف بالنطل[١٨]، وكذلك قضايا الوسقة[١٩] والضرب والتكسير والتعقير[٢٠].

تُحدَّد بداية تاريخ القضاء العشائري الموثَّق للخيول والمواشي في جبل العرب بعام ١٨٨٣م، حين عُيِّنَ الشيخ محمد أبو عساف المُلقَّب بالقميزي من قرية سليم قاضيًا عشائريًا مختصًا بشؤون الخيل والمواشي.

أ- تربية الخيول الأصيلة: للخيول العربية الأصيلة نصيب مهم وكبير في حياة سكان جبل العرب، فهي رمز القوة والفروسية والزعامة، وقد احتفى العرب بخيولهم الأصيلة أيما احتفاء، ونجد صدى ذلك الاحتفاء والاهتمام جليًا في تراثنا الغني بالكثير من الحكايات والأشعار التي تخلِّد اسم الخيل مقترنًا باسم فارسها، لأنها العنصر الرئيس في حروب العرب وغزواتهم ورد الاعتداء الواقع عليهم، نذكر منها قول أحد الشعراء:

بضمّرٍ ما ربطناها مشومةٌ
إلا لنغزو بها من بات يغزونا[٢١]

١٨- النطل: السرقة، نطل الشيء: سرقه، والمصدر نطل. نَطْلَة: المرَّة من نطل، والسرقة، ينظر وهب قاسم، المصدر السابق، الجزء الثاني، ٣٧٤.

١٩- المقصود بالوسق هنا احتجاز المواشي لتحصيل حق أو دين، وبذلك تكون موسوقة، ينظر وهب قاسم، المرجع السابق، الجزء الثاني، ٤٩٩.

٢٠- المقصود بالتعقير هنا الجرح، والعقر أثر كالحزّ في قوائم الدابة. ينظر وهب قاسم، المرجع السابق، الجزء الثاني، ٧٣.

٢١- ينظر الزاقوت عطا الله، المرجع السابق، ص٨٠.

وقد بلغ حب الناس لها في الجبل أن كانوا يشتركون في اقتناء فرس أصيل عندما يعجز الواحد منهم عن دفع ثمنها وحده، فكان مالكوها يشتركون في اقتنائها بأسهم معينة، إذ تبلغ أربعة وعشرين قيراطًا[٢٢]، وما زالت عائلة «أبو عساف» في قرية سليم تحتفظ بعدد من حجج بيع الخيول وشرائها والشراكة فيها[٢٣]، فأحيانًا يباع قيراط واحد أو أكثر من حصة الفرس، وكان ربع الفرس ستة قراريط، والثلث ثمانية، والنصف اثني عشر قيراطًا، وعلى أحد الشركاء أن يشرف على إطعامها والاعتناء بها مقابل ركوبه لها، وتبقى هي وما تلده ملكًا مقتسمًا بين الشركاء، لكل منهم حسب أسهمه، فإن ولدت مهرًا أو مهرة تترك لتتم رضاعتها، ثم يخيَّر من يربطها إذا ما شاء أن يتخلى عن الفرس أو مولودها، فإن اختارها أخذ الآخر المهر، وبقي محلًا للشركة مثل أمه، وإذا ما ماتت الفرس ولم تورث شيئًا يموت حق الجميع بالأسهم، وهنا يرد التساؤل الآتي على أذهاننا، ما هو السبب الذي دفع الناس للتشارك في ملكية الخيول الأصيلة، أهو ارتفاع سعرها وغلاء ثمنها، أم الرغبة بعدم استئثار أسرة واحدة دون أخرى بملكيتها، أم محاولة تقريب الناس بعضهم من بعض، أم كل ذلك كان سببًا وراء انتشار ظاهرة شراكة الخيول. وهنا نورد مضمون حجة بيع وشراكة لإحدى الخيول المعروفة بالسوداء الكحيلة، إذ جاء في الوثيقة:

«بتاريخ أدناه قد اشتريت ثلث المهرة السودة الكحيلة من الشيخ سلمان فندي أبو عساف في مبلغ قدره خمسة آلاف وأربع ماية قرش، وإذا المولا (المولى) أطعم منها تكون ثلث لأحمد المذكور وأربع قراريط إلى الشيخ أبو فندي سلمان أبو عساف والنص إلى جناب أبو الخير تللو، وقد وصلني ثمنها من الشيخ المذكور، عدًا ونقدًا وفضة، وجرى البيع والشراء دون إكراه على يد شهود الحال، والله خير الشاهدين.

شهد بذلك فارس الحلبي، شهد بذلك نجم عز الدين الحلبي، شهد بذلك إبراهيم الياسين الحلبي، شهد بذلك حامد الإبراهيم.

حُرِّر في تاريخ ٩ رجب ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م.»[٢٤]

وقد مُنِع في أعراف الجبل تشغيل الفرس الأصيلة أو أبنائها بالفلاحة والدراس والجر وغيرها من الأعمال الأخرى التي تقوم بها البغال والحمير، نظرًا لأصالتها، لذا اقتصر استخدامها على منافسات السباق، وفي الغزوات والحروب، والسفر التنقلات. بناء على ما سبق ذكره كان لابد من وجود قضاة عشائريين مختصين بقضاء الخيل لفضّ النزاعات بين أصحابها المشتركين في ملكيتها.

ب- حيوانات النقل والعمل غير الأصيلة: تشمل خيول الكدش والبغال والحمير، وهي حيوانات لأعمال الجر والنقل، وكذلك الجمال والبغال، ليست ثمة شراكة في ملكية هذه الحيوانات، بل يقتني المزارع

٢٢- القيراط: معايير في الوزن والقياس، اختلفت معاييره باختلاف الأزمنة.

٢٣- أبو عساف علي، من أوراق الشيخين فهد حمد وسلمان داود أبو عساف في تاريخ آل أبو عساف، دار جبران للنشر والطباعة والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص٣٠٥، ٣٠٦.

٢٤- أبو عساف علي، المرجع السابق، الوثيقة رقم ٧٦ ص ٣٠٦.

منهـا حسـب حاجتـه، وتخضـع لقاضـي الطروش العشائـري من خلال البيع والشـراء والسرقة والنطل والوسقة والضرب والتكسير والتعقير وغير ذلك.

ج- **الحَـلَال**: المقصود بها الأنعام من غنم وماعز وإبـل، وليست ثمة شراكـة بالأمهات منها، إنما هناك شراكة على ربع مواليـد الأغنام والماعز الأحياء أبناء السنـة نفسهـا، إذ يأخذ ربعها الراعـي المسؤول عنها مقابل عملـه من أصحاب هذه المواشـي، وتُعرَف هذه العمليـة بالفلاج، وتعنـي، كما ذكرنا أعـلاه، اقتسام المواشي من صغار الأغنام والماعز بين أصحابها الذين يأخذون ثلاثة أرباع، والراعي الذي يأخذ الربع، وغالبًا مـا يتم الفلاج في نهاية شهر نيسان وبداية شهر أيار، ويصـادف في هذا الوقت من السنة موعد قص صوف الغنم، بعد حصول كل من الطرفين على حقهما يجوز نقل المواشي من راعٍ إلى آخر في هذا الوقت من السنة. هنـاك حصتان مـن المؤونـة يحصل عليهـا الراعي، أولهمـا مؤونة الصيف، وثانيهما مؤونـة الربيع مقابل عمله في الرعي والسراحة، وتبلغ كمية المؤونة مُدًّا (ما يقـارب عشرين كيلو غرام) عـن كل أربعة رؤوس من المواشي لمدة ستة أشهر، وكذلك جرت العادة أن يأخذ الراعـي الحليـب طيلة مـدة الحليب مقابـل أن يدفع عـن كل رأس رطـل سمن[٢٥]، ونصـف رطل من اللبن المجفَّـف، أو ما يُعرف بالكِثَا، وهو لبن يُصفَّى من الماء ويُملَّح، ويُكوَّر على شكل كرات صغيرة، ثم يُجفَّف تحت أشعة الشمس، ويصبح جاهزًا للاحتفاظ به طيلة أيام السنة، وعند الحاجـة إليه يُمرَس بالماء الساخن حتى يذوب، ثم يُطبَخ به اللحم، وهو ما يُعرَف بالمَلَحِيَّة أهم مكونات المَنْسَف[٢٦].

من هنا كان لا بد أن تخضع هذه المواشي أيضًا إلى القضاء العشائري من أجل تنظيم العلاقة بين الرعاة وأصحاب المواشـي، وتنظيم عمليـة استيفاء الأجرة، وحصـة الراعـي من المواليـد، وكذلك عمليـات البيع والشراء والسرقة والنطل والوسقة والضرب والتكسير والتعقير وغيرها.

د- **الطيـور الداجنة والبرية**: مثل الدجاج والبط والإوز والحبشـ، وليسـت ثمـة شراكـة فيهـا، لكنهـا تخضـع للقضاء العشائري عند حـدوث عطل وضرر، ومثال ذلـك تعرض إحدى الطيـور الداجنة للأطفال مثـلًا، كقلع العين، أو إلحـاق أي أذى بهم، عندها يقع الحق على صاحبها، أو سرقة الطيور.

أما الطيـور البرية كالجـوارح (النسر- الصقر- العقاب) فلا سلطان عليها.

يمكننـا أن نُـورِد مثالًا على إحـدى قضوات الخيل والمواشـي، التـي يتناقلهـا أفـراد عائلة «أبـو عساف» الكريمة، والتي جرت في مقعد العائلة في قرية سليم، إذ يذكر الدكتور علي أبو عساف في كتابه[٢٧] أن شخصين معهما فرسان ومهرة قصدا الشيخ شاهين أبو عساف طالبـين القضوة، فطلب من كل واحـد منهما أن يُبرِز حجتـه، فقـال الأول: «كانـت فرسي تربِّـع (أي ترعى في فصـل الربيع) في ظهر الجبـل، طليت (تفقدتها) عليهـا، وإذ بها تُرضِع هذه المهـرة، ولما أردت أن أعيد فرسي والمهـرة إلى بيتي قابلني هذا الرجل، وقال لي: إن هذه المهرة لي وكانت فرسي تُرضعها، وقال الثاني: إنـه عندما طـلَّ على فرسـه كانت تُرضع هـذه المهرة وتحـوم دومًا حولها، ثم عـاد الأول وقال: كانت فرسي أيضًا تُرضِع المهرة التي تحوم أيضًا حولها».

فكـر القاضـي أبو عسـاف وسـأل كلًا منهما: كم مرة قصـدت المكان؟ وهـل كانت المهـرة تتبع فرسك علـى الـدوام؟ فاستنتج مـن الأجوبـة أن المهرة كانت على الأكثر ملازمة لفرس أحدهم، بعد ذلك طلب أبو عسـاف من أحد أولاده أن يذهب إلى بركة (بحاحة)، وهـي بركة تقع إلى الجنوب من قرية سليم، وأن يبقى هنـاك إلى أن ترد (تشرب) الفرسان والمهرة ويراقب

٢٥- يبلغ مقدار الرطل ٢,٥ كيلو غرام.

٢٦- وهب قاسم، المصدر السابق، الجزء الثاني، ٢٣٥.

٢٧- أبو عساف علي، المرجع السابق،، ص٢٠١.

الحادثة، وطلب من شخص آخر أن يقود الخيول إلى بركة بحاحة، وعندما تغب (تبدأ بالشرب) الماء يدفع المهرة إلى البركة، وهنا لا بد للشخص الذي يراقب الحادثة أن يعرف الفرس التي تصهل، بعد أن نُفذت الخطة عاد الشخصان إلى المقعد، فسأل أبو عساف ولده عن الفرس التي صهلت عندما دفُع بالمهرة إلى البركة، فدل الابن والده عليها، عند ذلك قال القاضي أبو عساف مخاطبًا المتخاصمَين: «إن الفرس التي صهلت هي أم المهرة، والثانية ربما عطفت عليها لتتخلص من الحليب».

لقد أصبحت هذه القضوة مضربًا للمثل يتداوله الناس، ودلت على طريقة حل مشكلات الخيول والبت فيها.

٣- قضاء الحقوق العينية:

يختص هذا القضاء بأمور الديون، والاختلاف على حدود الأراضي وملكيتها وقضايا البيع والشراء، والعلاقات الزراعية بين مُلّاك الأراضي ومستأجريها وغير ذلك من القضايا. نسوق مثالًا على هذا النوع من القضاء ما جاء في الوثيقة المحفوظة بين أوراق القاضي الشيخ أبي سعيد فارس فرج، التي حصلت عليها من أحد أحفاده، وحقّقتُها ودرستُها، إذ تتضمن هذه الوثيقة قضوة كان قد فصل فيها القاضي فرج بين آل مقلد من أهالي قرية رامي، وآل غانم من أهالي قرية المُشَنَّف في الريف الشمالي الشرقي من جبل العرب، حول عقار أرض وعين ماء يقعان على الحدود الواقعة بين القريتين، ونستطيع التعرف إلى تفاصيل هذه القضوة من خلال وثيقة أرسلها القاضي فرج إلى الشيخ سليمان بيك نصار في قرية سالي مؤرَّخة بتاريخ ١٣/٥/١٩٥١م، يُخبره فيها بقدوم وفد من أهالي قريتي المشنف ورامي يطلبون حل خلاف وقع بينهم على رسم الحدود ومياه العين الواقعة بين القريتين، ويطلب منه الاستماع لشهادة عدد من الشهود تجنبًا لإحضارهم إلى قرية الغارية بسبب بعد المسافة والتخفيف عنهم عناء السفر، ومن ثم إرسال شهادة الشهود ممهورة بختمه وتواقيعهم، وبيان رأيه حتى يستطيع البت بالقضية، وقد ورد فيها:

«لجناب سنيّ الهمم كريم الشيم ابن عمنا سليمان بيك نصار المحترم:

بعد السلام عليكم والسؤال عن صحة سلامتكم والدعاء بطول بقاكم على الدوام، ثم أبتدي أولًا سؤال خاطركم، والثاني إذا تكرمتم في سؤالكم عنا لله الحمد من نعمه تعالى في كل خير، ثم وبعده، نفيد جنابكم أنه شرفوا لعندنا كلًا من أبناء عمنا أهالي المشنف وأهالي رامي بداعي الخلاف الواقع بينهم على وضعية الحد ومياه العين الواقعة بين البلدين، وعند استماع دعوى الفريقين، الكل منهم استحج في بيان حده، فأهل رامي ادعوا أن حدهم الفاصل ما بين رامي والمشنف اتصلوا عن إثر أسلافهم، هم اتصلوا من أباتهم وأباتهم من جدودهم، وهذا الحد لا غيره الزمان ولا نقضته الأيام من عمار رامي لحد الآن، وهو من قبلي (الجنوب) قبر دبلان يمد شمال على دوّارة[٢٨] المطحنة على مسيل المضبعة، هذا حد رامي ما بينهم وبين المشنف. أما دعوة أهالي المشنف الحد الذي انوضع من يوم طلعوا أهالي رامي من المشنف، ونزلوا في رامي وهو من شمال طريق العجيلات، ويحترف إلى الغرب شي بسيط، ويدور قبلي، ويلايم رصيف مجوز ليتصل في حبلة كرم علي مقلد الشرقية، هذا الحد الذي نحن نثبته من يوم قدموا بيت مقلد إلى رامي لا غيره الزمان ولا نقضته الأيام، وبعدنا واقفين عنده ونقدر نثبته بولاد الحلال، فأنا العاجز الآن لسبب بعد المشقة لأوراد الشهود، من حيث العوايد الشاهد الذي يثبت بورد على كنف القاضي، فالآن حولت استوراد الشهود إلى جنابكم، وأقمت هذا المشكل من حظي

٢٨ أرض صغيرة محاطة بالحجارة أو الصخور، الجمع: دواوير، ينظر وهب قاسم، المصدر السابق، الجزء الأول، ص٢٢٧.

ودخلتوا في حظكم اليوم ويوم الله، والشهود الحضور الذي يخلصوا المشكل مثل هذا أو على شوف العين أو على آثار سلفو لا يكون ناطور ولا مرابع، فإن أثبتت الشهود على بيت غانم أن يثبتوا الحد المنوه عنه، والذي وضعوه أسلافهم من عمار رامي لحد الآن، وإذا ما وجدوا شهود وإلا أهالي المشنف لهم على أهالي رامي دين اللوية قطاع العصبي القوية على مزار أو على مجلس خمسي يحلفوا وخمسي يزكوا.

حرَّره فارس حسين فرج في ١٣/٥/١٩٥١»

قدَّم أهالي قرية المشنف عددًا من الشهود للإدلاء بشهاداتهم أمام الشيخ سليمان بيك نصار، وهم أربعة من أهالي قرية العجيلات: عبد الحميد أبو زيدان، وسعيد أبو زيدان، ورشراش أبو زيدان، وحمد أبو زيدان، وسليمان زهر الدين من شقا، الذي سكن في المشنف، وهاني نعيم من السويداء، الذي كان يسكن أيضًا في قرية المشنف، ويملك فيها دكانًا على حد قوله، ثم انتقل إلى قرية رامي وسكن فيها سنتين، وأدلوا جميعهم بشهاداتهم حول الموضوع، وبعد السماع لشهاداتهم أرسلها الشيخ سليمان بيك نصار إلى القاضي فرج مرفَقة بالكتاب الآتي:

«حضرة أخونا الفاضل الشيخ أبو سعيد فارس فرج المحترم

بعد التحية والأشواق نُبدي أننا قد استوردنا شهود أهالي المشنف، وهم عبد الحميد أبو زيدان، وسعيد أبو زيدان، ورشراش أبو زيدان، وحمد أبو زيدان من العْجيْلَات، وسليمان زهر الدين من شقَّا، وهاني نعيم من السويداء، وذلك بناء على كتابكم المؤرَّخ في ١٣/٥/١٩٥١، وقد سجلنا شهاداتهم بورق تحت تواقيعهم بعد أن ثبتت عليهم، واعترفوا بها أمام الجمهور، وهي مرسَلة لحضرتكم ضمن هذا الكتاب لتطلعوا عليها، وتعطوا الحكم النهائي إذا كانت الشهادة مخلصة، وإذا ما خلصت هذه الشهادة بموجب عرفكم، وإلا كما جاء بكتابكم يكون الدين (حلفان اليمين) على أهل رامي، وسلموا لنا على عموم أهل بلدكم، كما من عندنا عموم العائلة يهدوكم السلام.

ابن عمكم في ٢٩ أيار ١٩٥١»

بعد الاطلاع على شهادة الشهود بتَّ القاضي في القضية بعد أن اكتملت أركانها بين يديه، وقد تضمَّنت الوثيقة حكمه، حيث جاء في مقدمتها:

«بناء على حضور الفئتين المتخاصمتين فيما بينهما، أعني أهالي المشنف آل غانم وأهالي رامي آل مقلد، بالاتفاق معًا على حل ما اختلفا عليه من الملك المحتوي على عقار على الحدود الواقعة بين البلدين للاستفتاء في القضاء منا حسب السوادي (أي العادة السائدة) والحقوق المعتادة»

القاضي أبو سعيد فارس حسين فرج

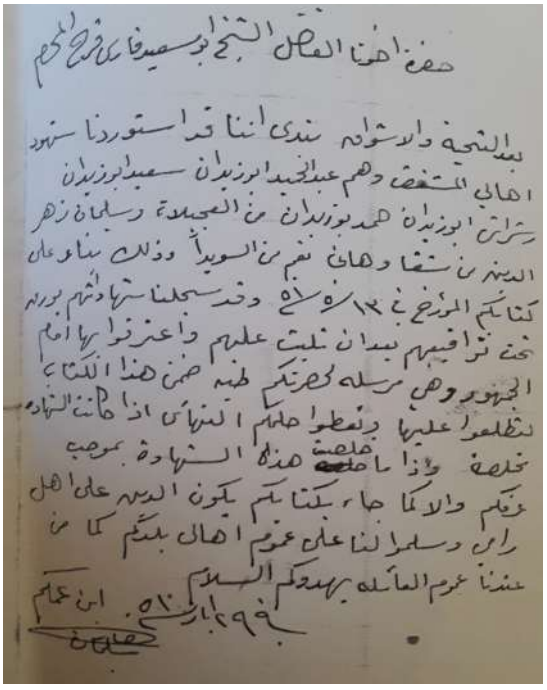

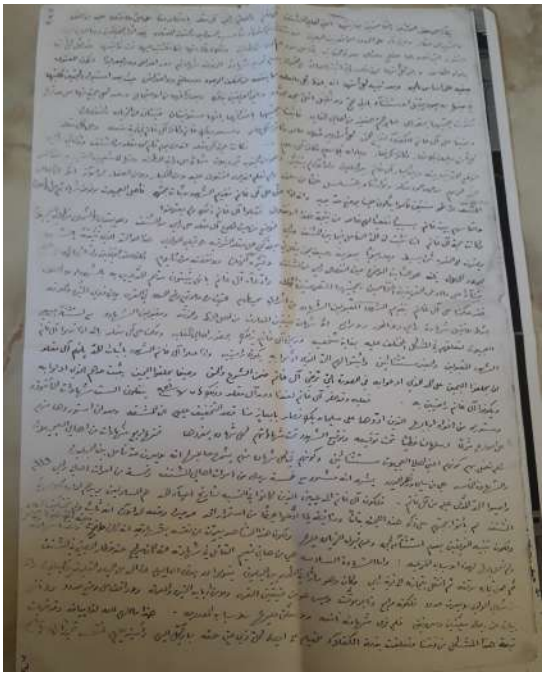

ثم ذكر بعد ذلك موافقة الطرفين وقبولهم الحكمَ الصادر عنه، وإقرارهم به، بمستند خطي موقَّع عليه من قبلهم، والتعهد بعدم الاعتراض عليه، كما يأتي:

«بعد إقرار الفريقين ورضاهما في قبول الفتوى التي نصدرها لإحداهما بصورة حقانية بناء على ضوء الدعوى من الطرفين، وذلك القرار منهما بخط مكتتب عليه عليهما تحت تواقيعهما، وقد ادعى كل منهما بدعواه الكاملة، ورضي كل منهما بحجة خصمه التي أثبتناها له مع القبول بعدم توريد المرفوضة شهادتهم دون اعتراض ولا مراجعة أبدًا، لتكون الفتوى مبنية على أساس الحجة، وبعد تبنيه كل منهما أنه يلفظ بكل ما يعلمه مما ينفعه من مختلف الوجوه دون مانع ولا اعتراض، حيث بعد استيراد الحجتين كلتيهما في حينها لا يعود يُقبل الاستثناء بأي محج، ولا تُقبل أقل حجة مجددة، ورضي الفريقين بذلك، وبعد فراغهما من الاحتجاج ورصد كل حجة منهما، ننشر حجتهما بحضورهما أمام الجم الغفير من أهالي الغارية».

وقد تضمَّنت هذه القضوة أيضًا تعيين كفلاء من الطرفين المتخاصمين ليضمنوا قبولهما بالحكم، وكانوا من وجهاء العائلات المعروفة في الجبل وشيوخها، فكفلاء آل غانم في قرية المشنف طلال عامر وآل عامر كافة، ومسعود بك غانم وآل غانم من قرية مفعلة كافة، وكفلاء آل مقلد سليمان بيك نصار وآل نصار كافة من قرية سالة، وجاد الله بيك سلام وآل سلام كافة من قرية طربا، وفي الختام على القاضي أن يسرد تفاصيل القضية على الحاضرين، وحجة الطرفين المتخاصمين، ويستعرض شهادة الشهود، ليُدلي بحكمه، إذ جاء في وثيقة هذه القضوة:

«بناء على ما ادعى الفريقين المتخاصمَين، وبحجتهما المعروضتَين أعلاه، وادعاء آل غانم بأنهم يثبتون حدَّهم المدعين به بالشهود وأولاد الحلال، فقد حكمنا على آل غانم بتقديم الشهود المقبولين للشهادة من أشراف محيطهم، الذين من عاداتهم وضع الحدود بالقرى ومن ذوي الخبرة والمعرفة، بشرط لا تقبل شهادة راعي ولا

ناطور ولا مرابع إلا شهادة أصحاب المعارف من أهل الحظ والذمة ومقبولين الشهادة، مع استثناء أهالي العجيلات لصلتهم بالمشكل المختلف عليه بغاية شخصية، ورضي آل غانم بذلك بحضور أهالي الغارية.

وحكمنا على آل مقلد إذا قدموا آل غانم الشهود المقبولين، وأثبتوا لهم الحد الذي ادعوا به يكونوا راضين، وإذا عدموا آل غانم الشهود بإثبات الحد، يلزم آل مقلد أن يحلفوا اليمين على الحد الذي ادعوا فيه بالصورة التي ترضي آل غانم ضمن الشرع والحق، وحينما يحلفوا اليمين يثبت حدهم الذي أدلوا به ويكونوا آل غانم راضين به».

ثم تابع القاضي فرج تفاصيل القضية، وأنه في السابع من شهر حزيران عام ١٩٥١م قد حضر آل غانم وآل مقلد حاملين ست الشهادات التي شهدوا بها أمام الشيخ سليمان بيك نصار بعد أن استوردها منهم على أصولها شرعًا، وأرسلها إليه مكتوبة خطيًا ممهورة بتواقيعهم، كل شهادة على حدة.

وقد جاء في وثيقة الحكم: «**فمنها أربع شهادات من أهالي العجيلات، فلم نعمل بها كونهم، أعني أهالي العجيلات مستثنائين وكونهم في كل شهادة منهم يشرح صاحبها أنه لا يعرف الحد الفاصل بين البلدين، والشهادة الخامسة هي من سليمان زهر الدين يشهد أنه مشى مع خمسة رجال من أموات أهالي المشنف، وخمسة رجال من أموات أهالي رامي عام ١٩١٩م، ووضعوا الحد المدعى عليه من قبل آل غانم، فلكون آل غانم المدعين، وبيدهم إدارة كل عمل في المشنف لم يأتوا بحجتهم على ذكر هذه اللجنة بتاتًا، ومناقضة لما ادعوا أيضًا من استمرار الحد من حيث وضعه لحد الآن أنه ثابت ولم يختلف عليه، ولكون تنبيه الفريقين بعدم استثناء الحجة وعدم قبول الزيادة عليها، ولكون هذا الشاهد يعرف عن نفسه بشهادته أنه كان حاضر مع اللجنة ذلك مناقضًا لحجة المدعين، رفضنا شهادته ولم نعمل بها لهذه الأسباب المرعية، أما الشهادة السادسة هي من هاني نعيم القائل في شهادته إنه كان مرابع في المشنف، ثم عمل في التجارة المؤقتة وانتقل بتجارته إلى قرية رامي، وكان وهو مارًا بين البلدين يقولوا له بعض أهاليهم أن الحد على الحبلة الغليظة بين البلدين، وأنه من شمالي الوادي لا يعرف حدود، ولكونه مرابع وتاجر مؤقت وليس من أرباب الخير والمعرفة، ولا واقف على وضع حدود، فلم نرَ شهادته نافعة ولا معلَّق عليها للأسباب المدرجة».**

ثم ختم القاضي القضية بالحكم الآتي:

«**هذا ما ألهم الله لنا بيانه، وقد خرجت تبعة هذا المشكل من ذمتنا وتعلقت بذمة الكفلاء للقيام على إيصال كل ذي حق حقه بما وُكِّل إليهم وأُسند إليهم.**

انتهى تحريرًا ٦/٩/ ١٩٥١م»

من الجدير بالذكر أن تاريخ هذه القضوة يعود إلى ٣/٥/ ١٩٥١م، مما يدل على أن القضاء العشائري قد استمر بعد الاستقلال، وظل معتمدًا في ظل الحكومات الوطنية التي حكمت سورية بعد الاستقلال، كما نستنتج من هذه القضوة أن البت في القضايا وحل النزاعات والخلافات أكثر ما يحتاج إلى سداد الرأي، وحكمة القاضي في دراسة الدعاوى وفهم تفاصيلها، ورجاحة عقله في إصدار الحكم المناسب بما يحقق العدالة بين الأطراف المتنازعة.

٤- القضاء المذهبي: وهو من اختصاص رجال الدين الروحيين، على رأسهم مشايخ العقل الثلاثة الذين يتوارثون هذه المناصب الدينية، ويختص القضاء المذهبي بتنظيم العلاقات الزوجية، وقضايا الإرث والوصية وإثبات النسب، وتنظيم عقود الزواج والفصل فيها.

إلى هنا نكون قد عرَّفنا القارئ قدر المستطاع بجانب مهم من جوانب تنظيم المجتمع في جبل العرب، من خلال تسليط الضوء على موضوع القضاء العشائري بأنواعه المختلفة، التي تفصل في مختلف المشكلات والنزاعات والجرائم التي يتعرض لها المجتمع، وتحدث بين الأفراد، لما لهذا الجانب من أهمية في حفظ الأمن وتحقيق العدالة والمساواة بين الناس، وترسيخ لمبدأ التضامن الاجتماعي، والشورى، والاحتكام لمن هم خيرة الناس خُلُقًا وعقلًا وحكمة ومكانة، أي القضاة الذين كان ومازال ذكرهم إلى يومنا هذا حاضرًا في الأذهان، وشاهدًا على دورهم في حلِّ مختلف النزاعات، والتخفيف من حدوث الجريمة والاعتداء على حق الغير وغير ذلك من التجاوزات اللا أخلاقية، التي تنال من أمن المجتمع وتماسكه وتآخي أفراده، وقد ظلَّ القضاء العشائري دارجًا في زمن الاحتلال العثماني، والاستعمار الفرنسي، وبعد الاستقلال قبل قيام الدولة، لكنه تراجع وانتهى بعد ذلك، بعد أن تأسست المؤسسة القضائية الرسمية، وأصبح القضاء العشائري مجرد تقليد تراثي نفتخر به في يومنا هذا، وإن كانت بعض الحوادث مثل حوادث القضاء والقدر، والقتل غير العمد، ما زالت تُحلّ اجتماعيًا عن طريق وساطة بعض الوجهاء، ووفق عادات اجتماعية معينة.

المصادر والمراجع:

- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة.
- ابن فارس، مقايس اللغة، الجزء الخامس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢.
- أبو عساف علي، من أوراق الشيخين فهد حمد وسلمان داود أبو عساف في تاريخ آل أبو عساف، دار جبران للنشر والطباعة والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٢.
- أبو فخر فندي، تاريخ لواء حوران الاجتماعي: السويداء-درعا-القنيطرة- عجلون ١٨٤٠-١٩١٨، دمشق ١٩٩٩.
- الزاقوت عطا الله، العادات والتقاليد في جبل العرب، دار علاء الدين، الطبعة الأولى دمشق، ٢٠٠٠.
- الملحم إسماعيل وآخرون، سويداء سورية: موسوعة شاملة عن جبل العرب، الطبعة الأولى، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ١٩٩٥.
- وهب قاسم، معجم الألفاظ والتعابير المحكية في محافظة السويداء: معجم لهجي فلكلوري مقارن، الجزء الأول، منشورات وزارة الثقافة- مديرية التراث الشعبي، دمشق، ٢٠٠٩.

العِمَارَة وفنُّ البناءِ القديمِ في السويداء

د. ليال سعيد أبو العز

تتراءى منطقة جبل العرب لقاطنيها وزُوَّارها وعابري سبيلها طبيعة صلبة التكوين، متماوجة التضاريس، خلَّابة المنظَر، تُوقعنا في شِبَاك الحيرة والاندهاش، إذ تُؤنِسنا بمعابدها ومسارحها وآثارها العمرانية البديعة، وتُخيفنا في الآن نفسه بهيبة أبراجها ومتانة قلاعها وحصونها واسوداد حجارتها الصمَّاء المترامية هنا وهناك.

لا يقف الأمر عند هذا الحدِّ، وإنما تزداد الحيرة إزاء ذلك التناقض بين طبيعة هذه المنطقة الجبلية بما فيها من صلابة الصخور، وقساوة المناخ، وصمودها العنيد في وجه السنين، ووعورة المسالك والدروب، وعتوِّ القمم والمرتفعات، وبين طبيعة سكانها ودماثة طباعهم، وكرم ضيافتهم، وسعة صدورهم في تحمّل مشقّات الحياة والعمل في مثل هذه البيئة الوعرة.

وكم تفوح تلك العمارات البازلتية العريقة بعبق الأجداد، وتخمر التراث، وتعتق السنين، وأنفاس السكَّان الذين استوطنوها أجسادًا وأرواحًا وتجارب حياتية مختلفة، كل ذلك استثار حفيظتنا كي نبحث في تفاصيل هذه العمارة، ونستكشف خصوصيتها، فارتأينا في هذا الحيز أن نفتح نافذة جديدة نُطلُّ من خلالها على منطقة جبل العرب، لنتعرَّف إلى جانب مهمٍّ يتعلَّق بأسلوب العمران فيها، وخصوصية مساكنها، وأهم آثارها البديعة التي لا تزال شاهدة على قدم الحضارات التي سكنت هذه المنطقة، وخلَّفت وراءها آثارًا في غاية الروعة والتفنُّن والإبداع على اختلاف تلك الحضارات والإسهامات، وإن كان ثمة جامع واحد بينها فهو حجر البازلت.

بداية لا بد من التعريف بأن منطقة جبل العرب أو مدينة السويداء هي منطقة عريقة وقديمة قدم التاريخ، فقد استقرَّ الإنسان فيها منذ ما قبل العصر الحجري الحديث، ثم استقرَّ فيها العرب الكنعانيون منذ الألفية الثانية ق. م، وبعدهم الآراميون، إلى أن توطَّنت فيها القبائل العربية من أنباط وصفويين وغساسنة وغيرهم، كما تعرَّضت هذه المنطقة للحكم اليوناني السلوقي، ثم الحكم الروماني، ثم البيزنطي[1].

إن تنوع تلك الشعوب التي توافدت إلى جبل العرب، واختلاف حضاراتها قد أغنى هذه المنطقة بإسهامات فنية وعمرانية وحضارية أبرزت جمال هذه المنطقة، واستثمرت حجارتها، وأضفت عليها بصمة خاصة بكلِّ حضارة.

إن الخوض في موضوع العمارة البازلتية في جبل العرب يُفسح لنا المجال كي نتحدَّث عن الآثار والأوابد العمرانية القديمة جدًا، التي تشهد على الحضارات العريقة المختلفة التي استوطنت هذه المنطقة من ناحية، وأن نتحدَّث أيضًا عن العمارات الأحدث، التي بناها أجدادنا خلال القرنين الماضيين تقريبًا، ولا سيما أن كل قرية وكل بلدة تجمع بين الاثنين، أي بين بقايا العمارة القديمة وبين المباني الخاصة بآبائنا وأجدادنا، إلى جانب العمارة الأحدث التي تُواكب العصر الراهن من حيث مواد البناء والمخطَّطات الهندسية المدروسة والتصاميم الجديدة، مما يجعل قرى الجبل ومدنه وكل بقعة فيه مثالًا لفسيفساء عمرانية جميلة وبديعة تجمع بين مختلف العصور ومختلف الحضارات. من هنا حرصنا أن نُلقي الضوء على تلك النماذج العمرانية المتنوِّعة على نحو مُبتسَر وموجَز بعض الشيء.

لقد اختار السُّكَّان منذ القديم السُّكنى في جبل العرب، هذا المكان المرتفع الذي استعرت فيه البراكين وثارت حتى غطَّت الحِمم البركانية أرضه عامة، فغدت صخرية صلبة، وكوَّنت فوهات البراكين مرتفعات استقطبت السكَّان لبناء مساكنهم فيها، لعدة أسباب، منها أن المكان المرتفع يُشعر الإنسان بالأمان والقدرة على مراقبة ما حوله، والدفاع عن النفس في حال التعرض لهجوم ما، ومنها رغبة السكَّان في الحفاظ على الأراضي الصالحة للزراعة، واستغلالها لتأمين متطلبات العيش. من هنا تمركزت معظم قرى الجبل في المناطق المرتفعة، واستثمرت حجر البازلت مادة خامًا لبناء مساكنهم ومعابدهم وأبراجهم وقلاعهم[2].

بداية يمكن أن نعرِّج سريعًا على أهم بقايا الآثار العمرانية التي ما زالت تزدان بها قرى الجبل إلى يومنا هذا، والتي تشهد على الحضارات القديمة التي خلَّفت لنا أبهى الآثار وأعتى الأوابد، وأول ما نبدأ بالأنباط العرب الذين اتخذوا من بصرى عاصمة ثانية لهم بعد البتراء في الأردن، فأثمرت إقامتهم

١- ينظر: سويداء سورية- موسوعة شاملة عن جبل العرب، تحرير: إسماعيل الملحم، هايل القنطار، وهيب سراي الدين، رياض نعيم، دمشق، منشورات دار علاء الدين، ط١، ١٩٩٥، ص: ١٨٩.

٢- يُنظر: المصدر السابق نفسه، ص: ٣٦.

في هذه المنطقة الكثير من الأبنية المطبوعة بطابعهم العمراني الخاصّ المتأثّر بفن جنوب الجزيرة العربية وبلاد الرافدين، وبالطابع الهيلينستي، وأكثر ما تجلّى الفن النبطي في عمارة المدافن، والمعابد، ولا سيما المعبد الخاصّ بالرَّبّ النبطي ذي الشرى، إضافة إلى بعض المواقع الشهيرة في السويداء وشهبا وقنوات وصلخد[٣]، مثل: آثار سيع شرقي قنوات، وقلعة صلخد التي بُنيت في عهدهم، ثم رُمِّمت أكثر من مرة في عهود لاحقة.

أما الصفويون العرب فقد تركوا آثارًا فنية ورسومات وكتابات مترامية هنا وهناك، وكذلك اليونانيون السلوقيون الذين تركوا رسومات منحوتة، ونصوصًا منقوشة على كثير من الأبواب والجدران والمباني الحجرية في معظم القرى[٤]، ونذكر مثالًا على نص يوناني قديم منقوش على معبد في قرية «سليم» الحالية جاء فيه: «إنياس النيابونيتانق قد شيَّد هذا المعبد». إن إنياس هو أحد السكان، وإن الاسم اليوناني القديم للمدينة كان نيابوليس[٥].

أما الجزء الأكبر وربما الأوسع انتشارًا، الذي ما زال محتفظًا بخصوصيته وطريقة تصميمه، فهو تلك الآثار العمرانية التي تعود إلى العصر الروماني والبيزنطي لاحقًا، أشهرها المعابد الدينية في قرى مثل حُبْرَان، ومَيَامَاس، والكَفر، وبُوسَان، وقَنَوَات، وعَتيل، وسَليم، وبُريكة، والمُشَنَّف، وشَهْبا، وأم الزيتون، والهيَّات، وشَقَّا.

٣- ينظر: دليل متحف السويداء، عدد من المؤلفين، دمشق، المديرية العامة للآثار والمتاحف، ١٩٩٠، ص: ٤٠- ٤١- ٤٢.

٤- ينظر: التعريف بمحافظة جبل العرب، شبلي العيسمي، داوود نمر، حمود الشويخ، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مديرية التأليف والترجمة، سلسلة بلادنا- (٢)، ١٩٦٢، ص: ١٤٥- ١٤٦.

٥- رحلة في جبل حوران- «مقتطفات»، القس بورتر، ترجمة: سلامة عبيد، ص: ٧٢.

وكذلك نلحظ المسارح في قنوات وشهبا والسويداء، والبازيليك في قنوات وشقّا، والحمّامات العامة في شهبا وقنوات، والخانات «النُّزُل»، والقصور التي تتوزّع في معظم القرى، والمقابر في شهبا، وريمة اللُّحَف، وقنوات، وذِيبين.

إضافـةً إلى أقنية المياه التي تجرُّ الماء من الينابيع والـبِرَك إلى المنـازل والبيـوت، وكذلك مـدُّوا الطرق التـي تسهِّـل السفـر والتجـارة، إضافـةً إلى بنائهـم التحصينات والأبراج التي توفِّر الحماية وتساعد على الدفـاع والتصـدي لأي هجوم، كمـا في شهبا وقنوات ومَلَح وعُرْمَان، وأخيرًا نلحظ كثرة الكنائس التي تعود إلى العصـر البيزنطـي كمـا في السويـداء، وقنوات، وعَمْرة، وشقَّا، وكذلك الأديرة في شقَّا ومَلَح[٦].

٦- ينظر: سويداء سورية- موسوعة شاملة عن جبل العرب، ص: ٢٠١ – ٢١٢.
وينظر أيضاً: التعريف بمحافظة جبل العرب، ص: ١٤٦- ١٤٧.

إن هـذه الآثـار التـي ذكرناهـا بعجالة مـا زالت حاضـرة وصامدة على الرغـم من مرور آلاف السنين عليهـا، وما زالت إلى يومنا هذا تأسر الساكن والزائر بجمـال بنيانهـا، وصلابـة حجارتها، وتسحـر العين بدقـة عمرانهـا، وازدادت أهميتهـا حـين أوحـت إلى سكان الجبـل حديثي العهد بترميمهـا والسكن فيها، أو بتصميم منازل جديدة وبنائها على منوالها، فنجد البيـوت التي بُنيت خلال القرنين الماضيين تشترك مع تلـك الآثـار العريقـة باعتمادها على حجـر البازلت، والتشبـه بها من حيث طريقة صقلـه وبنائه وتصميم البيت كله.

-خصوصـية تصميم البيت وبنائه في جبل العرب:

جـاء تصميـم البيـت في منطقة جبـل العرب بما يتناسـب وحاجـات السـكان لغـرفٍ معيشـةٍ خاصـةٍ بأصحاب البيت، وغرفةٍ لاستقبال الضيوف والغرباء، وغرفٍ لحيواناتهم التي يعتاشون على حليبها ولحمها وصوفها ويتدفؤون على بعرها. نلحظ أن عمارة البيت في ظل هذه الطبيعة الجبلية الموسومة بقساوة مناخها وبـرودة شتائهـا، قد اعتمـدت على الحجـر البازلتي نظرًا لأنه مـادة متوفرة بكل سهولة مـن ناحية، ولأنه يؤمِّن الحماية والتدفئة من ناحية أخرى.

تَمْثُل البيوت القديمة أمـام الناظر غرفًا متراصة جنبًـا إلى جنب، مستقلة بعضها عن بعضٍ، ولكلٍّ منها

باب خارجي، وعدد الغرف لا يتجاوز في البيت الواحد غرفتين أو ثلاثًا فقط، بما فيها المَضَافَة، وتطلُّ هذه الغرف جميعها على فناء واسع ليس له سقف، مما يوحي أن سكان هذه المنطقة لا يميلون إلى البيوت المغلقة المتقوقعة.

ولا بد أن تُخصَّص غرفة للنساء وأهل البيت، يأكلون وينامون ويقضون معظم أوقاتهم فيها، وغرفة للضيوف تُعرف باسم المَضَافَة، وغرفة للحيوانات من أغنام وماعز وأبقار، وقنٌّ صغير للدجاج.

أما طريقة بناء البيت، فيمكن تفصيل الحديث حول الجدران والسطح والأبواب والنوافذ والمضافة؛ إذ نلحظ أن الجدران في هذه البيوت سميكة جدًا، تتراوح بين ٨٠ و١٠٠ سم، فهي طبقتان الخارجية منها من حجر مقصوب «أي مصقول بعناية»، والداخلية منها تُوضع كيفما اتفق، أي من دون صقل ونحت، فلا حاجة لذلك لأنه سيُطلى بالطين الترابي «المصنوع من التراب والتبن مجبولين بالماء» الذي يحمي من برودة الحجر في الشتاء، ويصقل الجدار كي يسهل طلاؤه بطلاء الكلس الأبيض أو الأخضر أو الأزرق[٧].

٧- ينظر: سويداء سورية، موسوعة شاملة عن جبل العرب، ص: ٣٦.

كما نلحظ أن جدران البيوت في جبل العرب تحتوي على ما يُعرَف باسم الكوايز، والكوارة تجويف مستطيل الشكل مبني من الطين الترابي، تُخزَّن فيه المؤونة من قمح وشعير وبرغل وعدس وملح وحمص وغير ذلك، إضافةً إلى علف الحيوانات الذي تُخصَّص له إحدى الكوايز، ولا بد أن يحتوي البيت على أكثر من كوارة قد تصل إلى ست كوايز متقابلة في كل جدار ثلاث كوايز.

أما السطح أو السقف فلا بد أن يُرفع على أقواس نصف دائرية، أو ما يُعرف باسم قناطر حجرية، بفاصل مترين بين كل صفين من القناطر التي يرتكز عليها الرَّبد، والرَّبَد بلاطات حجرية يبلغ طولها قرابة مترين، وعرضها يتراوح بين ٣٠ و٤٠ سم، وسماكتها لا تزيد على ربع متر. ثم يُوضع فوق الرَّبَد طبقة من التراب سماكتها ٣٠ سم، ويُشترط فيها ألا تكون مستوية، وإنما مائلة كي تسيل عنها مياه الشتاء.

وأخيرًا لا بد من رصّ طبقة التراب هذه بالمَدْحَلَة، والمَدْحَلَة قطعة من الحجر البازلتي أسطوانية الشكل، قطرها ٤٠ سم، وطولها ٨٠ سم، وفيها فراغ دائري من كل طرف كي يُثبَّت فيهما قضيب حديد تُمسك المَدْحَلَة بوساطته وتُجَرّ منه، يُسمَّى الماعوص في اللهجة المحلية[٨].

٨- يُنظر: المصدر نفسه، ٣٧.

أمـا الجـزء الأهم من البيـت فهو المضافـة، التي تستحوذ على اهتمام البنَّاء وصاحب البيت، من حيث طريقـة التشييد، والأثـاث، والتزيـين، والترتيب، لذا سنستعرض تفاصيلها الدقيقة كالآتي:

المضـافة: هي أهم ركن في البيت في منطقة جبل العـرب، فهي واجهة الـدار ومقدِّمته وعنوانه، وملتقى الأقـارب والأهل، وحصَّة الضيف وعابـر السبيل، لذا كانـت تُبنى بعناية فائقة، ويحرص صاحبها أن تكون بالشـكل اللائق بناء وأثاثًا، ويجـب أن تتميز بمزايا لا تتوفـر في غرف البيت الأخـرى، مثل أن يكون مدخلها مستقلًا كي يدخـل إليها الضيوف والزوَّار من دون أن يُسبِّبوا إحراجًا لأهـل البيت ونسائه، وأن تكون واسعة فسيحة تتسع لأكبر عدد ممكن من الضيوف، ولاسيما أن الضيوف قديمًا كانوا يضطرون للنوم عند المُضيف أو المُعَزِّب كـي يحظوا بالتكريم والضيافة المناسبة من جهـة، وكـي يستريحوا مـن أعباء السفـر الطويل من ناحية أخرى.

مـن هنا كان يستحسـن أن يكون طولها ضعف عرضهـا، وأن تتخلَّل جدرانها نوافذ عدة متقابلة، وأن يعلـو سقفهـا، إضافـةً إلى ذلـك لا بـد أن تتوسَّطها نُقَـرة «أي حفرة» مستطيلة الشكل بعمق ٢٠ سم، وعرض ٧٥ سم ، وطول متر واحد أو أكثر بقليـل، وفيها مغـلاة القهوة المرة وعلـى جانبيها بقيـة معاميل القهوة من مهبـاج وجرن ومحماسة وفناجين[٩].

ويـلازم جـدران المضافة من الداخـل مصطبة حجرية يتراوح عرضها بين ٦٠- ٨٠ سم، وارتفاعها بين ٤٠- و٤٥ سم، تصطـف على ثلاثة جدران من المضافـة، من اليسـار واليمين والوسـط أي الجهة المقابلـة للبـاب، وتُسمَّـى في اللهجة المحليـة باسم «التواطي»، وتُفرش تلك التواطـي بفُرُش مصنوعة من الصوف، وتُوضَع على الفُرُش وسائد؛ إذ يُوضع بـين كل فراشـين وسادتـان محشوّتـان بالصـوف أيضًا[١٠].

٩- ينظـر: العادات والتقاليد في جبل العرب، عطا الله الزاقوت، دمشق، منشورات علاء الدين، ط١، ٢٠٠٠، ص: ٩- ١٠.

١٠- ينظر: العادات والتقاليد في جبل العرب، ص: ١٠.

أما الجـدران فيجب أن تُزيَّن بـأدوات عريقة من وحـي هذه البيئة وعاداتها وتاريخها، مثل الربابة التي تعلَّـق من أجـل استخدامهـا في السهـرات واللقاءات العائلية، إضافةً إلى السيف والبارودة، وحديثًا أصبح الجـدار الأوسط الذي يقـع في صدر المضافـة خاصًا بصور الأجداد والآباء والشيوخ الأفاضل.

أمـا السقف فيجـب أن يكـون عاليًـا، وتتدلَّى من وسطـه سلسلة يُعلَّق فيها مصبـاح الإنارة أو ما يُعرف في اللهجة المحلية بـ «اللُّوكس»، وأخيرًا يجوز أن تكون أرض المضافة مبنيـة ببلاطات حجرية، أو طينية «أي الطين المصنوع من التراب والتبن والماء» فقط[١١].

لقد حظيت المضافة في بيـوت جبل العرب بأهمية كـبرى، تـكاد تضاهي أهميـة البيت كلـه، لذلك عمد الشيـوخ ووجهـاء القـرى وزعماء العائـلات إلى جعل البيـت في طابق أرضي، والمضافة في طابق ثانٍ وحدها وأمامها فسحـة حجرية، تعبيرًا عـن استقلالها وعلو مكانتهـا ومكانـة صاحبهـا، وحريـة الدخـول إليهـا والخروج منها في أي وقـت ولأي إنسان، ولا بد عندئذ من درج حجري يصل بين الطابقين.

١١- ينظر: المرجع السابق نفسه: ص: ١٠- ١١.

كما تجدر الإشـارة إلى أن هناك بعض المضافات التـي مـا زالـت إلى يومنا هـذا مفتوحة باسـم عائلة بأكملها، مثل مضافة آل الأطرش في السويداء، ومقعد آل أبي عساف في قرية سليم، ومضافة آل العبد الله في قريـة حوط، ومضافة آل أبي الفضل في السويداء[١٢]، مـن قبيـل ترسيـخ عـادات أجدادنـا والاحتـذاء بهم في الحفـاظ علـى أواصـر القرابة والمحبة بـين أفراد العائلـة الواحدة، وضمان استمـرار اللقاءات العائلية والتشارك في الأفراح والأتراح.

١٢- ينظر المرجع السابق نفسه، ص: ١٧.

أمـا في ساحة البيت الخارجية فإننا نلحظ أجران المـاء الحجرية، التـي تختلف في أحجامهـا، فالكبيرة منها للحيوانـات، والصغيرة للدجاج، أما ماء الشرب الخاص بأهل البيت فيُفرَغ في خوابٍ من الفخار تُوضَع بجانـب الباب مـن الخارج لحفظ الماء بـاردًا وصحيًا وقريبًا من متناول أصحاب البيت والضيوف.

- طريقـة بنـاء البيت الحجـري في جبل العرب:

لم تكن مهمة بناء بيت جديد في القرية أمرًا سهلًا أو بسيطًـا أو بمستطاع فرد واحـد أن يقوم بها، وإنما تتطلَّب مجهـودًا كبيرًا من البنَّاء وأهـل القرية الذين يهبُّـون لمساعدتـه، إذ لا بد بداية مـن تأمين الأحجار الصلبـة اللازمة مـن الأرض المحيطـة بالقرية، ثم تُجلب إلى مكان بنـاء البيت، وتبدأ مرحلة التقصيب، أي صقل الحجر وتهذيبه وتسويته حتى تغدو الحجارة متساوية تصلح للتشييد بعضها فوق بعض.

هنـاك عدة طرق لبنـاء الحجـارة، فمنها طريقة الكَلِـيّ، أي أن تُوضَـع طبقتان من الحجـارة الكبيرة والعريضـة «الرَّبَد» على نحو متـوازٍ، ويُملأ الفراغ بين الطبقتين بحجارة صغيرة تسدُّه.

ومنهـا طريقة صـفّ الحجارة، التـي يعتمد فيها البنَّـاء على صقل الحجارة «قَصْبها» بأحجام متقاربة تسهِّـل صفَّها جنبًا إلى جنـب، وتجعل منظرها جميلًا ومتناسقًـا، وهـذه الطريقـة يعمـد البنَّـاء فيهـا إلى استخدام الطين للربط بين الحجارة من أجل الحفاظ عليها متماسكة على مر السنين.

من أهم ما يميِّز بيت الحجر في جبل العرب أيضًا القناطر التي يستند إليها السقف والجدران، إذ يُوضع علـى ارتفاع مترين حجارة مصفوفـة على شكل قوس يمتد مـن الجـدار الأول باتجاه السقـف وينحدر نحو الجـدار المقابل، ثم يُربط بـين القنطرتين المتوازيتين برَبَـدٍ يحتاج لرفعه إلى اجتمـاع مجموعة رجال تؤدي هـذه المهمة، وبين كل قنطرتـين تُبنى كوارة من الطين الترابي لأجل المؤونة كما ذكرنا أعلاه.

أمـا السقـف فلابـد أن تُوضع فوق حجـارة الرَّبَد طبقـة سميكـة من الـتراب تتجـاوز نصف مـتر، ثم يُرَشُّ التبن في فصل الشتاء على تلك الطبقة، ويُدحل بالمَدحلة الحجرية حتـى يصبح متماسكًا يمنع تسرب المياه إلى الداخل، ويغدو صُلْبًا يقاوم الأمطار والثلوج.

أمـا الآن فيمكننا أن ننتقـل إلى الدائرة الأوسع

التي تصطفُّ فيها البيوت، ألا وهي القرية التي تُدهش الناظر ببعض الآثار العمرانية التي تُميِّز قرى جبل العرب، إذ نلحظ في بعض القرى أبوابًا حجرية تُحيط بها مزدانة برسومات نباتية أو حيوانية أو كتابات تعود إلى الحضارات القديمة اليونانية والنبطية والرومانية، مثلما هي الحال في قرية الكَفر التي تُسوِّرها أربعة أبواب من أربع جهات: من جهة الغرب: باب الحَلَس، ومن جهة الجنوب: باب الغنم، تخرج الأغنام منه للرعي، ومن جهة الشرق: باب الماء، إذ تتجمَّع بالقرب منه ينابيع الماء، ومن جهة الشمال: باب الموت لوجود مقبرة القرية في هذه الجهة[١٣].

كما نلحظ انتشار المعابد أو ما يُعرَف باسم المُزُر في معظم القرى، وهذه المُزُر هي بيوت أو مقابر للأولياء والشيوخ الصالحين، جدرانها وساحاتها وأعمدتها مبنية من الحجر البازلتي، وما زالت إلى يومنا هذا تحظى بعناية أهل القرية بها، وبأثاثها وبنظافتها من أجل استقطاب الزُّوَّار إليها.

إضافةً إلى ما سبق ذكره، نلحظ وجود بِرَك الماء في وسط كل قرية من قرى الجبل، من أجل حفظ مياه المطر فيها، وتأمين الماء اللازم للسكان بيسر وسهولة، إذ كانت تُبنى أرض هذه البِرَك بالبلاطات الحجرية، وحولها سور حجري قصير تصطف إلى جانبه الأشجار الحراجية.

في الختام لا يسعنا إلا أن نعترف بجمال جبل العرب، هذه البقعة المزدانة بحجارة البازلت الأسود، الذي شُيِّدت به أبهى الآثار والعمارات والمباني، فكانت وما زالت شاهدة على الحضارات القديمة التي عكست ذوقًا فنيًا عاليًا في صقل الحجر واستثماره والنقش عليه، كما كانت شاهدة على حضارة أجدادنا الذين وجدوا في البازلت ملاذًا آمنًا وعتيدًا لهم في وجه غضب الطبيعة، وممحاة السنين، فاستقروا في هذه البقعة، وبنوا بيوتهم وبيوت حيواناتهم، وتفننوا في عمارتها، وانتهى إلينا عنهم هذا الإرث البديع.

أقدِّمُ جزيلَ الشُّكرِ للأستاذ كمال الشُّوفاني الذي زوَّدنا بجلِّ الصُّورِ المُرْفَقة في هذا المقال.

١٣- يُنظر: مذكرات غيرترود بل في جبل الدروز، ترجمة وتعليق: كمال الشوفاني، دمشق، مكتبة الرائد للتوزيع والنشر، ط٢، ٢٠١٦، ص: ٥٢- ٥٣.

الطرق التقليدية للزراعة في منطقة السَّلَمْيَة

د. علي حسن موسى

اعتمدت حياة أبناء منطقة السَّلَمْيَة بريفها على الزراعة منذ القديم، وما زالت الزراعة تشكّل ركنًا أساسيًا في حياة كثير من أبنائها، ولا سيَّما في النصف الغربي من المنطقة ذات المعدل السنوي للأمطار أكثر من (٢٥٠مم). كما في الشكل الآتي:

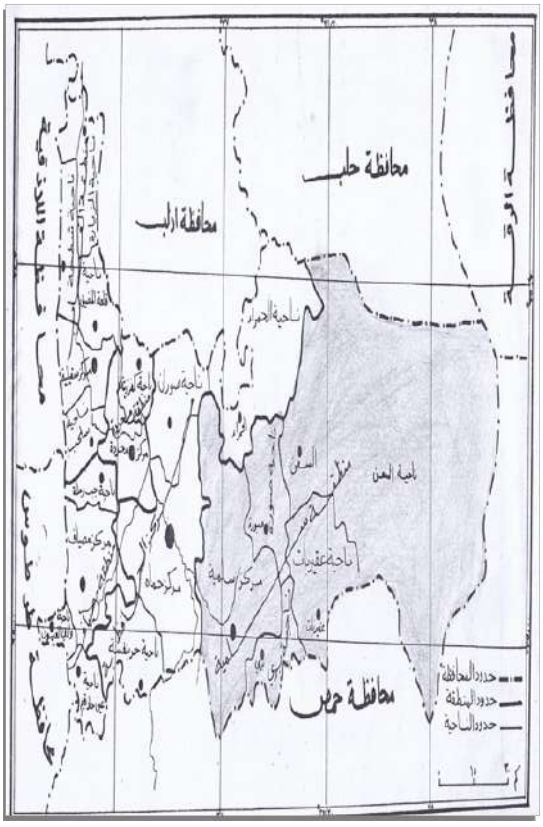

منطقة سلمية

وهذا ما كان منذ مئات السنين، يشهد على ذلك كثرة ما يدعى بالأقنية المائية الرومانية القديمة، والآبار المحفورة في أطراف البادية، وما يزال هناك بقايا من تلك الآبار في غربي جبل البلعاس، كما بقيت بعض الأقنية المائية القديمة حتى خمسينيات القرن العشرين. وما تزال هناك شواهد على أقنية مائية حتى الآن.

عرفت منطقة سَلَمْيَة منذ القديم نمطين من الزراعة، هما: **الزراعة البعلية** التي كانت وما زالت تعتمد على الأمطار، والمقرون نجاحها أو فشلها بكمية الأمطار وتوزعها الفصلي، و**الزراعة المروية** التي كانت تعتمد على المياه المستجرة طبيعيًا عبر أقنية مائية قديمة - عرفت بالأقنية الرومانية - التي تذكر بعض المصادر أن عددها نحو (٣٦٠) قناة، والتي بقي منها كثيرٌ حتى النصف الأول من القرن العشرين.

وسنتوقف في بحثنا هذا عند **الزراعة البعلية**:

والزراعة البعلية هي ما تدعى أيضًا بالزراعة المطرية، كونها تعتمد اعتمادًا كليًا على مياه الأمطار الهاطلة، والممثلة بمحاصيل محددة، قوامها: القمح «الحنطة» والشعير، والعدس، والجلبان.

بجانب زراعة بعض المحاصيل الأخرى في المنطقة ذات الأمطار السنوية أكثر من (٣٠٠مم) وذات التربة الجيدة، كما في البطيخ بنوعيه الأحمر والأصفر، والباميا، والذرة.

وتمر **عمليات الزراعة** من بدايتها حتى نهايتها «جني المحصول» بعدة مراحل، متسلسلة، حسب الآتي:

١ - الحراثة:

تمثل حراثة الأرض قبل زراعتها المرحلة الأولى، إذ من خلالها تُعد الأرض للزراعة. وتدعى الأرض غير المحروثة ولم تزرع في سنتها «**الأرض البور**»، وذلك

من خلال اعتماد دورة زراعية قوامها ثلاث سنوات «دورة ثلاثية»، وذلك كالآتي:

زراعة الأرض المحروثة، التي كانت بورًا، تُحرث ثلاث مرات:

أ - الحراثة الرئيسية «**الصمد الحديد**» في الربيع «شهر نيسان»، وبعمق نحو (٣٠سم)، وتدعى **حراثة شقاق**. وحراثتها مرة ثانية في شهر آب **بالصمد الخشب**، وتدعى **حراثة العيار** «عيار الأرض»، يلي ذلك حراثتها للمرة الثالثة **التنابة** «**التتنابة**». يلي ذلك زراعتها بالقمح في شهر تشرين الثاني حتى أوائل شهر كانون الأول.

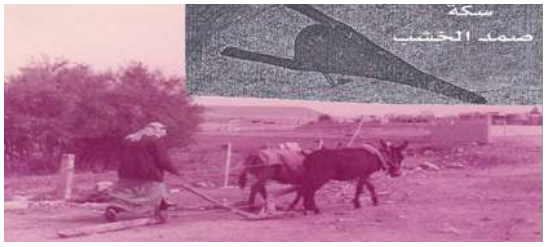

الحراثة قديمًا بالصمد الحديد والخشب

ب - **السنة الثانية**: بعد جني محصول القمح، وفي موسم الزراعة «البذار» تُزرع الأرض التي كانت مزروعة قمحًا، إما شعيرًا - وهو الغالب - وإما شعيرًا في جزء منها وجلبانًا وعدسًا في جزء آخر، دون حراثة أولية، وإنما فقط حراثة البذار والغاية منها طمر البذار تحت التربة.

ج - تترك الأرض بعد جني محصول السنة الثانية، لمدة سنة دون زراعة - للراحة - لتُهَيَّأ في هذه السنة للزراعة بدورة جديدة، بحراثتها ثلاث مرات كما ذكرنا سابقًا.

وإذا ما كانت التربة خصبة كما في التربة الحمراء - في أرض الحمرة وجورة حاج حسان وجورة الذهب في أراضي قرية الكافات -، وكذلك في بعض الأراضي الصفراء مقابل القربة وشمالها الشرقي، فيتم عندها حراثتها ربيعًا «أواخر آذار وأوائل نيسان» بالصمد الحديد، ومن ثم زراعتها بعد الحراثة في «شهر نيسان»، بالمقاتي، والبطيخ الأحمر المعروف بالجبس، والبطيخ الأصفر، ومحاصيل أخرى «الباميا، الذرة البيضاء... »، وأمطار نيسان ونصف أيار هي الأمل في نجاح هذه الزراعة الصيفية بعلًا.

وعلى مستوى أراضي قرية الكافات - كمثال - الواقعة غربي مدينة سلمية بنحو (١٧كم). كانت الأراضي الزراعية تقسم إلى ثلاثة أجزاء «نيارة» يدعى الجزء الواحد «**النير**»، حسب موقعها:

١ - **نير الحمرة**: أو نير القبلي: الممتد إلى الجنوب من طريق تلدرة الكافات، وجنوبي واديها في قطاعه الأدنى في أراضي القرية.

٢ - **النير الوسطاني**: الممتد بين وادي الكافات وطريق سلمية - حماة.

٣ - **النير الشمالي**: الممتد من طريق سلمية - حماة، حتى أراضي شحلة وصماخ من الشمال.

وتتبع في زراعة كل نير من النيارة الدورة الزراعية الثلاثية سابقة الذكر، كما في الشكل الآتي:

النير القبلي	(١) قمح	(٢) ← شعير.... وعدس وجلبان	(٣) ← بور
النير الوسطاني	(٢) شعير....	(٣) ← بور	(١) ← قمح
النير الشمالي	(٣) بور	(١) ← قمح	(٢) ← شعير....

نيارات الأرض، ودوراتها الزراعية

بحيث يبقى هناك جزءان «نيران» من الأرض مزروعان كل سنة بالمحاصيل المعروفة.

٢ - **البذار**:

كانت عملية البذار تتم يدويًا، وذلك بأن يضع الفلاح كمية من البِذار «قمح، شعير، عدس... » في **البذارة**؛ وهي عبارة عن كيس صغير مصنوع محليًا من القنب وبسعة نحو (٢٠كغ)، مفتوح من أعلاه، ومربوط من جانبيه بحبل يضعه البذار حول رقبته،

متدليًا كيس البِذار نحو بطنه، ويقوم البذار بالبِذَار مشيًا على قدميه في طول الأرض، بأخذ البِذار من الكيس بيده اليمنى ونثره أمامه وعلى جانبيه، متحركًا في الأرض بخطوات ثابتة مستمرًا في ذلك حتى الانتهاء من بذار الأرض كاملة.

وبعد الانتهاء من عملية البذار تُحرث الأرض بالصمد الخشب بغية طمر البِذار في التربة بعمق لا يتجاوز (١٠سم) ليتاح للبِذار الإنبات بعد هطل المطر.

٣ - التعشيب:

تنمو أعشاب وحشائش ضارة في بعض الأراضي المزروعة، نتيجة عدم حراثتها جيدًا وبالوقت المناسب، ومن تلك الأعشاب حشائش **الصفيرة** ذات الأزهار الصفراء التي تنمو بطول يقارب من طول الزرع، والقيلوح، والدردار، والقندريس، مما يستدعي من صاحب الأرض القيام بعملية اجتثاث الحشائش من الأرض حتى ينمو القمح والشعير وسواهما بشكل جيد؛ وهذا ما يتم عادة في شهر آذار.

ويتم الاستعانة عادة في عملية التعشيب بعاملات من النساء يدعون العشابات إذا كانت مساحة الأرض كبيرة تستدعي ذلك.

٤ - الحصاد:

يقوم بالحصاد مجموعة من العمال المتمرسين بذلك يُسمّون «الحواصيد». والحاصود؛ هو الرجل الذي يقوم بحصد المحصول الزراعي «قمح، شعير»، وذلك باقتطاع عيدانه الحاملة رؤوسها لسنابل القمح والشعير، من سافلتها «فوق سطح الأرض ببضعة سنتمترات». ويقوم بالحصاد الرجال عمومًا، غير أنَّ النساء تشارك في عملية نقل المحصول من وراء الحاصود وجمعه في أكوام يدعى الواحد باسم: **الغمر** بالنسبة للقمح، و**الحابون** للشعير، و**الكدس** «جلبان وعدس»، إذ ترافق مجموعة من الحواصيد (٦ – ١٢ حاصودًا)، فتاة أو اثنتان تدعى **الغمارة**. ويطلق على (١٢) حاصودًا اسم «**الشدة**» «شدة الحواصيد»، إضافةً إلى **غمارتين** مع الشدة، **ونصف الشدة** «**٦ حواصيد وغمارة**».

وعمومًا كان الحواصيد يأتون من الجبال الساحلية في النصف الثاني من شهر أيار، ويتجمعون في إحدى ساحات حي الحاضر بمدينة حماه – وبعضهم يتجمعون في ساحة سلمية –. ليقوم أصحاب الأراضي المعدة للحصاد، بالذهاب إلى حماه، واستجلاب العدد المطلوب منهم (٦ – ١٢)، ومعهم طبعًا فتاة شابة – أو أكثر – هي من تُعرف **بالغمارة**. وعادة ما يكون مع الحواصيد الكبار «الرجال» فتيان صغار (١٤ – ١٨ سنة) يشاركون في الحصاد مع من أتوا معهم، ويقوم هؤلاء بحصاد خط، لذا عرفوا **بالخطاطين** «خطاط»، تمييزًا من الحاصود الكبير الذي يتناول بالحصاد خطين من الزرع المعروفين باسم «**إمان** = زوج من خطوط الزرع». ويعرف الحاصود الذي يكون في مقدمة الحواصيد وهو أمهرهم وأسرعهم باسم **الطارود**، ويكون في وسط الحواصيد، والذي يليه يدعى باسم **رعدان**، والذي يكون في المؤخرة يُلقب **الطشة**.

ويستخدم في عملية الحصاد: **المنجل**، بالنسبة للقمح و**القالوشة** «منجل صغير» بالنسبة للشعير، وهي أدوات مصنوعة من الحديد، ومكورة بشكل شبه نصف دائرة، حادة من داخلها، ولها عند طرفها قبضة من الخشب يمسك بها الحاصود. كما في الشكل الآتي:

أدوات الحصاد: المنجل، والقالوشة.

أما العدس والجلبان فيحصدان باليد.

وما يتركه وراءه الحاصود عند جزه للقمح بالمنجل يدعى **الشمل** الذي تقوم الغمارة باستخدام ما يدعى **المغمارة** بجمع عدة شمول (٤ - ٨) بشكل رزم مجدولة، ووضعها خلف الحاصود عبر طبقتين طولانيتين متعاكستين، تدعى **الغمر**. أما بالنسبة للشعير فيتم جمعه بيديها ومن ثم وضعه على شكل أكوام كبيرة تدعى الكومة الواحدة باسم **الحابون**. وكذلك في حال الجلبان والعدس، يجمع بأكوام تدعى **أكداس**.

أما موسم الحصاد؛ فيختلف حسب المحصول: فبالنسبة لمحصولي العدس والجلبان فيُحصدان في أواخر نيسان وأوائل أيار، وعليه قيل في ذلك: «**ما بيمر نيسان دون كدسان**». أما حصاد **الشعير** فيتم في النصف الثاني من شهر أيار، ويعقبه حصاد **القمح** في أعقاب الانتهاء من حصاد الشعير الذي يمكنه أن يستمر حتى منتصف حزيران.

ومدة الحصاد اليومية، تبدأ مع بزوغ الفجر - قبل شروق الشمس بنحو ساعة إذ يذهب الحواصيد إلى الأرض، ويستمر حتى غروب الشمس. وإذا ما كانت الأرض بعيده عن القرية، يؤخذ الحواصيد بالعربايات، ومِن ثَمَّ بالجَرَّار.

أما طعام الحواصيد؛ فكان يتألف من أربع وجبات، هي: **وجبة كسران السفرة**، بعد شروق الشمس بقليل، وتتألف من التمر. ويليها وجبة **الفطور** بعد شروق الشمس بنحو ساعتين، مكونة من التمر واللبن، مع برغل ومتبلة أحيانًا. ووجبة **الغداء** بعد الظهر بنحو ساعتين، مكونة إما من قمر الدين أو المتبلة. والوجبات الثلاث السابقة تؤخذ إلى الحواصيد وهم في الأرض. وأخيرًا وجبة **العشاء** بعد غروب الشمس وعودة الحواصيد إلى القرية، وكانت تتألف من البرغل - سواء بالحمص، أو بالعدس مجدرة، أو برغل سليقة -، وبجانبه أحيانًا اللبن، أو سلطة بندورة وخيار.

وكان يتحرك مع الحواصيد شخصٌ من أهل الحصاد يحمل بيده وعاء مملوء بالماء ليسقي الحواصيد، ويدعى **السقا**.

ومن العادات والتقاليد التي كانت متبعة في آخر موسم الحصاد، هي ما تُعرف باسم **خلاصة الحصاد**. وهي عبارة عن وليمة يدعو إليها الفلاح كل الحاصدين، والأقرباء والأصدقاء في نهاية عملية حصاد أرضه، إذ يقدم فيها إلى ضيوفه أكلة «**السيالات**»؛ وهو خبز مشوي على «الصاج» أو على بلاطة حديدية، وبعد شيه يفرش في صحون متسعة، ويدهن بالسمن، وينثر عليه السكر، ثم تجعل السيالات أطباقًا بعضها فوق بعض، ومن ثم تقطع بالسكين إلى قطع صغيرة لتكون بذلك جاهزة للأكل، وتقدم عندها للمدعوين الذين يلتفون حولها ويأكلونها بأيديهم دون ملاعق أو شوكات.

وينام الحواصيد عادة في بيت صاحب الأرض، إما في غرفة خاصة تجمعهم، أو على ما يُعرف **بالمصطبة** أو المَصِيف، وهو بمنزلة ساحة مقابل غرف المنزل، أو يكون النوم على أسطح إحدى الغرف، باعتبار الجو صيفيًا، وغالبية الناس تنام في القرى على الأسطح أو مقابل الغرف.

٥ - الرجاد:

الرجاد؛ هو عملية نقل المحصول الزراعي بعد حصاده إلى البيادر الموجودة في أطراف القرى - والمدينة -، ووضعه بشكل أكوام كبيرة «**بيادر**» كل نوع «قمح، شعير، عدس، جلبان... » في بيدر «كومة كبيرة» خاص به، أو في أكثر من بيدر إذا كان المحصول كبيرًا، إذ كان مخصصًا لكل فلاح مساحة قريبة من القرية لذلك.

وكانت عملية **الرجاد** في خمسينيات القرن العشرين، وما قبل ذلك، تتم بوساطة **عرباة الخشب**، ذات الأربعة دواليب كبيرة، والموضوع على كل جانب منها عمودان خشبيان بطول نحو مترين للعمود،

إضافة إلى عمود في منتصف مقدمتها، لتتسع أكبر قدر ممكن من المحصول، ويجرها حصانان «كديشان». وكان هناك قائد للعربة «العربجي» الذي هو من يتسلّم المحصول من الراجود الذي يرفعه إليه بوساطة المذراة الحديدية للشعير والعدس والجلبان، وبوساطة الشيالة «مغمارة كبيرة» للقمح. وقد يكون هناك راجودان. وبعد امتلأ العربابة يوجّهها العربجي إلى البيدر، ليفرغ حمولتها بوضع المحصول على شكل أكوام كبيرة «بيادر».

(أ)

(ب)

الرجاد (أ) بالعربابة. (ب) بالجرَّار.

أما في الستينيات من القرن العشرين، إذ ما زال الحصاد يدويًا، فقد استخدم في نقل المحصول الزراعي من الأرض إلى البيدر الجرار الزراعي بدلًا من العربابة الخشبية. وهذا ما كان يتطلب وجود رجلين في العربة التي يجرها الجرار الزراعي لاستلام المحصول من الشخصين «الراجودين» أو أكثر (٣ - ٤) الذين يسلمانهم إياها بوساطة الشيالة للقمح والمذراة الحديدية للشعير والعدس.

الشيالة والمذراة الحديدية.

وكثيرًا ما كانت تتم في عملية الرجاد بالجرَّار، ما تدعى المحابرة «المحيبرة». والمقصود بالمحيبرة؛ التعاون ما بين عدة مزارعين (٣، ٤) للقيام بعملية الرجاد، بحيث يقدم كل مزارع عاملًا، قد يكون المزارع نفسه إذا ما كان قادرًا على ذلك، أو أحد أبنائه.

٦ - الدراس «الدريس»:

وهي العملية التي يتم فيها تكسير القش وفرط الحب بعضُه مع بعضٍ، ليتم في المرحلة اللاحقة فرز القش عن الحب. وتتم عملية الدراس بآلة **الحيلان** «النورج»، الذي يجرّه كديش أو حمار، ويقوده الداروس بجلوسه على ظهر الحيلان. كما في الشكل الآتي.

الدراسة بالحيلان.

ويتم الدراس على مرحلتين:

أ - التكسير «التخشين»: ويتم برمي **الدريخة**؛ باستخدام المذراة الحديدية، وذلك بإنشاء طوق من

المحصول من الكومة على شكل دائرة حولها، ليوضع الحيلان فوقها متحركًا بدورانه عدة مرات إلى أن تصبح الدريخة ناعمة جزئيًا، وينفصل خلالها الحب عن التبن، فيردها إلى خارجها «خارج الدريخة» حول محيط العرمة، وتدعى **الطرحة** أو الطوق. ومن ثم ترمى دريخة ثانية فثالثة فرابعة حتى الانتهاء من العرمة، وتغدو كلها في الطوق المدروس.

ب - **التنعيم**: وهي عملية تنعيم الدراس الأولي، بإعادة درسه مرة أخرى، برمي دريخة جديدة داخلية، وتدوير الحيلان المركوب فوقها عدة مرات حتى ينعم القش، ويصبح تبنًا ناعمًا، ثم تجمع لداخل الطوق على شكل كومة أولية، وهكذا حتى الانتهاء من الطوق الخارجي كاملاً، ليجمع كله عندها على شكل كومة داخلية، تصبح جاهزة للتذرية.

٧ - **التذرية**:

بعد الانتهاء من عملية الدراس، وهذا ما كان يحدث في النصف الأول من شهر تموز. كانت تبدأ عملية التذرية «التذراية»، بغية فصل الحبوب عن التبن وغيره من أنواع القش.

ولقد اعتاد الفلاحون في موسم التذرية طبيعة الحركة الهوائية «الرياح» التي تتم التذرية بموجبها، والتي يجب أن تكون خفيفة «سرعة أقل من ٧م/ثا». وهي عمومًا الرياح التي تهب في الباكر «منذ الفجر حتى الساعة الثامنة» هي **رياح شرقية، تتم التذرية بموجبها.**

وكان يقوم بالتذرية رجلٌ يحمل المذراة الخشبية رافعًا بها كمية من الدريس من العرمة للأعلى في الهواء وناثرًا إياها، مما يجعل الحب يترسب مكان العرمة مع بعض القش الخشن والأتربة «**الصبة**». والتبن «القش الناعم» يتطاير غربًا لجوار العرمة ليترسب «التبان»، ويستمر ذلك حتى الانتهاء من تذرية العرمة كلها، ليصبح مكانها **الحب المترسب** مع بقايا القش الخشن «الصبة»، وهو ما سيخضع لاحقًا لعملية الصنت، والباقي بجوارها **التبن «التبان»**.

التذرية بالمذراة الخشبية

وهكذا الحال في كافة عرمات الدراس وصباتها، من قمح وشعير وعدس وجلبان.

٨ - **الصنت**:

وهي آخر مرحلة من المراحل التي يمر بها المحصول بعد الحصاد. والغاية منها فصل الحب عن التبن والقش الخشن قليلاً والأوساخ العالقة. ويمر بثلاث عمليات، هي:

١ - **السرد**: بغية فصل القش الخشن (القصرينة وسواها) وتجميعها جانبًا، وذلك باستخدام ما يُعرف بـ «**المسرد**».

٢ - **الغربلة**: وذلك لفصل الحب عن الأتربة العالقة. وذلك باستخدام «**الغربال**»، وذلك بهزه عدة مرات.

٣ - **الصنت**: لفصل بقايا التبن وسواه عن الحب الذي ينزل «يسقط» إلى تحت **الصانوت**، عند تحريكه «هزه» بمنة ويسرة، بحيث تتجمع الحبوب بأكوام حسب كمية المصنوت من المحصول.

عمليات الصنت وأدواته.

٩ - التتبين:

بعد الانتهاء من عملية فرز الحبوب عن التبن وسواه. تتم عملية **نقل التبن من البيدر** إلى البيوت القريبة من البيدر، فيما يدعى **التتبين**، وكانت تقوم بذلك النساء بنقله على رؤوسهن **بالشل** المؤلف من كيسين قنب بشكل مخروطي رأسه في الأسفل وفتحته في الأعلى. وهذا ما كان يتم عصرًا وليلًا في ضوء القمر. وأحيانًا كان البعض يقومون بنقل التبن بما يدعى **الخيشة** - المؤلفة أيضًا من كيسين قنب أو كثر غطاء الفتحة تدعى التوامة -، على ظهور الحمير والكدش أو في العربايا. وهناك في البيوت أماكن مخصصة لوضعه «قبة = بيت التبن».

الشل والخيشة

أما **المحصول** «قمح، شعير، عدس، جلبان» فكان صاحبه ينقل إلى البيت حاجته ليضعها في **الحواصل** «خلايا ترابية كبيرة» مخصصة للقمح بالدرجة الأولى. ويتم النقل بأكياس على ظهور الحمير والكدش. وكانت الحاجة من القمح ممثلة فيما هو مخصص لبذار الموسم القادم، وحاجته منه كطحين للخبز بعد تصويله وطحنه، ومؤونة للبرغل. أما **الشعير**، فتتمثل الحاجة في البذار، وفيما يحتاج إليه علفًا للحيوانات. **والجلبان** للبذار والعلف، أما **العدس** فللبذار، ولحاجة الاستخدام المنزلي «عدس المجدرة، عدس الجرش».

وما يزيد على الحاجة حسب تقديرات صاحب الموسم؛ إما يبيعه وهو على البيدر - وهذا الغالب - إلى تجار من سلمية وحماه -، وإما يقوم البعض بادخاره في البيت زمنًا ما بانتظار بيعه لاحقًا.

وكانت وحدات الوزن المستخدمة لتحديد كمية المحصول من القمح والشعير وسواهما، هي:

١ - **المسحة** «المُد»: وتساوي تنكة مملوءة بالمحصول، ويختلف وزنها باختلاف المحصول، فوزنها من القمح (٦, ١٤كغ) ومن الشعير (٥, ١٢كغ)، ومن الجلبان (٢٢كغ).

٢ - **الشنبل**: ويساوي (١٦) مسحة، وهو بديلٌ عن القنطار الذي يبلغ (٢٥٠كغ).

٣ - **الربعية**: وهي تعادل ربع شنبل مساوية بذلك إلى (٤) مسحات.

أما **الزراعة المروية** «السقي» فلم يطرأ عليها تغيُّرٌ كبيرٌ في العمليات الزراعية، إلا في عملية الحراثة التي غدت تتم باستخدام الجرار الزراعي - كما في الزراعة البعلية - بدلًا من الصمد. إضافةً إلى وسائل الري التي كانت قبل خمسينيات القرن الماضي من خلال قنوات الري، لتتحول منذ الخمسينيات حتى التسعينيات إلى

استخـدام المضخات الآلية «الموتـورات» بضخ المياه مـن **الآبار تحت السطحية** التـي كانت تحفر يدويًا حتى عمق نحو (١٠م)، ليتحول جزء كبير منها إلى الآبـار الجوفية (عمق ١٠٠م حتى مستوى البحر في بعضها».

وبعـد الحراثة يتـم تقسيـم الأرض إلى مساكب باستخـدام آلـة المسحـاة التي يقـوم بهـا شخصان. وبعض الزراعات كانـت تتم عبر خطـوط عرضانية يشقها الفلاح بالرفش أو المجرفة.

ومـن أهـم الزراعـات المرويـة سابقًـا في منطقة سلميـة، نذكـر: البصـل والقطـن، ومـن ثـم الـذرة الصفراء، فالخضـروات المتنوعة «بندورة، باذنجان، كوسا، فليفلة، بامياء، فاصولياء...إلخ»، وكذلك عباد الشمـس «دوار الشمـس» والمقاتـي ولا سيَّمـا البطيخ الأحمر.

كمـا كانـت منتشرة زراعـة بعض أنـواع الأشجار المثمرة بعـلًا ومروية، كالعنب، والتـين، واللوز لتنتشر الآن زراعة الزيتون.

المسحاة

المصادر والمراجع:

- جمعية العاديات، «سلمية المعاصرة: مجموعة مقالات لعدة باحثين من سلمية». سلمية، ٢٠٠٧م.
- ضيـاء موسـى، «الأقنية المائية في منطقـة سلمية خلال العصر الرومـاني». رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ٢٠١٠م.
- علي موسى، محمد حربا «محافظة حماه»، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٥م.
- محمود أمين، «سلمية في خمسين قرنًا». مطبعة كرم، دمشق، ١٩٨٣م.
- علي حسن موسى، «سلمية: تاريخ وحضارة»، وزارة الثقافة، ٢٠١٩م.
- لقاءات مع كثيرٍ من المعمرين رجالًا ونساءً.

القبقاب الدمشقي تاريخ وحكايات

أحمـــد بوبـــس

كثيرة هي المرات التي جلسنا فيها أمام شاشة التلفاز نشاهد مسلسلي «حمام الهنا» و«صح النوم»، وفي كل مرة يشد انتباهنا قبقاب غوار الطوشة بشكله وقرقعته. فهل خطر ببال أحدنا أن يسائل نفسه عن تاريخ هذا القبقاب وأصله وفصله؟

القبقاب هو بمنزلة حذاء للأقدام، وسمي بهذا الاسم بسبب القرقعة التي يحدثها أثناء مشي منتعله. ففي قواميس اللغة القبقبة صوت هدير الجمل، ورجل قَبقاب أي كثير الكلام. وبصورة عامة فإن اسم «القبقاب» يعني القوة والصوت الهدار، نتيجة القرقعة التي يُحدثها أثناء السير، والتي لا يمكن إخفاؤها مهما حرص لابسه على التأني في السير.

والقبقاب ليس حكراً على دمشق، فقد اشتهرت بصناعته القاهرة وبغداد أيضاً، ولقد عرفته المدن الثلاث منذ العهدين الفاطمي والمملوكي، لكونها كانت أهم ثلاث عواصم في تلك الحقبة. ولكن دمشق كان لها الأهمية الكبرى في صنع القباقيب بين المدن الأخرى، لإتقان صنّاعها المهرة وتفننهم في صناعتها، فكانت القباقيب التي تُصدّر منها إلى كثيرٍ من البلدان الأخرى هي الأكثر رواجاً. وانتقلت مهنة صناعة القباقيب وبيعها بالوراثة عبر أجيال كثيرة، فاختصت بها أسر بعينها، بل إن في دمشق عائلة كبيرة تحمل لقب «القباقيبي»، كانت تقطن في حي سيدي عامود في المنطقة المحصورة بين سوق مدحت باشا وسوق الحميدية، الذي زال عن الوجود بسبب الحريق الكبير

الذي تعرض له عام ١٩٢٥ نتيجة القصف العنيف من الطائرات والمدافع الفرنسية إبان الثورة السورية الكبرى لمدينة دمشق، وحلت مكانه المنطقة التجارية التي تُعرف اليوم باسم «الحريقة». ولا شك أنه كان لهذه الأسرة لقب غير هذا، لكن لقب «القباقيبي» غلب عليها بسبب اشتغال معظم أفرادها ولأجيال عديدة بصناعة القباقيب وبيعها، وهذا الأمر كان شائعاً في دمشق، فكثير من العائلات الدمشقية أخذت لقبها من المهنة التي مارسها أفردها لأجيال متعاقبة، حتى غدت تلك المهنة لقب العائلة، أذكر – على سبيل المثال

– عائلة القباني الدمشقية، والتي منها الفنان المشهور أبو خليل القباني والشاعر الكبير نزار قباني، فلقبها الأصلي «آقبيق»، لكن اشتغال فرع من العائلة بالقبّان، جعل لقب «القباني» يغلب عليها، حتى غدا لقبها في قيود السجل المدني، بينما هناك فرع آخر من عائلة «آقبيق» لم يشتغل بمهنة القبّان، فظل لقبها كما هو «آقبيق» حتى اليوم.

ومنذ نحو ستين سنة وما قبل كان القبقاب أحد أكثر الأغراض الدمشقية استخداماً. فلم يكن أي بيت دمشقي يخلو من عدد منها. وأنا من آخر الأجيال التي استخدمت القبقاب كحذاء رئيسي في المنزل والحارة. وكان للقبقاب مزيَّة كبيرة، فعندما نخرج به إلى الحارة أيام المطر، يمنع ابتلال أقدامنا بالمياه التي تغمر الطرقات لارتفاعه الكافي عن الأرض. كما يستخدم في حمامات السوق لأنه يحمي من الانزلاق بسبب كثرة الماء في مقصورات الحمامات الداخلية، كما يستخدم في المساجد للوضوء، وما زال هذا

الاستخدام شائعاً حتى اليوم، إذ يوضع عدد من القباقيب في موضأ المسجد. وإضافة إلى كل ذلك فالقبقاب صحي ومريح للقدمين، ولا يسبب التشققات الجلدية التي تسببها الأحذية المصنوعة من الجلد الصناعي أوالمشمع أو البلاستيك.

يقع سوق القباقبية في وسط دمشق القديمة داخل السور. ويمتد من سوق الحرير موازياً لحمام القيشاني غرباً حتى سوق الصاغة القديم ومدخل البزورية شرقاً. وهو من الأسواق المغطاة بسقف معدني، فلا يتعرض لشمس الصيف الحارقة ولا لأمطار الشتاء الدافقة.

وعندما كنا نمر صغاراً من سوق القباقبية، لم نكن نرى إلا القباقيب مكدسة أمام لمحلات ومعلقة على الجدران وحتى في سقف السوق، وكأن جدران السوق وسقفه صنعت من القباقيب. أما الآن فلم يعد في سوق القباقبية أكثر من دكانين اثنين لصناعة القباقيب وبيعها، بينما تحولت الدكاكين الأخرى إلى متاجر لبيع الماكياجات والإكسسوارات النسائية وغيرها من البضائع. وهذا التغيير أصاب كل الأسواق المتخصصة في دمشق القديمة، مثل سوق الحرير وسوق الخياطين، فقد أصبحت دكاكينها خليطاً من محلات بيع الماكياجات والإكسسورات النسائية والألبسة وكل ما يخطر على البال.

وتتكون فردة القبقاب من قطعة خشبية واحدة، ولا تركب عليها أية قطع أخرى، ويصنع القبقاب في دمشق من خشب الصفصاف أو الحور أو المشمش لكثرة هذه الأشجار في دمشق وغوطتها، وطريقة صنع القبقاب تكون بتقطيع جذوع الأشجار إلى ألواح بالسماكات المطلوبة، ثم ترسم عليها قوالب القباقيب بقياسات مختلفة للأطفال والكبار، بعد ذلك يجري تفصيلها لتأخذ الشكل المطلوب، ويجري حفّها وتنعيمها لتصبح ملساء. ويتميز القبقاب بأنه ليس له فردة يمين أو فردة يسار، فالفردتان متشابهتان تماماً، وتُنْتعلان كيفما اتفق.

ويُركّب على فردة القبقاب قطعة جلدية تسمى «السير» يكون على شكل قنطرة، تدخل القدم فيها فتمسك القبقاب بالقدم. ويثبت السير على جانبي القبقاب بمسامير خاصة تسمى «مسامير قباقبية»، ويكون للمسمار طبعة كبيرة حتى لا يتمزق جلد السير.

وللقبقاب أنواع كثيرة حسب استعمالاتها. فهناك القبقاب الرجالي الذي يكون له كعب مثل كعب الحذاء، ويكون لون «السير» دائماً أسود. وهناك القبقاب النسائي الذي تتنوع أشكاله وألوانه، إذ يُراعى في صنعه الناحية الجمالية. وفي الغالب يكون القبقاب النسائي «الزحاف» أي إنه يكون دون كعب، بل يكون أسفله على سوية واحدة، وهذا يساعد على سرعة الحركة، كما يساعد الفتاة على إظهار بعض الدلع أثناء مشيها، لأنها تحدث بعض القرعات الجميلة، كما شاهدنا من صبايا مسلسل «باب الحارة».

ويكون القبقاب النسائي مطلياً بألوان زاهية، وقد يكون عليه بعض الرسوم. ومن أنواع القباقيب النسائية القبقاب «الشبراوي» الذي يرتفع من ناحية الكعب شبراً عن الأرض، وتستخدمه الفتيات قصيرات الطول ليزدن من طولهن وبشكل خاص أمام الخاطبات. ويكون القبقاب الشبراوي عادة على درجة من الفخامة، فيرصع بالصدف، ويكون سيره مطرزاً بخيوط الفضة والذهب. وهناك القبقاب الجركسي وهو قبقاب رقيق السماكة، وهو أرخص أنواع القباقيب ثمناً وتستخدمه الطبقة الشعبية. وهناك أخيراً قبقاب الحمام الذي يستخدم في حمامات السوق، ويلبسه العاملون في الحمام والزبائن. وهذا القبقاب يتكون من قطعة خشبية ذات سماكة واحدة ولها شكل الحذاء، وفي أسفلها تجويفان عرضيان يثبت في كل منهما رجل بارتفاع عدة سنتمترات. وهو القبقاب نفسه الذي يستخدمه غوار الطوشة في مسلسلي «حمام الهنا» و«صح النوم». وهذا القبقاب يمنع لابسه من الانزلاق على أرض الحمام الملساء والمبللة بالماء.

ويذهب المرء إلى سوق القباقبية ليبتاع ما يشاء منها، وعندما يعجبه قبقاب ويقرر شراءه، يضع بائع القباقيب فردة دون سير على الأرض، ويضع الزبون قدمه عليها للتأكد من مناسبة القياس للقدم، ثم يقوم بتثبيت السير بالمسامير الخاصة. وهناك القبقاب التوصاية، إذ يقوم الأثرياء وبشكل خاص في الأعراس بطلب قبقاب للعروس بمواصفات خاصة، كأن يكون بارتفاع محدد، وأن يطعم خشب القبقاب بالمعادن والأحجار الكريمة، وأن يطرز السير برسومات معينة وبخيوط الذهب والفضة، فيطلب صاحب المحل من صاحبة القبقاب المطلوب وضع قدمها على لوح من الورق المقوّى «الكرتون»، ويقوم برسم قدمها عليه، لتكون القياس المطلوب، ثم يدفعون ثمنه مقدماً، ويعودون في الموعد الذي حدده البائع لاستلامه. والقبقاب كان عنصراً أساسياً من جهاز العروس.

وارتبط القبقاب عبر التاريخ بكثير من الحكايات التي لا يخلو بعضها من الطرافة. من أشهرها حكاية شجرة الدر في مصر. فقد كانت شجرة الدر من جواري الملك الصالح «ملك مصر»، واشتراها منه الملك نجم الدين، وأطلق عليها اسم شجرة الدر. ولمّا تولى الحكم في مصر بعد الملك الصالح أصبحت شجرة الدر شريكة فعلية له في الحكم بعد أن تزوجها، وأنجبت له ولداً أسمياه «خليل». وبعد وفاة الملك نجم الدين تزوجت شجرة الدر من عز الدين أيبك، ونصبته ملكاً صورياً على مصر، لتبقى هي الحاكمة الفعلية. وأطلقت عليه لقب «الملك المعز لله». وبلغها أن زوجها يريد الزواج ابنة ملك الموصل، فساءت العلاقة بينهما، وقررت سراً التخلص منه. ولمّا دخل الحمام ذات يوم، أرسلت خمساً من جواريها إلى الحمام فضربوه بالقباقيب حتى مات. وبعد فترة. حكم مصر الملك المنصور ابن الملك المعز من زوجة غيرها، فحكم عليها بالموت بالطريقة نفسها التي قتلت فيها أباه. فضربتْها الجواري بالقباقيب حتى ماتت.

واحتل القبقاب مساحة واسعة في أدبياتنا الشعبية وفي بعض الفنون، لكونه الأكثر شهرة بين الأحذية الأخرى.، فقد ورد ذكره في كثيرٍ من الأمثال الشعبية، كذاك المثل الذي يقول: «لابق للشوحة مرجوحة ولأبو بريص قبقاب»، وإذا تصاحب شخصان واغتاظ ثالث من هذه الصحبة، يقول عنهما: «لف السيرع القبقاب» أي إنهما لا يفترقان أبداً.

ونال القبقاب شهرة واسعة لدرجة أنه تم ذكره في بعض الأغاني، فقد ذكرته المطربة شادية في إحدى أغنياتها، لتعبر عن دلعها، وعن تأثير رنة قبقابها الموسيقية، والأغنية هي «رنة قبقابي»، ويقول مطلعها: ««رنة قبقابي يما...رنة قبقابي...وأنت ماشية ماشية يما...بتميّل راسي»»، أي إن رنة قبقابها يجعل رأسها يتمايل طرباً. ولا ننسى قبقاب غوارالطوشة في مسلسلات الفنان دريد لحام، ولا سيما مسلسل «حمام الهنا» والقرقعة اللطيفة التي كان يتعمد إحداثها. وقد حدثني أحد باعة القباقيب أنه كثر اقتناء الناس للقباقيب خلال فترة عرض هذا المسلسل في النصف الثاني من ستينيات القرن العشرين.

ومن نتائج شهرة القبقاب الدمشقي، أن قام صناع سكاكر الأطفال بصنع سكاكر على شكل قباقيب صغيرة وبألوان زاهية. ويكاد القبقاب ينقرض، ولكن هذه السكاكر القبقابية لا تزال منتشرة، تذكرنا بأيام عز القبقاب.

بعد هذا التاريخ الحافل للقبقاب انحسر استخدامه وتراجعت مكانته، حتى أصبح تحفة سياحية يقتنيها السياح، وتراجعت صناعته وتجارته، حتى لم يبق في دمشق إلا محلات قليلة. وأصبح القبقاب مهدداً بالانقراض بسبب تحول كثيرٍ من محلات صنعه وبيعه إلى مهن أخرى. ومن العوامل التي ساعدت على تراجع استخدام القبقاب رغم أنه صحي أكثر من «الشحاطات» الدارجة الآن المصنوعة – في معظمها – من الجلود الصناعية

قباقيب من سكر

والمشمعات والبلاستيك الضارة لجسم الإنسان، هو انتشار الأبنية الطابقية، فاستخدام القباقيب فيها يكون مزعجاً للطوابق الأدنى، بسبب قرقعته التي قد لا تروق بعضَهم.

والقبقاب على وشك الاندثار الآن، فقد تحول من ضرورة منزلية إلى تحفة يقتنيها السياح، إضافة إلى استخداماته في مسلسلات البيئة الدمشقية.

المراجع:

١- موسوعة الأسر الدمشقية تاريخها أنسابها أعلامها، ج٣، الدكتور محمد شريف عدنان الصواف، بيت الحكمة، دمشق، ٢٠١٠م.

٢- مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين ١٧٧٢-١٨٤٠م، الدكتور يوسف جميل نعيسة، دار طلاس، دمشق ١٩٨٦م.

٣- قاموس الصناعات الشامية، محمد سعيد القاسمي وجمال الدين القاسمي وخليل العظم، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨م.

٤- لقاءات مع آخر اثنين من صناع القباقيب وباعته في سوق القباقبية بدمشق.

طرائق تقديم الطعام وتناوله بدمشق من القرن العشرين إلى القرن الحادي والعشرين من «السفرطاسي» إلى «طلبات»

نبيـــل تللـــــو

يُعَدُّ الطعام أحد أهم احتياجاتنا الأساسية اليومية، بل الساعية، إذ إنَّ الحياة لا تستمر دونه، فهو يزوِّدنا بالطاقة لكلِّ نشاط نقوم به: المشي والكلام والعمل واللعب والقراءة، وحتى التفكير والتنفُّس، كما يزوِّدنا بالطاقة التي تحتاج إليها أعصابنا وعضلاتنا وقلوبنا وغددنا لكي تعمل، إضافةً إلى أنَّه يمدُّ أجسامنا بالمواد المغذية التي تحتاج إليها لبناء وإصلاح وتجديد الأنسجة، ولتنظيم عمل أعضاء وأجهزة الجسم، ويساعدنا على البقاء أحياءً وأقوياء وأصحاء، بل أكثر من ذلك، فهو يبعث السعادة في حياتنا، فنحن نستمتع بنكهات وروائح وألوان وقوام الأغذية المختلفة، ونحتفل في مناسباتٍ شتَّى بتناول وجبات مفضَّلة، ولا تكتمل الأفراح، بل حتَّى الأحزان، إلَّا بالجلوس إلى وليمة فخمة، حتى إنَّ بعضهم لا يتذكَّر من المناسبة سوى الطعام الذي أكله، وإذا لم يُقَدَّم طعام جيِّد، سرعان ما تنطق الألسن بهذا المثل: «لا بورك في مشوارٍ خطواته أكثر من لقيماته».

تتناول هذه المقالة الطرائق والوسائل التي كان الدمشقيون يستخدمونها لتقديم طعامهم وتناوله، ومقارنة ذلك بوقتنا الحاضر، راجيًا أن يتذكَّر كرام القارئات والقراء ما نسوه، وأن يتعرَّفوا ما لا يعرفونه، آملًا أن أكون قد قدَّمت لهم المعلومة المفيدة والمهمة التي تساعد على حفظ تراثنا الشعبي.

تناول الطعام من صحنٍ رئيسي بالملاعق

ـ أولًا: طرائق تناول الطعام:

لم يكن في أغلب بيوت دمشق أمكنة خاصَّة لتناول الطعام، أي غرفة خاصة للطعام، أو «أوضة السفرة» كما صاروا يُطلقون عليها، وكان الدمشقيون يتناولون الطعام في غرفة الجلوس، أو «أوضة القعود»، أو في الفسحة السماوية (أرض الديار) في الصيف، ومنذ ظهور الأبنية الحديثة الطابقية في النصف الثاني من القرن العشرين، بُدِئ بتخصيص غرفة خاصة للطعام، ولكنَّها غالبًا ما تكون غرفة الجلوس أو المعيشة.

كان الدمشقيون يضعون على الأرض صينية نحاس، ويضعون عليها أطباق الطعام، ثم صاروا يمدُّون على الأرض قطعة قماش، ثم صاروا يمدُّون مشمعًا، وفي مدَّة أحدث أصبحوا يستخدمون صينية معدنية ألمنيوم أو شينغو (حديد مدهون)، والأحدث هو الستانلس ستيل، وكانوا يجلسون حولها القرفصاء أو ركبة ونص أو على ركبهم أو تربيع، وبعضهم كانوا يستخدمون «الطبلية»، وهي طاولة من الخشب قصيرة القوائم، وفي مدَّة أحدث بدأ استخدام الطرابيزة لوضع صحون الطعام عليها، ويتحلَّقون حولها على كراسي خيزران أو كراسي معدنية قابلة للطي أو كراسي خشبية من الخشب والقش، ثم بدأ استخدام الطاولات الخشبية وحولها كراسٍ مريحة، وكانت توضع في غرفة السفرة، وغالبًا لا تستخدم إلا عند إقامة العزايم، أي الولائم للأهل والأصدقاء. وفي البيوت الحديثة ذات المطبخ الواسع صارت توضع طاولة ثابتة

تناول الطعام من صحنٍ رئيسي ياليد

في إحدى زواياه مع كراسي مريحة. كما يوجد طاولات بالإمكان طيّها وركنها في أحد أركان الغرفة، ويكون سطحها من الخشب المصقول (فورميكا) وأرجلها من المعدن.

ـ ثانيًا: من السفرطاسي إلى طلبات:

لم تكن مدينة دمشق بهذا الاتساع الحالي سكانًا ومساحةً، ففي أوائل القرن العشرين لم يكن يوجد إلا بضع أحياء كانت تحيط بدمشق القديمة، ومنذ النصف الثاني أخذت الأحياء الأحدث بالظهور، في تلك المساحة المحدودة اعتاد التجار وأصحاب الحِرَف تناول طعام الغداء في محلاتهم، وكان يصلهم من البيوت معبَّأً في «المطبقية» (لأنَّ أوعيتها تطبَّق بعضها فوق بعض)، أو ما يُعرف بـ: «السفرطاس»، وهي كلمة فارسية الأصل معناها «طعام المسافر»، وهي عبارة عن ثلاثة أو أربعة أوعية صغيرة تطبَّق بعضها فوق بعض، وتُثَبَّت بعامود، ولها مسكة أو مقبض، ويتَّفق عددٌ من أصحاب المحلات مع شخصٍ كانوا يُطلقون عليه اسم: «السفرطاسي» أن يقوم بنقل الطعام من

السفر طاس

بيوتهم إلى محلاتهم مشيًا على الأقدام، وكان يعلِّق على كتفه قضيبًا خشبيًا طوله نحو مترين، ويحمله على كتفه من المنتصف، ويثبَّت عليه عددٌ من الشناكل، وهي قطعة معدنية معقوفة لحمل السفرطاس، كان السفرطاسي يدور في الأحياء القريبة من الأسواق، ويطرق أبواب البيوت السكنية في فترة الظهيرة، وتناوله سيدة البيت المطبقية التي تحتوي على الطعام بعد أن تكون قد انتهت من إعداده في فترة الصباح: علبة للمرق، والثانية للأرز والبرغل، والثالثة لرغيف الخبز، والرابعة ــ إن وُجِدت ــ للمخلَّل أو ما شابه، ويقوم بإيصالها إلى المحلات في فترة ما بعد الظهر، ليتناولها التجار فرادى، أو يتشارك اثنان أو أكثر بتناوله معًا نوعًا من الألفة الاجتماعية، ثم تُغسل الأوعية ويقوم صاحبها بإعادتها إلى المنزل مساءً، ليعاد العمل نفسه في اليوم التالي عدا يوم الجمعة، فهو يوم العطلة الأسبوعية التي لم يجر عليها أيُّ تغيير. وفي بعض الأحيان قد يكون ناقل الطعام طفلٌ يحمل مطبقيةً واحدة في كلِّ يد، وبعد أن يتمَّ إيصال الطعام يأخذ أجره مباشرةً أو في آخر الأسبوع حسب الاتفاق. وفي مدَّة أحدث استبدل السفرطاسي العمود بعربة يدفعها بيديه، إذ يستطيع أن يحمل مزيدًا من السفرطاسات، ما يعني تحصيل دخلٍ أعلى. كما كانت بعض الجمعيات الخيرية تطبخ الطعام وتوزِّعه على بيوت المحتاجين بالأسلوب نفسه.

هذا الأسلوب بنقل الطعام قد بدأ بالتلاشي منذ الخمسينيات، بعد أن ابتعدت الأحياء السكنية عن مركز دمشق التجاري، ولم يعد بالإمكان نقلها مشيًا، ولا أذكر أنَّني شاهدتها بعد السبعينيات، فقد صار بعض التجار يعدّون وجبة الظهيرة المتواضعة في المحل نفسه بعد أن بدأت بالظهور أدوات الطبخ والمواقد الغازية والكهربائية الصغيرة، في حين يقوم بعضهم بجلب الطعام البسيط من المطاعم الصغيرة التي أخذت بالانتشار بين الأحياء التجارية،

توصيل الطعام على الدراجة

ويقوم عمالٌ بنقلـه على صينية، وقد لا تتعدَّى الوجبة السندويشة، وتكـون الوجبة الرئيسيـة في المساء بعد العودة إلى المنزل.

غـير أنَّ التطوُّر الأهم الـذي طرأ على نقل الطعام هـو طلبـه، أو التوصية عليـه، بالهاتـف الأرضي منذ أن بـدأ بالشيـوع مطلـع النصـف الثـاني مـن القرن العشريـن، ومنذ مطلع القرن الحادي والعشرين صار الطلب يجري بالهاتف النقَّال (الموبايل)، من مطاعم تعلـن عن توصيل طلبات الطعـام مجانًا، وبعد التوسُّع في استخـدام الشابكة (الإنترنيـت) ومواقع التواصل الاجتماعي، صار يتمُّ الطلب عبر تطبيقات مخصَّصة لهـذا الغرض، ويقـوم العمـال بتوصيلهـا بوساطـة دراجات ناريـة مثبَّت خلفها صنـدوق محكم الإغلاق وجدرانـه الداخلية من ورق القصـب، ما يساعد على حفـظ الطعام ساخنًـا، ويتمُّ دفـع الفاتـورة مباشرةً نقـدًا، ومنذ عام ٢٠٢٢ صار بالإمكان الدفع إلكترونيًا من خلال برامج رقميـة تربط بين المطعم والمصرف، لمن يرغب بذلك.

ـ ثالثًا: الانطلاق من البيوت إلى النزهات والسيارين:

مـع أنَّ الدمشقيين قـد اعتادوا تنـاول الطعام في البيـت أو المحـل، إلا أنَّهم كانـوا يغـادرون بيوتهم في العطلات، إمَّـا أفراد عائلة واحدة بكاملها، أو اجتماع عـدة عائـلات بعضها مـع بعضٍ، أو عـدة أصدقاء، ووجهتهـم المفضَّلة كانت ضفاف نهر بردى، الذي كان رقراقًا غزير الماء وليس كما هو الآن ساقية ماءٍ ملوَّث،

أحد مطاعم دمشق القديمة

بدءًا من منطقة جسر فكتوريا، مرورًا بالمنشية وكيوان والربوة وصدر الباز، وصولًا إلى الشادروان، وتكرَّس هذا الأمر مع افتتاح معرض دمشق الدولي عام ١٩٥٤ على الضفة الجنوبية لنهر بردى، وأصبح يقام سنويًا في أواخر الصيف، أو يتوجَّهون إلى أيِّ مكانٍ فيه بساتين، مثل منطقة «الطُوَيْلة» غربي كورنيش الميدان، وكانت هذه المنطقة المزدحمة بالأبنية حاليًا بساتين في وقتٍ مضى، أو بستان التش في منطقة بستان البختيار حاليًا، أو عين الكرش في منطقة ساحة السبع بحرات حاليًا، لقضاء يوم العطلة في أحضان الطبيعة، تطبيقًا للمثل القائل: «أحسن دوا شمِّ الهوا»، أو استجابةً للنصيحة الطبية: «ألق نفسك في أحضان الأم الرؤوم على الأقل يومًا في الأسبوع»، وكانوا يأخذون طعامهم جاهزًا، وفي وقتٍ لاحق صاروا يطبخونه في مكان النزهة مع تقدُّم وسائل الطبخ، ويجلسون على حصيرة أو بساط يمدُّونها تحت ظلِّ شجرةٍ كبيرة، وفي وقتٍ أحدث صاروا يجلسون على المقاعد الخشبية التي وضعتها المحافظة على ضفة بردى، أو يصطحبون معهم طاولة وكراسي قابلة للطي ووضعها في السيارة، وقد نزلت إلى الأسواق بأشكالٍ ونماذج مختلفة، والشيء الذي لا بُدَّ منه هو عدة الشاي والقهوة والأركيلة، ناهيك عن ألعاب التسلية مثل الشطرنج وطاولة الزهر (النرد) والبرجيس والشَّدَّة (ورق اللعب)، وبعضهم كان يحمل عدة أنواعٍ من الفواكه الكبيرة الحجم كالبطيخ والقاوون، ليس بغرض أكلها، وإنَّما للتمتُّع والرواق بالنظر إليها مصفوفةً بعضها فوق بعضٍ. كانوا أولًا يذهبون سيرًا على الأقدام، ومن هنا أتى اسم هذه النزهة: «سيران»، أو في العربات التي تجرُّها الأحصنة، وأخيرًا في السيارات، والطرطيرات (العربات ثلاثية العجلات بمحرِّك) والهوندیات (سيارات النقل الصغيرة)، وأحدث وسيلة كانت الاتفاق مع ميكروباص لنقلهم ذهابًا وإيابًا.

وبعد أن اندثرت هذه الأماكن المفضَّلة للسيارين والنزهات بحكم التوسُّع العمراني، أو اضمحلال نهر بردى، أصبح الدمشقيون الميسورون يتوجَّهون بسياراتهم نحو غربي دمشق، حيث مصايف الزبداني وبقين وبلودان التي اكتظَّت بالمطاعم والمقاهي، ومن حمل في سيارته كراسي وطاولة مطوية يجلس على جوانب الأودية والطرقات متمتِّعًا بجمال الطبيعة والجو المنعش وتناول طعامٍ فاخرٍ يُعَدُّ بالبيت ويجري تسخينه هنا.

أمَّا الدمشقيون الأقل دخلًا، فقد أصبحوا يتوجَّهون نحو التقاطعات المرورية مثل دوار المطار والمتحلِّق الجنوبي، أو يذهبون إلى حديقة تشرين القريبة من ساحة الأمويين، أو حديقة المنشية المطلة على شارع الرئيس شكري القوتلي، ومن ينظر إلى هذه الأماكن في هذه الأيام خلال مساءات الصيف، وبشكلٍ خاص في أيام الجمع، يشاهد عشرات العائلات وقد افترشت المرج الأخضر وانهمكت في إعداد الطعام وتناول طعامٍ فاخر.

ـ التطوُّر الأهم: ظهور المطاعم:

لم يكن الدمشقيون يأكلون إلا في بيوتهم أو محلاتهم، ولا يأكل خارج البيت إلا الغرباء، ولم يكن يوجد بدمشق في النصف الأول من القرن العشرين مطاعم بالشكل الذي نراه اليوم سوى «مطعم أسدية وسمَّان» في سوق الحميدية، ولكن كانت هناك مطاعم صغيرة يأكل الناس فيها وقوفًا، ولا تقدِّم إلا الشواء أو الشاورما أو الصفيحة. وكانت بعض معامل الحلويات تقدِّم بعض الطعام الموصَّى عليه لتناوله في المناسبات، ولا يتعدَّى أنواعًا محدودة أهمها «الأوزي» الذي يُقَدَّم في مناسبات الوفيات، وكان من أشهرها «مطعم الأمراء» في مدخل سوق الحميدية، ثم انتقل بعد هدم سوق الخجا في الثمانينيات إلى أول شارع مسلم البارودي قرب محطة الحجاز، و«مطعم أبو حرب» في باب البريد قرب الجامع الأموي، و«مطعم الزين» في سوق مدحت باشا، ولم يكن في أيٍّ منها مكان لتناول الطعام، غير أنَّ «مطعم الصدِّيق» الذي افتتح مطلع القرن العشرين في بهو بناء العابد بساحة المرجة، ضمَّ عدة طاولات وكراسٍ، ويقدِّم وجبة كاملة من الشاورما وقرص كبة مقلية وخمس قطع من القطايف العصافيري ورغيف خبز، وما يزال موجودًا، ولكنَّه توسَّع بإضافة المحلِّ المواجه له، كما أنَّ قائمة طعامه ازدادت وتنوَّعت.

وكانت هناك محلاتٌ صغيرة تقدِّم الرؤوس والمقادم والكروش بشكل سندويش، كما كان يوجد في سوق العتيق محلات وبسطات تقدِّم «الغالينا»، وهي

خليطٌ من بقايا اللحوم مقلية مع البهارات، ومن هنا أتى اسمها، وكان يُقبل عليها بشكل خاص القرويون يجذبهم إليها نداءات الباعة «غالينا يا ولد»، والسودا (الكبد) والحمراء (الرئتين) والطحال، وهذه تشوَّى على مناقل فحم، وكان الزبائن يأكلون وهم وقوفٌ، في حين تلفُّ السوق رائحة الشواء والدخان المتصاعد من المناقل. كما كان يوجد مطعم اشتهر بلقب «صلِّح» للفول المدمَّس، إذ يصلِّح الصحن أكثر من مرَّة حتى الإشباع، وذلك بإضافة كمية بسيطة على الصحن الأصلي الفارغ، وانتقل هذا المطعم إلى سوق الهال المجاور بعد هدم سوق العتيق، وما يزال يعمل بالأسلوب نفسه، وحتى الآن ما يزال يُعرف باسم صاحبه الأصلي مجيد.

ومنذ الثلاثينيات بدأت المطاعم بالظهور في شارع السنجقدار، وكان أولها مطعم سحلول، الذي ما يزال موجودًا حتى الآن، ومطعم الإدلبي ومطعم العربي، كما بدأت بالظهور في شارع ٢٩ أيار، ومنها مطعم الريس في ساحة المحافظة، ومطعم أبو كمال، وهذه

المطاعم تقدم المآكل الشامية، ومنذ الأربعينيات بدأت المطاعم التي تقدِّم طعامًا غربيًا بالظهور، وكان من أولها مطعم سقراط في شارع فؤاد الأول (بور سعيد فيما بعد) بعد جسر فكتوريا، ثم مطعم لوازيس (أي الواحة) قرب مقهى الهافانا، ثم مطعم الفاندوم في غربي شارع أبو رمانة، ما يُعرف الآن بساحة المطاعم، وتتالى افتتاح المطاعم في أماكن وأحياء دمشق المختلفة وخارجها، وشملت عدة أنواع حسب المساحة ونوعية الطعام:

١ ـ مطاعم صغيرة المساحة:

وتختلف الأطعمة التي تقدِّمها:

ـ فبعضها يقدِّم سندويشات لحوم صغيرة، ومنها مطعم فيتامين في زاوية سينما الزهراء أول طريق الصالحية، استمر بالعمل في الستينيات والسبعينيات، ثم تحوَّل لبيع الملابس الجاهزة.

ـ وبعضها الآخر يقدِّم الفلافل، مثل محل فابيان مقابل المشفى الإيطالي وسط طريق الصالحية، وبدأ في أوائل السبعينيات، ومطعم المصري الذي كان في منطقة البحصة قبل هدمها في الستينيات، وانتقل إلى محلٍّ جديدٍ في شارع بور سعيد، ومطعم فلافل على كيفك في منطقة جسر فيكتوريا.

ـ أو تبيع الشاورما، مثل مطعم أبو العبد في شارع ٢٩ أيار، وما يزال يعمل، ومطعم محطة الحجاز الذي زال بعد هدم المنطقة المجاورة لمحطة الحجاز عام ٢٠٢١ لإقامة مركز تجاري كبير.

ـ والأكثر انتشارًا هي المحلات التي تبيع الفراريج المشوية والبروستد، منها مطعم الوجبة السريعة في منطقة الشعلان.

ـ ثم أخذت المطاعم التي تبيع البيتزا والصفيحة والمعجَّنات كالفطائر بالجبنة والمحمَّرة والسبانخ والزعتر بالانتشار سريعًا جدًا، ومنها مطعم «المعجنات الدمشقية» في ساحة الحجاز.

ـ ومنذ مطلع القرن الحالي أخذت بعض المطاعم

ذات الشهرة العالمية مثل «كنتاكي فرايد تشيكن» و«بيتزا هت» و«سبواي» و«ماكدونالد» بالانتشار، ولكنها لم تستمر طويلًا، وأغلقت الواحدة تلو الأخرى، ربما لأنَّ أسعارها أعلى من مثيلاتها المحلية. كما انتشرت المطاعم المتخصِّصة بأطعمة شديدة المحلية مثل المطعم المكسيكي والياباني والصيني واللبناني والتركي.

٢ ـ مطاعم متوسطة المساحة:

وهذه تقدِّم الفتات وأنواعًا من اللحوم والمأكولات الشامية، وتشغل محلات صغيرة أو وجائب بعض الأبنية، ومنها مطاعم مروش والشاميات وست الشام في منطقة أبو رمانة، والريان والصحي في شارع العابد، والفاروق في غربي المالكي.

٣ ـ مطاعم كبيرة المساحة:

وهي مطاعم جُهِّزت في الأصل لتكون مطعمًا تقدَّم فيها مأكولات شرقية أو غربية أو كلتاهما، ومنها مطعم أبو كمال في منتصف شارع ٢٩ أيار، وكان يملكه شريكان، ثم انفصلا، وغيَّر الشريك الأول اسم المطعم إلى الكمال، في حين افتتح الآخر مطعمين في البناء المواجه لمبنى محافظة دمشق، الأول في قبو البناء باسم علي بابا، والثاني في الطابق الأول بالمبنى نفسه واسمه مطعم أبو كمال.

ومن هذه المطاعم أيضًا فرساي وتوليدو قرب حديقة الجاحظ، ومطعم أحلى طلة في حي المنارة بمنطقة برزة، ومطعم المهر في الشام الجديدة (مشروع دمر).

٤ ـ مطاعم كبيرة المساحة جدًا:

وأولها «نادي الشرق» في ساحة النجمة، الذي افتتح مطلع الخمسينيات، وفيه تقام الحفلات الكبيرة والولائم الفخمة، وكان وجهةً مفضَّلة لرجال السياسة ووجهاء المجتمع، وتغيَّرت ملكيته في العقد الثاني من القرن الحالي وهُدِمَ، ويقام مكانه حاليًا (٢٠٢٢) ما يُقال عنه إنَّه أضخم مطاعم دمشق وأفخمها. وثانيها مطعم قصر النبلاء، الذي افتتح في الستينيات في المكان الذي يشغله حاليًا فندق الفصول الأربعة (فور سيزونز) المطلُّ على شارع الرئيس شكري القوتلي، وتحوَّل فيما بعد إلى كازينو دمشق الدولي، الذي كان يقدم إلى جانب الطعام حفلات غنائية، ثم هُدِم بكامله مطلع القرن الحالي وأُنشئ بدلًا منه فندق الفصول الأربعة، في حين انتقل الكازينو بالاسم نفسه إلى منطقة المعرض الواقعة خلف دار الأسد للثقافة والفنون (أوبرا دمشق)، ثم تحوَّل إلى مطعم فخم باسم: «مطعم قصر النبلاء» الذي أُغلق بسبب تداعيات الأزمة السورية عام ٢٠١١. ومن المقرَّر أن يفتتح مطعمٌ فخم في أوبرا دمشق، إذ إنَّ تجهيزاته الحديثة جاهزة، ولكنَّه بانتظار الاستثمار المناسب.

٥ ـ مطاعم في محيط دمشق:

قد يكون «مطعم أبو شفيق» في منطقة الربوة غرب دمشق أول مطعم يُفتتح خارج المدينة في الخمسينيات، وما يزال يعمل، يقع في يمين الطريق المؤدِّي إلى دمر، ويشغل فسحةً بين نهري تورا ويزيد، ويُصعد إليه بدرج حجري، وهو يقدِّم الطعام الجاهز، ويسمح للزبائن بإحضار طعامهم مقابل أجرٍ محدود، وتقام فيه عزايم ودعوات كبيرة، إذ يستمتع الجميع بجمال المناظر المحيطة به وسماع خرير الماء المتدفق عبر شلالات من نهر يزيد إلى نهر تورا. وبجانبه اشتهر مطعمٌ آخر باسم أبو دراع.

وتتابع افتتاح المطاعم في هذه المنطقة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: مطعم الوادي الأخضر في أول طريق الربوة، ومطعم أبو وحيد درويشة، ومطعم الفردوس بين الربوة ودمر، ولكنَّه مغلق الآن، وبجانبه مطعم القصر، والمقصود بالقصر هو قصر خالد العظم أحد رجالات دمشق المشهورين، وحوَّله مستثمروه من آل تللو إلى مطعم فخم في أوائل الستينيات، وكان يحظى بشهرة كبيرة، ثم انتقل الاستثمار إلى آخرين مع تغيير الاسم، واسمه

الحـالي: «مطعـم فلامينغـو». مطعـم المنشيـة في حديقـة بلدية دمـر على ضفة نهر بـردى، الذي يقدم الطعـام الجاهز، ويُسمح للزبائـن بإحضار طعامهم، وتوقّف عن العمل مطلـع الستينيات. ومقابله كان يقع مطعـم قصـر شمعايا الذي لم يعمّر طويـلاً وأغلق في الخمسينيـات، ومطعم البيروتي على ضفة نهر بردى. مطعـم إشبيليـة في مدخل دمـر. مطعـم الواحة بعد الهامـة، ولكنه لم يعمر طويـلاً. مطعم نبع العراد بعد الهامـة أيضًا. مطعـم الأسطورة قـرب جسر الهامة. وامتـدت المطاعـم إلى أبعـد مـن ذلـك نحـو طريـق الزبداني في منطقـة الديماس، ومنها مجمَّع صحارى الـذي يضمُّ عـدة مطاعم، مطعم نـادي الرماية. كما تأسَّست عدة مطاعم في بلدتي الصبورة ويعفور، منها المطعم السويسري ومنتجع النخيل.

كمـا امتدت المطاعم على طـرفي وادي بردى بدايةً من بلدة جديـدة الشيباني، وصـولًا إلى بلدات بسِّيمة وعـين الخضراء وعـين الفيجـة، وكلها تشهـد إقبالًا، ويشهـد الطريـق الوحيـد الضِّيـق الرابط بـين بلدات الوادي ازدحامًا شديـدًا واختناقات مرورية، ولا سيَّما في صيف أيام الجمع والأعياد. ولكنَّ أغلب هذه المطاعم متوقِّفة عن العمل حاليًا جراء الأزمة السورية.

غـير أنَّ أصابـع الاتهـام توجَّه إلى هـذه المطاعم الممتدة على ضفَّتي نهر بردى بتلويثه، بسبب التخلص مـن مخلفاتها فيـه دون معالجـة، ومـع أنَّ السلطات المختصة تسعـى لإيجاد الحلول لهـذه المشكلة البيئية الكبرى، إلا أنَّ كل المشاريع التي وُضِعَت تواجه صعوبة بتنفيذها على أرض الواقع.

وكان يوجد بدمشـق منذ أواخر الأربعينيات مطار المزَّة، ويتبعه حديقة كانت تُستخدم صيفًا مطعمًا يقدِّم الطعام والحفلات الموسيقيـة، ولكنَّه توقَّف عن العمل بعد انتقـال المطار إلى موقعه الجديد في السبعينيات، وترافـق ذلـك مع افتتاح فنـدق مطار دمشـق الدولي قريبًا منه، ويضمُّ مطعمًا، ولكنَّ الفندق والمطعم توقّفا عن العمل فيما بعد.

وبالانتقـال إلى طريق مطـار دمشق الدولي، الذي يخـترق غوطة دمشـق الجنوبية لمسافـة تزيد على ٢٠ كم، بدءًا من سـور دمشق الجنوبي وحتى المطار، فقد امتدت على طرفيـه منذ افتتاحه المطاعم والمتنزَّهات بشـكلٍ لا نظـير لـه، وكان أولهـا مطعـم الخيمة عند الجسـر الثـاني، وكان اسمًـا علـى مسمًّـى، فقد كان خيمـة كبـيرة وليـس بنـاءً، ليتتـالى افتتـاح المطاعم في السنـوات اللاحقـة، ومنهـا مطعـم الريـان علـى

يسار طريق المطار عند الجسر الخامس، ومطعم السيران، ومطعم القرية، وعلى يمين الطريق ظهر مجمَّع الأرض السعيدة، ويضمُّ عدة مطاعم ومسبحًا ومدينة مَلاهٍ وشاليهات، وقرب أرض المعارض ظهر مطعم دمشق العائلي، وكلها تشغل أراضي واسعة، وتتَّسع لمئات الأشخاص، وفيها قسمان صيفي وشتوي، وبجانبها ظهرت محلاتٌ تبيع موادَّ استهلاكية كثيرة حاجة المتنزهين، وتتباهى المطاعم بحدائقها الجميلة التي تتخلَّلها بحرات يتدفَّق الماء من إحداها إلى ثانية وثالثة، مطلقًا خريرًا ذا نغمات شجية تُطرب الزبائن الذين يحيطون بطاولات طعام تلتف بدورها حول البحرات، ويرافق ذلك موسيقا تنبعث من مكبَّرات صوت موزَّعة في جنبات المطعم، وبين الصوتين تُسمع أصوات الزبائن والعمال وهم يسجِّلون طلبات الطعام، الذي غالبًا ما يكون الصحن الرئيسي فيه مشاوي شقف وكباب، أو فروج بروستد.

غير أنَّ التطوُّر الأبرز على صعيد انتشار المطاعم على طريق المطار، هو افتتاح «مطعم بوابة دمشق» عام ٢٠٠٥، بإدارة آل السمَّان، على يسار الجسر الخامس قرب قرية حتيتة التركمان، الذي دخل عام ٢٠٠٨ في موسوعة غينيس للأرقام القياسية أكبر مطعم في العالم يستطيع تقديم الطعام لأكثر من ستة آلاف شخص في وقت واحد، وما يزال محافظًا على مركزه.

ولا شكَّ أنَّ اكتظاظ هذه المطاعم بالزبائن، ولا سيما في أيام العطل الرسمية، وبشكل أخص في ليالي الصيف، هو ما يؤدِّي إلى ازدحام شديد وإرباك للحركة المرورية، ومن يراقب حركة السيارات ذهابًا وإيابًا عند دوار البيطرة بداية طريق المطار، يؤكِّد أنَّ كلَّ الدمشقيين قد سافروا نهارًا وعادوا ليلًا.

غير أنَّ الأزمة التي تعصف بالبلاد منذ عام ٢٠١١، وكانت أراضي الغوطة إحدى بؤرها الساخنة، قد أدَّت إلى توقُّف هذه المطاعم عن العمل، لتعود وتزاول مهنتها جزئيًا أو كليًّا منذ عام ٢٠١٧ مع بدء الانفراج وعودة الهدوء إلى معظم أراضي البلاد.

وبوقتٍ متزامن مع افتتاح المطاعم على طريق مطار دمشق الدولي، بدأ انتشارها على طريق بلدتي برزة والقابون شمالي دمشق، وصولًا إلى مدينة التل وما بعدها بلدتي منين وصيدنايا، غير أنَّ ما يميِّز هذه المطاعم هو أنَّها تقدِّم حفلاتٍ موسيقية إلى جانب الطعام.

غير أنَّ ما سبق افتتاح المطاعم الآنفة الذِكر، هو انتشار المطاعم الشعبية وقعدات السيران على طريق غوطة دمشق الشرقية، ابتداءً من دوار الشيخ رسلان قرب الباب الشرقي، مرورًا ببلدتي المليحة وبالة، وصولًا إلى بلدتي مرج السلطان والنشَّابية، بمسافة تصل إلى ٢٠ كم، ومع أنَّ هذا الطريق كان يشهد ازدحامًا شديدًا على مدار العام، كان ذلك يظهر بشكلٍ خاص مطلع الربيع حين تبدأ الأشجار بالإزهار، ويطلق الدمشقيون على هذا الوقت من العام «وقت الزهر»، وفيه تتسابق مختلف وسائل النقل الفردية والجماعية على نقل المتنزهين إلى الحقول والبساتين، التي كان يخصِّص أصحابها أماكن خاصة لتناول الطعام الذي يحضره المتنزهون معهم، مع ما يرافق ذلك من خدمات ضرورية لقاء أجورٍ رمزية، مع اشتراطهم بعدم قطف الزهور أو الثمار، أو إلى المطاعم الشعبية، التي كانت أسعارها بمقاييس ذاك الوقت معتدلة وفي متناول يد معظم الدمشقيين.

غير أنَّ هذا الحال قد تبدَّل جذريًا منذ أن بدأ التوسُّع العمراني في غوطة دمشق في الخمسينيات نتيجة الازدياد السكاني، فبعد أن كانت أغصان الأشجار المليئة بالأزهار والثمار تتدلَّى فوق الطريق، حاجبةً ضوء الشمس كليًا أو جزئيًا من الوصول إليه، بدأ قطع الأشجار وشقّ الطرقات وتشييد المعامل والمصانع والمباني الإسمنتية، ممَّا أفقده رونقه وبهاءه، وازداد الأمر سوءًا وتفاقم بعد افتتاح مطاعم طريق مطار دمشق الدولي وميل الدمشقيين نحوها،

ثم أتت الضربة القاضية بعد الأزمة التي تضرب البلاد منذ عام ٢٠١١، وما رافقها من تدميرٍ للبنى التحتية ومقوِّمات الحياة.

٦ ـ مطاعم الفنادق:

نشأت بدمشق منذ الثلاثينيات والأربعينيات فنادق كثيرة مختلفة الدرجات، وكان أولها فندق الشرق، الذي اشتهر باسمه الغربي «أوريان بالاس»، مقابل محطة الحجاز للقطارات، وكان ملتقى لكبار رجال السياسة والمجتمع، ثم فندق أمية في ساحة المرجة، الذي أصبح اسمه فيما بعد فندق عمر الخيَّام، وبني فندقٌ آخر بالاسم نفسه خلف ثانوية جودة الهاشمي، وفندق سمير أميس في ساحة فيكتوريا (قيد الترميم الآن). كما نشأت فنادق أخرى كثيرة وسط أحياء دمشق التجارية مثل الحريقة والسنجقدار والمرجة، وشوارع ٢٩ أيار والصالحية والنصر. ومنذ السبعينيات، ومع توجُّه الدولة السورية نحو تشجيع السياحة، افتتحت عدة فنادق فخمة، كان أولها فندق الميرديان في شارع الرئيس شكري القوتلي، الذي صار اسمه فيما بعد ديدمان، ثم داما روز، وفندق الشيراتون في ساحة الأمويين، وفندق الشام في أول طريق الصالحية، وفندق إيبلا على طريق مطار دمشق الدولي، وكان آخرها مطلع القرن الحالي فندق الفصول الأربعة، الذي يشتهر باسمه الغربي «فور سيزونز»، وأحدثها هو فندق «غولدن المزَّة» في أوتوستراد المزَّة الذي افتتح عام ٢٠٢٢. كما ظهرت في هذه الفترة فنادق أقل درجةً: منها «بلو تاورز» في شارع الحمراء، «أرميتاج» في ساحة عرنوس، «قصر القيصر» في أول طريق الصالحية، «أرمادا» في ساحة السبع بحرات، «أوروبا» في الحلبوني. وفي كلٍّ هذه الفنادق توجد مطاعم فخمة تقدِّم الطعام للنزلاء، ويقصدها الناس من خارجها لتناول الطعام فيها، ويقيمون حفلاتهم ومناسباتهم فيها، ومنها ما بات يُعرف بـ: «صبحية نسوان»، إذ تجتمع عدة نساء صديقات، ويتناولن فطورًا مشتركًا ويتبادلن الأحاديث على أنغام الموسيقا، ويكون الدفع بالتساوي، أو تتكفَّل إحداهنَّ بدفع الفاتورة كاملةً نوعًا من تعميق الصداقة بينهنَّ، في حين تعتمد الفنادق الصغيرة على إحضار الطعام للنزلاء من المطاعم المجاورة.

٧ ـ مطاعم الطلبات الخارجية:

والاسم الأكثر شيوعًا لهذه المطاعم هو: «مطبخ وحلويات»، ويتمَّ فيها إعداد الطعام، ثم نقله إلى مكان المناسبة، إذ يُجَهَّزُ المكان لاستقبال المدعوين وتقديم الطعام لهم، ومن الأسماء التي اشتهرت في هذا المجال «مطبخ وحلويات داوود إخوان في حي

الميـدان ــ جزماتية»، «بـوز الجـدي» في الشيخ محيي الديـن، «الوسام» في حي القصـور، مهنا والفيصل في أوتوستراد المزة.

كما اشتهـرت بعض المطاعم بإعداد وجبةٍ غذائية كاملـة، غالبًا ما يكـون الفروج البروستـد هو الطعام الرئيسي فيهـا، وتُعـرف أيضًا باسـم: «لانش بوكس» ويأخذهـا الشخص معه لتناولها في بيته أو مكان عمله أو متنزَّهـه، أو تقدَّم ضيافـةً للمجتمعين في المؤتمرات العلميـة والثقافية، أو للمدعوين المجتمعين في مناسبة عائليـة أو اجتماعيـة، ومـن المطاعـم التـي اشتهرت بتقديم الطعام بهـذا الأسلوب هو «فروج الزين» الذي لـه عدة فـروع في أحياء دمشق المختلفـة، و«دجاجتي» الـذي له عدة فـروع في دمشـق أيضًا، ومنهـا فرعٌ في مجمَّـع يلبغا بساحة المرجـة، وكان أول محلٍ يُفتتح في هذا المجمَّع عام ٢٠٢٠، و«الركن الفرنسي» في منطقة الجسر الأبيض.

٨ ـ مطاعم دمشق القديمة:

بدأت بالظهور مطلـع السبعينيات مع توجُّه الدولة السورية نحو السياحة، إذ سُمِحَ بتحويل البيوت العربية في دمشق القديمة إلى فنادق ومقاهٍ ومطاعم، وتزايدت مع الأيام حتى بلغت العشرات، وتركَّز معظمها في حي القيمريـة، وكان أولها مطعم أبو العـز في باب البريد قرب الجامع الأموي، وكانت تشهـد إقبالًا شديدًا، إلا أنَّ أعمالها بدأت بالتقلُّص منذ بداية الأزمة في سورية عام ٢٠١١، بسبب تراجع أعداد السياح القادمين إلى سوريـة، ولكنها بـدأت بالتعـافي التدريجـي مع عودة الأمن والأمان إلى معظم أنحاء البلاد.

٩ ـ مطاعم المولات:

لم تكن«المـولات» جمع «مول»، وهـي كلمة إنكليزية الأصل معناها «مجمَّع تجـاري يبيع كلَّ شيءٍ» معروفة بدمشـق حتى أواخر القرن الماضـي، فهي تضمُّ سوبر ماركت للمواد الغذائية ومحلاتٍ عديدةً وصالة ألعاب إلكترونيـة، ومـا يهمُّنـا هنا ــ في سياق هـذه المقالة ـ عـدة مطاعم، وكان أول مولٍ افتتـح بدمشق وفق هذه المعايـير هو: «مجمَّع سيتي مـول» في منطقة المزة عام ٢٠٠٠، ورافقتـه حملةٌ إعلانية كبـيرة عنوانها: «صار عنَّـا مول». وتَبِـعَ ذلك افتتاح «مول سيتـي سنتر» عام ٢٠٠٤ على أوتوستراد درعا، الذي رافقته حملةٌ دعائية واسعة عنوانهـا: «مفهومٌ آخر للتسـوُّق». وتلاه افتتاح «أسـواق الخير» قـرب بلدة عين ترمـا بغوطة دمشق، الذي جرى تصميمـه على شكل حاراتٍ تشبه الأسواق التقليديـة، وسُمِّيَـتْ كلُّ حـارة باسـمِ إحـدى الورود

شام سيتي سنتر وفيه عدة مطاعم

أحد مطاعم مول نيو قاسيون

الدمشقية، ورافقته حملة إعلانية ضخمة عنوانها: «سواق الخير كلها خير». وفي عام ٢٠٠٦ افتتح «مول شام سيتي سنتر» في منطقة تنظيم كفرسوسة، وفي عام ٢٠٠٩ افتتح بجواره «مول دامسكينو»، اللذان رافقتهما حملةٌ إعلانية لا مثيل لها: «إذا ما رحت راحت عليك»، كنايةً عن دعوة صارخة لزيارتهما وإلا فاتك شيء مهم لا يُعوَّض. كما ظهر في المدّة نفسها «مول الماسة بلازا» في منطقة غربي المالكي، و«مول الماسة» غربي حي الميدان، «مول المزة» على أوتوستراد المزة، و«مول نيو قاسيون» في منطقة مساكن برزة، الذي افتتح بحلّته الحالية عام ٢٠١٨، ورافقته حملة إعلانية كبرى عنوانها: «أكثر من مول بكثير»، ويضمُّ أكثر من عشرة مطاعم تشهد ازدحامًا بشكلٍ دائم، وما زالت فيه محلات للمزيد منها.

ومن المقرَّر افتتاح المزيد من المولات التي يجري تجهيزها حاليًا، ومنها: مول برزة في منطقة حي المنارة (مساكن برزة مسبق الصنع)، مول موفنبيك في تنظيم كفرسوسة، مول السلام في أرض المعارض على طريق مطار دمشق الدولي.

يُشار إلى أنَّ الطعام الذي يقدَّم في كلِّ المطاعم الفخمة، يصل إلى المائدة ساخنًا، وللمحافظة على سخونته حتى يحين وقت تناوله، يوضع تحت الصحن الرئيسي موقد غاز أو كهربائي أو فحم، فلا يطيب الطعام إلا ساخنًا.

ختامًا أقول: اختلفت طرائق تقديم الطعام وتناوله كثيرًا بين القرنين العشرين والحادي والعشرين كما قرأنا، وإذا كان أهلنا السابقون قد استمتعوا بطرائق تقديم الطعام وتناوله في أيامهم، فإنَّ أبناء اليوم يستمتعون بما هو متوافر اليوم، ولو قُدِّرَ للطرفين أن يتبادلا الأدوار، لحصلت المتعة نفسها، مصداقًا لقول الله عزَّ وجل في كتابه الكريم: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٧٢).

ـ المراجع:

ـ زقاقيات دمشقية، سعاد جروس، دار رياض الريس للنشر والتوزيع بلندن، ٢٠١٠.

ـ دمشق في ثمانين عامًا، الدكتور إبراهيم حقي، دار الفكر للنشر والتوزيع بدمشق، ٢٠١٧.

ـ دمشق رجال وأحداث وأماكن وصور، الدكتورة عزة آقبيق، دار العرَّاب للنشر والتوزيع بدمشق، ٢٠١٩.

الجاهة في مدينة الرحيبة

د. حسان عبد الحقّ

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (آل عمران، الآية: ٤٥). تشير الآية الكريمة إلى مكانة عيسى ابن مريم في الدنيا، إذْ كان وجيهًا بين الناس، وبحسب الطبري كلمة وجيهًا تعني ذا وَجْه ومنزلة عالية عند الله، وشرف وكرامة. ومنه يقال للرجل الذي يَشرُف وتعظمه الملوك والناس: وجيه. ونستنتج من ذلك أن الوجيه هو شخص مميز بين الناس، وله مكانة مرموقة بينهم. وما كان له أن يبلغ هذه المكانة لولا اتصافه بصفات تؤهله لذلك، كالذكاء، والصبر، والقدرة على الحوار، والإقناع، وليونة الطبع، وحب الآخرين له، والأمانة، وحُسن التصرف. ويستخدم أهل الرحيبة كلمات تشير إلى الوجيه، كأن يقولون: فلان من عيون الناس، أو من الوجوه. وبحسب ثقافة المجتمعات الشرقية، التي لا زالت تحتكم إلى رأي الوجهاء، يُصنف الوجيه مع العقلاء، وعِلْيَة القوم، الذين يجدون الحلول لكل المشاكل، التي تعترض قراهم الصغيرة، أو مدنهم الكبيرة، سواء تلك التي تحدث داخل البلدة الواحدة بين الناس، أم التي تحدث بينها وبين بلدة أخرى تجاورها، أو تبعد عنها. ويمكن وصف

الوجهاء بالزعماء الشعبيين للمجتمع، ولم تظهر هذه الزعامة لولا الحاجة الماسة إليها، ولا سيما في المجتمعات الريفية النائية، التي كانت تعاني قلةَ تأثير مؤسسات الدولة، ففي هذه الحالة كان لزامًا على المجتمع فرز فئة من الرجال تُسير أمور الناس، فمثلًا عند حدوث مشكلة بين طرفين يستطيع الوجهاء حلها من دون أن تتطور، وتصبح بحاجة إلى حل على يدي الجهات المختصة في الدولة.

وعلى الرغم من تمثيل الدولة الواسع في المدن، والقرى، لا زالت الجاهة تحتفظ بقيمتها، وبوظيفتها، ولا يمكن الاستغناء عنها، فهي الداعم والمساند لعمل الدولة، ومن الأمثلة على ذلك لجان المصالحة التي ظهرت خلال الأزمة السورية، وتتكون هذه اللجان من وجهاء يمثلون القرى والمدن التي ينتمون إليها، وكانت لهذه اللجان أيادٍ بيضاء في رد فئة واسعة من الشباب إلى جادة الصواب.

وعلى غرار كل المجتمعات السورية، أو الشرقية الأخرى، عرفت مدينة الرحيبة نظام الوجهاء، الذين يعود الفضل إليهم في فض كثير من المنازعات، وإيجاد حلول للمشاكل المستعصية، التي حدثت بين الناس، وعندما يلتقي الوجهاء بعضهم بعضًا، وينوون الذهاب إلى مكان ما لحل أيّ مشكلة، أو للمشاركة في مناسبة اجتماعية ما كمرافقة شاب إلى بيت عروسه أثناء عقد قرانه عليها، يُطلق عليهم اسم جاهة، والجاهة هي قوة اجتماعية ذات تأثير كبير في الرحيبة، والسبب في ذلك التزام أهل البلدة بعادات وتقاليد وأعراف اجتماعية تمثل جزءًا من حياتهم وثقافتهم، وتعمل الجاهة حسب هذه التقاليد، ولا يمكن لأحد أن يتملص منها، لأن مخالفتها تعدُّ عيبًا، ولكي يتجنب المرء انتقادات الناس يلتزم رأيَ الجاهة، وبذلك تمارس الجاهة سلطتها، وتحقق أهدافها كقوة اجتماعية تعمل لصالح كل أفراد المجتمع دون تمييز. وتتكون الجاهة من أشخاص يختلف بعضهم عن بعض في العمر والمهنة، إذْ تضم المخاتير، والمثقفين (جامعيون وأساتذة جامعيون)، وخطباء وأئمة المساجد، وموظفين، وأشخاصًا لديهم مهارات اجتماعية عالية كالقدرة على التواصل مع الآخرين، وجذبهم بحديثهم الشائق، ويمتاز هؤلاء بأسلوبهم المسلي، الذي يُشعر الجالسين بالمجلس بالراحة، مما يساعد في حل المشكلة، التي جاءت الجاهة لتحلها. ولكي يقوي الوجيه حجته عند حل مشكلة ما تراه حافظًا لكثير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والشعر، والأمثال، وكثيرًا من قصص العرب، التي تحمل العبر، وكذلك قصص الأجداد، التي تتضمن مواقف تدل على التسامح، ونبذ الخلافات. وقد تضم الجاهة أشخاصًا في الخمسينيات والستينيات من العمر، وآخرين في الثمانينيات، وعلى الرغم من عدم التزام الجاهة بعمر محدد، تُعطى الأولوية للطاعنين بالسن في تَرَؤُّسها، وبالتكلم باسم الآخرين لخبرتهم الكبيرة في الحياة، واحترامًا لعمرهم، ومكانتهم بين الناس. ولا تلتزم الجاهة بعدد محدد من الرجال، الذين يمثلونها، ويرتبط عددها بأهمية المهمة، التي تُوكل إليها، فقد تتكون من رجلين كحد أدنى، ويتضاعف هذا العدد أكثر عند القيام بمهمة عامة تهم البلدة كزيارة إحدى مؤسسات الدولة لمقابلة المسؤولين بغية إيجاد حل لمشكلة تعاني منها البلدة، كمشكلة قلة مياه الشرب مثلًا، أو مشكلة الطرقات، التي تحتاج إلى تعبيد.

وكانت تشارك الجاهة في بعض المناسبات الاجتماعية كالخطبة، والزواج، فمن التقاليد الشائعة للخطبة إرسال أهل العريس جاهة إلى بيت أهل العروس لخطبة ابنتهم، ويكون ذلك بعد

تواصل مسبق بين أهل العريس وأهل العروس، ورؤية الشاب للفتاة في بيت أهلها، والحصول على موافقتها وموافقة أهلها. وتُعبر زيارة الجاهة لأهل العروس عن احترام وتقدير أهل العريس لهم، ولاسيما أن المشاركين في الزيارة هم من وجوه الناس، وتُعد جزءًا من تقاليد البلدة، وخلالها يطلب أهل العريس يد العروس رسميًا، وتتوكل الجاهة هذا الأمر، ويرد أهل العروس بالموافقة قائلين أعطيناكم إذا الله أعطاكم. وتتدخل الجاهة يوم الخطبة أيضًا، ففي هذا اليوم يدعو أهل العريس أقاربهم، وجيرانهم، وأصدقاءَهم للذهاب إلى بيت العروس لعقد قران العريس عليها، ويكون أحد خطباء المساجد على رأس المدعوين، ورأس الجاهة التي ترافق العريس، فهو الذي سيعقد قران العريس على العروس، أو ما يُعرف شعبيًا: سيكتب الكتاب (كتاب الشيخ). ولا تنحصر مهمة الشيخ بكتب الكتاب فحسب، بل تتعدى ذلك إلى حد طلب الإذن من أهل العروس للسماح للعريس بمغادرة المجلس والتوجه إلى المكان الذي تُصمد فيه العروس، ليُلبسها الذهب، ويستخدم الخطيب الدعابة بأخذ الإذن للعريس كأن يقول: نريد أن نأخذ الذهب من العريس، أي اسمحوا للعريس الذهاب إلى عروسه. وتتجذب الجاهة للإنسان الخلوق، فعند دعوتها لمرافقة عريس لإتمام خطوبته على فتاة، تجد أعضاءَها يوافقون بسرعة إذا كان من أصحاب الأخلاق الحسنة إكرامًا له، ولعائلته، وأما إذا كان سيِّئ الخُلق فيعتذرون على الأرجح. وتقوم الجاهة بنشاط آخر خلال الزفاف، ففي اليوم الثالث من الزفاف يتوجه وفد من أهل العريس إلى بيت العروس، ويصطحبون معهم الجاهة، ويتولى رأس الجاهة الكلام، ويطلب من أهل العروس السماح لأهل العريس باصطحاب العروس إلى بيت عريسها، ويستخدم المتحدث الكلمات الرقيقة، واللطيفة، التي تحمل كل معاني التقدير، والاحترام لأهل العروس.

وتشارك الجاهة الرحيبانية في مناسبة اجتماعية حزينة، ألا وهي الوفاة، فعند وفاة أحد الأشخاص في البلدة يتوجه الناس فرادى، أو على شكل جماعات إلى خيمة العزاء، وتمثل بعض الجماعات وجهاء البلدة، الذين يحاولون مواساة أهل الميت، والتخفيف عنهم بكلامهم الجميل، الذي لا يخلو من الآيات القرآنية، وقصص تحمل العبرة، وفي كثير من الأحيان يتولى أئمة وخطباء المساجد هذه المهمة. وتشارك الجاهة البلدات الأخرى أحزانها (معضمية، جيرود، الناصرية، ضمير، القطيفة، النبك، يبرود...إلخ)، وتزورها بغرض العزاء، ولا سيما إذا كان المتوفَّى من وجوه بلدته، وله قيمة كبيرة في نفوسهم، فمن المؤكد أن هذا الشخص كان يتواصل مع وجهاء الرحيبة، وشارك معهم في إيجاد حلول لبعض المشكلات، وتقديم العزاء لعائلته أصبح واجبًا على الوجهاء الذين يمثلون كل أهل البلدة. ومن عادة الوجهاء التعزية بوفاة أشخاص مهمين في المحافظات الأخرى، الذين ينقسمون إلى زعماء شعبيين، ومسؤولين في الدولة.

وفضلًا عن مشاركتها في المناسبات الاجتماعية، تتولى الجاهة أمر البحث عن حلول للمشكلات التي تقع بين الناس، وتتنوع المشكلات، وتتعدد أسبابها، ومنها فسخ الخطوبة، والطلاق، والخلاف بين الرجل وزوجته، والقتل بسبب خلاف بين طرفين طائشين، والموت بسبب الحوادث المرورية، والنزاعات بين المراهقين، التي ينتج عنها توتر وقطيعة بين عائلتين، أو أكثر، وقد تنشأ المشكلة بسبب الخلاف على عقار، أو على حدود بين أرضين

متجاورتين، أو بسبب الخلاف بين الورثة على الميراث. وللجاهة أسلوبها في حل هذه المشكلات، فعندما تتوجه إلى منزل الطرف المتضرر يحاول الوجهاء إرضاءَه بتعويضه ماديًا كي يتنازل عن حقه في الشكوى، التي تقدم بها إلى الجهة المختصة بالدولة، ويستخدمون عبارات نابعة من أعراف متأصلة في المجتمع كأن يقولون له: **يلي ما بينجبه للناس مانو من الناس.**

ولكي نتمكن من فهم عمل الجاهة، والجهد الذي تبذله سنقوم بطرح عدة نماذج للمشكلات التي استدعت تدخل الجاهة لحلها. في القرن التاسع عشر حدث خلاف بين أهل الرحيبة، وبين قبيلة المعجل، وتطور الخلاف إلى صدام بين الطرفين، مما أدى إلى مقتل شيخ القبيلة، ولم يُعرف القاتل، ففوض وجهاء البلدة وسيطًا بدويًا لحل المشكلة، يسمى نايف الجراح، وأثناء المفاوضات فُرض على الرحيبة دفع عشرين ألف قرش وتزويج إحدى بناتها لابن القتيل، وافق أهل الرحيبة على دفع مبلغ مالي يقدر ب أربعة وعشرين ألف قرش لا عشرين ألفًا، لكنهم رفضوا تزويج إحدى بناتهم لابن القتيل. ولحل هذه المشكلة، طلب الوجيه البدوي نايف الجراح من أهل الرحيبة دفع عشرين ألف قرش لأهل القتيل، وهو الذي يزوج ابنته لابن شيخ القبيلة، واسم هذه البنت مرة، وحينما عرض على أهل الرحيبة هذا الحل استعمل عبارة تدل على رجاحة عقله، وأنه من أهل النخوة، إذْ قال: أنا أزوجه أختكم مرة، ومنذ ذلك الوقت عُرف أهل الرحيبة بإخوة مرة. وكان نايف الجراح وفيًا لأهل الرحيبة، فقد عاش مع عائلته بينهم، وأكل من خيراتها، ودافع عنها ببندقيته عندما كانت تتعرض لغزوات البدو. ولولا وجود وجهاء عقلاء لما تمكن أهل البلدة آنذاك من حل هذه المشكلة، وهنا تكمن قوة الجاهة، ذات التأثير الاجتماعي الكبير، ويظهر هذا التأثير جليًا حين يأتمر الجميع بأمر الجاهة، التي تمثل كبراء الناس وأعيانهم. وكما لحظنا تَطلب حل المشكلة تدخل وسيط من خارج البلدة، وهذا الأمر تكرر كثيرًا، ومن أسبابه حساسية الموقف بين الطرفين، والرغبة في تخفيف حدة التوتر بينهما من خلال وسيط خارجي ليس طرفًا في المشكلة. وفي بعض الأحيان يتدخل الوسيط لحل مشكلة بين عائلتين من البلدة نفسها، والسبب عدم تمكن وجهاء البلدة من حلها، وعدم قبول الطرف المتضرر بأي حل، ورفضه التنازل عن حقه، ومطالبته بمعاقبة المذنب، وتنطبق هذه الحالة على خلاف بين طرفين بسب مقتل أحد أبناء طرف منهما، ولم يتنازل أهل القتيل عن حقهم إلا بعد تدخل أحد وجهاء حوران في حل هذه المشكلة. وكثيرًا ما كنا نسمع من الناس أن فلانًا أرسل إلى فلان كثيرًا من الوجهاء ليحل مشكلته معه، غير أن الطرف المتضرر كان يرفض التنازل عن حقه، وقبول التعويض المادي، وتبقى المشكلة معلقة حتى تهدأ النفوس، وتتدخل الجاهة من جديد في وقت لاحق، وتجد حلًا للمشكلة.

وجرت حادثة أخرى في عام ١٩٦٥ مع البدو شبيهة بالحادثة السابقة، وملخص الحادثة أن خلافات نشبت بين البدو، وبين رعاة الأغنام في الرحيبة عند ورود القطعان على عين ماء وادي القصب في إحدى براري الرحيبة، وأدى الخلاف إلى مقتل رجل بدوي من قبيلة الدرعان على يد رجل من الرحيبة يُدعى محمود إسماعيل شريدة، وحاول أهل القاتل البحث عن مخرج كيلا يتعرض البدو لأهل الرحيبة لأخذ الثأر، ولجأ والد القاتل إلى رجل من الرحيبة يُدعى علي الجاروف، لعلاقته الوطيدة ببدو الدغيم (قبيلة القتيل)، وفي عام

١٩٦٦ جـرى تشكيل جاهة مكونة مـن هذا الرجل، وحسين الجاروف (آل مهرة)، والحاج علي القحة، وحسـين سلمـى (أبـو وليـد)، وعثمـان الجاروف. واصطحبت الجاهة الرحيبانية جاهة أخرى معها، مكونـة من عدد من شيوخ البـدو للتوسط لدى شيخ قبيلـة القتيل، الـذي يُدعى بشير بـن دغمي. وبعد وصـول الجاهة بدأ الطرفان بالتفاوض حول الدية، وطلـب شيـخ القبيلة مـن عائلـة القاتل مئـة ناقة، فتدخلت الجاهتـان الرحيبانيـة والبدوية، وطالبتا شيـخ القبيلـة تخفيض عدد النـوق، فخفضها أكثر من مـرة حتى وصل عددهـا إلى عشر نوق، وتدخل الحاضـرون مرة أخـرى، وأعلموا شيـخ القبيلة أن عائلـة القتيـل لا تملك النـوق، فطلب عشـرة آلاف لـيرة سوريـة عوضًا عـن النوق، وهـو مبلغ كبير في ذلك الوقـت، وجُمع قسم كبير مـن المبلغ من رعاة البلدة، واستدان أهل القاتل القسم الباقي من أحد رجال الجاهـة، وانتهـت المشكلة على هـذا النحو. وتحمـل هذه الحادثـة الكثير من المعـاني الإنسانية والأخلاقيـة، كتضامـن الناس بعضهم مـع بعض، ومحاولـة إيجاد حل لمشكلة واحد منهم، وإطفاء نار الفتنـة، التي قد يتسع نطاقها مسببة مصيبة كبيرة لا تحمد عقباها.

ومنـذ مدَّةٍ ليست ببعيدة توفي شاب من الرحيبة بسبب حادث مـروري خارج البلـدة، ولمعالجة هذه المشكلة أرسل أهل المتسبب في موت هذا الشاب إلى عائلته جاهة مكونة من وجهاء من البلدات المجاورة (ضمـير، العطنة، القريتين، مهـين)، والغرض من هذه الجاهة تقديم العزاء لأهل المتوفَّى، والتفاوض معهم على ديتـه. وفي الوقت نفسه دعا أهل المتوفَّى بعض وجهـاء البلدة لاستقبال هذه الجاهة، وطلبوا مـن أحد الوجهـاء المخضرمين التحـدث باسمهم، والتفاوض مـع الضيوف حـول دية المتوفَّـى، وبعد وصـول الجاهة، والترحيب بها، وتقديم العزاء ذكر المتحدث باسم أهل الميت قصة جميلة حدثت معه في بلـدة السائق الذي صدم الشاب الرحيباني، وتشير هذه القصة إلى التقارب والمحبة بين الرحيبة، وبين هـذه البلدة، والهـدف من ذكرها تهدئـة النفوس، وإنهاء الحـرج الذي تشعر به جاهـة الجاني اتجاه عائلـة المتوفَّى، والبـدء بالتفاوض علـى دية الميت. وبعد هذه المقدمة أخبر الوجيه الرحيباني الضيوف أن المتوفَّـى لديه عيـال، ووضعه المـادي صعب بغية تقـديم ديـة تتناسب مع حـال عياله، وحـدد مبلغًا ماليًـا، فرد عليـه أحد الضيـوف بالموافقة، وأخبره أن المبلغ سيصـل إلى عائلة المتوفَّى بعد ثلاثة أيام، وبالفعـل جرى ذلك بعـد ثلاثة أيام. ومـن أسباب سرعـة الوصـول إلى حـل تدخـل العقـلاء لمعالجة المشكلة بين الطرفين، وإيمـان عائلة المتوفَّى بأن ما حـدث ليس مقصودًا، بل مقـدرًا من الله عز وجل. وذكر لنـا الوجيه، الذي تحدث باسـم أهل المتوفَّى أن من عادته مراعاة الطرف المصاب لأن مصيبته أكـبر، فهـو خسر أحـد أفـراد أسرتـه، في حين أن الطـرف الثـاني لم يتعرض لخسائـر في الأرواح، واقتصـر الأمـر على تقـديم مبلغ مـالي إلى عائلة المتوفَّـى، والمـال كما هـو شائـع في مجتمعنا يمكن تعويضه، أما الأرواح فلا تعوض.

وتختلف تقاليد الجاهـة من منطقة إلى أخرى، فقـد ذكر لنـا أحد وجهاء الرحيبـة (الحاج محمد الخطيب، أبو كرمو، العمر ٨٧ عامًا) حادثة حدثت مـن نحو ثلاثين عامًـا، شبيهة بالحادثـة السابقة، وعنـد محاولة حل هـذه المشكلـة تبـين أن المنطقة التـي ينتمي إليهـا الشخص المتوفَّى لهـا تقاليد في حل المشكلة تختلف عن تقاليد الرحيبة. وباختصار

شديد، صدم سائق من الرحيبة طفلًا في مدينة دوما، مما أدى إلى وفاته. وأصل هذا الطفل من إحدى قرى جبل الزاوية في مدينة إدلب، ولحل المشكلة طلبت عائلة السائق من عدد من وجهاء البلدة الذهاب معهم إلى قرية عائلة الطفل للتفاوض معها حول الدية لإنهاء المشكلة. وتجاوبت الجاهة مع عائلة السائق، وتوجهوا جميعًا إلى عائلة الطفل، وقبل الوصول إليها آثرت الجاهة الاتصال ببعض وجهاء تلك المنطقة، لأنهم أكثر معرفة بتقاليدها، ويمكن تزويد جاهة الرحيبة ببعض النصائح، وعلى ضوئها يجري التفاوض مع عائلة الطفل، وفي الوقت نفسه تمهد الجاهة الوسيطة الاتصال بين عائلة الطفل، وبين الجاهة التي أرسلها السائق. وتتكون الجاهة الوسيطة من اثنين من أعيان منطقة معرة النعمان، وبعد أن اتصلت الجاهة الوسيطة بعائلة الطفل، ذهب الجميع إلى بيت جد الطفل (والد أمه) الذي كان مفوضًا للتفاوض مع جاهة الرحيبة. ومن تقاليد التفاوض هناك تخصيص وجيه من جاهة الضيوف للتفاوض مع الوجيه السابق، وتفرض التقاليد تشكيل مجلس لمراقبة المفاوضات بين الطرفين، وتَكوّن المجلس من الوجيهين الوسيطين اللذين أتيا من منطقة معرة النعمان. وبدأ الطرفان بالتفاوض، وطلب جد المتوفَّى مبلغًا ماليًا معينًا كدية للطفل، فوجد الوجيه الرحيباني أن المبلغ مرتفع، فطلب منه أن يخفضه، وخُفِّضَ أكثر من مرة حتى وصل الطرفان إلى صيغة نهائية ترضيهما. وبعد الانتهاء من تحديد الدية طلب جد الطفل رفع الراية، والراية عبارة عن عصا تحمل في أعلاها علمًا أبيض اللون، وترمز هذه العملية إلى عقد الصلح بين الطرفين، وإنهاء المشكلة. ونحرت عائلة المتوفَّى ذبيحة، وجرى إعداد وليمة عشاء لإطعام الضيوف، وكان ذلك في الساعة الحادية عشرة ليلًا. ونستنتج من هذه الحادثة أن على الجاهة التي تمثل الجاني الالتزام بأعراف الطرف المتضرر، ولا تستطيع تجاهلها، لأن الطرف المتضرر هو صاحب الحق. واللافت للانتباه استخدام الراية كإشارة للصلح بين الطرفين، هذا التقليد يخص منطقة المتوفَّى، وغير معروف في الرحيبة، أو في مناطق أخرى، مما يؤكد اختلاف تقاليد الجاهة بين منطقة وأخرى.

ويتبنى كثيرٌ من الناس مفاهيم تخالف المفاهيم التي تتبناها الجاهة في عملها، ولا سيما فيما يتعلق بالدية، فقد يقول أحدهم: الإنسان لا يُقدر بثمن، والمال لن يُرجع الميت إلى الحياة، هذا المفاهيم خاطئة لأن الجاهة تفاوض على دية المتوفَّى عملًا بقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ**﴾ (النساء، الآية ٩٢). وتشير هذه الآية الكريمة إلى الدية بشكل صريح، فهي حق لعائلة المتوفَّى، وقد يكون المتوفَّى معيلًا لعائلته، ويمكن أن تكون الدية مُعينًا لها بعد موته. ويصطدم عمل الجاهة بتصرفات غير مسؤولة، قد تصدر عن البعض، وهي عبارة عن ردود أفعال تنشأ عن حالة الغضب عند حدوث المشكلة بين طرفين كوفاة شخص ما قتلًا، ففي هذه الحالة يهدد أهل الميت بالثأر، غير أن تدخل الوجهاء يساعد في تخفيف حالة التوتر، التي تختفي تدريجيًا، ويتم عقد الصلح بين الطرفين، وتزول الرغبة بالثأر، والجدير ذكره أن حالات الثأر نادرة جدًا في الرحيبة، وتكاد تكون معدومة، والسبب في ذلك طباع الناس التي تميل إلى السلم، ووجود العقلاء، الذي يسرعون في إيجاد حلول لهذا النوع من المشكلات.

تجفيف الخضراوات و الفواكه و اللحوم في التراث الشعبي

محمـــود علقـــم

عـرف الإنســان الأمــن الغذائــي منــذ القــديم، واستحــوذت قضيته علــى اهتمامه استحــواذًا كبيرًا، وكان الاهتمــام بتحقيــق الأمــن الغذائــي الإطــار الموضوعــي للظــروف المحيطة بالإنســان، ومع تحقيق توفير الأمــن الغذائي أدى إلى ظهــور مفاهيم عديدة يلجــأ إليها الإنســان ليحصل المــواد الغذائية بصورة جيدة ورخيصة الثمن.

إذن فالأمن الغذائي عرفــه الإنسان بصورة أولية منــذ فجر التاريخ، نتيجة مواســم الوفرة ليستعين بها في مواســم الشح، وبمعنــى أدق تخزيــن الأغذية أيام توفرها في فصل الصيف ليجعلها غذاء له ولأولاده في فصل الشتاء.

ولعــل مــادة القمح هــي من أهــم المــواد الغذائية الإستراتيجية التي كان يحاول الإنسان توفيرها في كل فصــول السنة لتكــون عونًا له في تأمــين رغيف الخبز الذي يعدُّ العمود الفقري في الغذاء.

وفي القديم ولعدم توفر الكهرباء كليًا راح الإنسان يفكــر في الطــرق السليمة والسهلة التــي تساعده على توفيــر المــواد الغذائية مــن فصل الصيــف إلى فصل الشتــاء، أي من أيام توفر الخضــار والفواكه إلى أيام شحها في فصل الشتاء.

وسورية بلدٌ زراعــيٌّ تمتاز بتوفر الخضار والفواكه في فصــل الصيــف ،ولمّا كانت تعــزُّ الحاجــةُ إليها في فصل الشتاء.

البندورة المجففة تحت أشعة الشمس

الكوسا المجففة تحت أشعة الشمس

جعل الناس يفكرون في طرق سهلة وبسيطة لحفظ الفواكه والخضراوات إلى فصل الشتاء لتكون عونًا في الغذاء.

جفَّفَ السوريون الخضراوات التي تتوفر في فصل الصيف كالفاصولياء والباذنجان والكوسا والبامية و الملوخية وغيرها؛ إذ كانت تقطع هذه الخضار إلى قطع متساوية بعد أن يتم انتقاء الجيد منها، وبعد أن تغسل بشكل جيد، ثم تعرض لأشعة الشمس لعدة أيام حتى تجف على نحوٍ جيّدٍ، ثم تعبأ بأوعية تؤمن لها الحرارة المعتدلة لتبقى بحالة جيدة.

أمَّا مادة البندورة والكوسا فإنها كانت يرش فوقها الملح، وتعرض لأشعة الشمس حتى تجف على نحوٍ جيد، وتحفظ في أوعية زجاجية أو خشبية لتبقى محافظة على درجة حرارتها، وفي فصل الشتاء تغسل هذه المجففات بالماء الساخن ليزول عنها الملح ولنعود طرية، وتُطْبَخُ كما لو كانت طازجة.

أما الفواكه فإن كثيرًا من الفواكه كانت تقطف، ويُختار الجيد منها، وتغسل، ثم تنشر تحت أشعة الشمس حتى تجف بصورة جيدة، وتحفظ هذه الفواكه في عبوات خشبية نظيفة، ثم تُستهلك في فصل الشتاء. ومن جملة الفواكه التي تجفف، العنب ليصنع منه الزبيب، والمشمش ليصنع منه النقوع وقمر الدين، والتمور والتين وغيرها.

تين مجفف تحت أشعة الشمس

المشمش المجفف تحت أشعة الشمس «نقوع»

أمَّا مادة اللحوم، ففي المدن كان هناك جزارون يذبحون الخراف يوميًا ليقدموه للناس حسب حاجة كل منزل، أما في القرى فكان الناس يسمنون الخراف في فصل الصيف ويذبحونها في منتصف الخريف، ثم يطبخون اللّحم والشحم معًا، بعد أن يضيفوا إليها مادة الملح، وبعد نضجها، تبرد، وتعبأ بأوانٍ فخارية مطلية ومخصصة لهذا الغرض، وتحفظ في أماكن معتدلة الحرارة، وتسمَّى «قاورمة».

وبعد وصول الكهرباء إلى المنازل، استغنى الناس عن عملية تجفيف الخضار واللحوم، إلا بعضًا من الفواكه، إذ بدأت الدولة باستيراد الفواكه والخضار من الدول المجاورة، بعد أن توفرت برادات النقل، والمخازن المبردة، إضافة إلى قيام بعض الفلاحين بزراعة الخضار في بيوت بلاستيكيية في المناطق الدافئة، ولا سيَّما في الساحل السوري ووادي اليرموك.

ومع توفر الكهرباء أيضًا استبدل الناس تجفيف الخضار بتفريزها ضمن الثلاجات بعد أن تعبأ بأكياس بلاستيكية وتفرغ من الهواء، وتحفظ في الثلاجات لتُستهلك في الشتاء.

ولا يزال الناس إلى اليوم يقومون بعمليات تفريز الخضار، ويمونونها إلى فصل الشتاء، إلا أن هناك كثيرًا من الميسورين لا يهتمّون بهذا الأمر، ويشترون الفاكهة والخضار واللحوم طازجة، إن كان في فصل الصيف أو في فصل الشتاء.

الحياة الاجتماعيَّة في ألف ليلة وليلة

حسام فرحان

المقدمة

للتُّراث الثَّقافي الشَّعبيّ غير المادّيّ أنواع وفنون كثيرة: مثل الأساطير التي هي قصص خيالية توضح كيفية وصول العالم والبشرية إلى شكلها الحالي، والحكايات الشعبية التي تشكل حكايات خرافيةً حول الحيوانات أو الإنسان، والقصص البطولية التي تُسْرَد وكأنها وقائعُ حقيقية، والأغاني الشعبية، فلكل نشاط إنساني أُغنيَّة شعبية تقريبًا، بعضها يرتبط بالعمل مثل أغاني البحارة، وبعض الأُغنيَّات الشعبية ترتبط بمناسبات مثل الميلاد، والطفولة، والغزل، والزواج، والموت.

ومثل فنون التعبيرات المعنويَّة الشَّعبيَّة التي تتضمن فنون الأدب الشعبي، وفنون الموسيقا والرقص الشَّعبيَّ، ومنه الرقصات الفرديَّة، والرقصات الجماعيَّة، والرقصات باستخدام العِصيّ، وتُسمَّى التحطيب، والرقصات باستخدام السِّلاح مثل المدى والسُّيوف والبنادق، ورقصات الخيل، ورقصات النساء في الأفراح، ورقصات البدو وغيرهم من الجماعات الخاصَّة التي تجمعهم خصائصُ وسماتٌ عرقيَّة أو بيئية مشتركة .

والأدب الشعبيُّ يشتمل على النثر مثل الأمثال والحكايات والنوادر والألغاز ونداءات الباعة والأقوال المأثورة، والشعر مثل المواويل والأزجال والتواشيح وشعر الأغاني.

ومـن أبـرز فنـون النـثر: السِّـير: وهي قصـصٌ طويلة تجمع بين النثر والشِّـعر، وتدور حول البطولات والفروسية، وتشـتمل على أشعارٍ ملحميَّة. ومن أبطال السِّـير الظاهر بيبرس، وعنترة، وأبطال تغريبات بني هـلال، وهي شخصـيات صُـوِّرَتْ على هيئة فرسـان، وأضـاف الخيـال الشـعبي مـن خـلال ملاحـم هذه الشخصـيات عواطف الفلاحين المحليـين، وقد اندثر كثـيرٌ من هذه السِّـير، إلا أن ملحمة السـيرة الهلالية مـا زالت تُروى وتُنشـد على الربـاب في بعض المقاهي البلديَّة في مصـر، وقد تأخذ هذه السير شكل الأشعار الشـفاهية، ولقـد أسـهم الـتراث الشـعبي إسـهامًا عظيمـاً في الفنـون في العـالم، فتحوَّلـت الكثـيرُ مـن القصـص والأغاني الشَّـعبيَّة إلى أعمال فنيَّة جميلة، وأوحى التُّراث الشَّـعبيّ أيضـاً بالآثـار الفنيَّة الرائعة في الأدب والموسـيقا والرَّسم والنَّحت، واستخدم كثيرٌ من الشُّـعراء والأدباء عددًا من الحكايات الشَّعبيَّة في أعمالهـم، كما اعتمد وليم شكسـبير، مثلًا في الحبكة الدّرامية لكثيرٍ من نصوصه، على الحكايات الشعبية، ومن هـذه المسـرحيات: الملك لـير وتاجـر البندقية، وترويض المرأة السليطة[1].)

وسـوف نتنـاول في هـذا البحـث كتاب ألـف ليلة وليلـة، كمثـال من الأدب الشـعبي في الـتُّراث العربي والعالمـي، ونحـاول أن نقـدم لها فهما جديـدًا، نربط الأنثروبولوجيا في الأدب الشعبي .

ما بين الأنثر وبولوجيا والأدب الشعبي

لم يكـن رواد الأنثروبولوجيـا يجـدون صـعوبةً في الانتقـال مـن الإثنولوجيـا إلى الفلكلـور ودراسـة الآداب الكلاسـيكيّة الشـرقيّة أو الغربيّـة. فقد كانوا هـم أنفسـهم في أغلـب الأحيـان رجـال أدب، وكانت تلك الآداب تشـكل أساسًـا للتكوين الذي تلقوه[2]. أمّا الرحالـة والمبشـرون[3] الذين أمدُّوهـم بالملاحظات والنصـوص فكانـوا هم الآخرون يتوفـرون في أغلبهم علـى ثقافة أدبيّة. ومع أن اهتمام هـؤلاء بالإثنولوجيا واللُّغة كان يفوق اهتمامهم بالأعمال الأدبيَّة المحضـة، لأن اهتمـام الأنثروبولوجيـا خـلال تلك الفـترة كان ينصـبُّ أساسًـا علـى الـتُّراث والأدب الشـفهيين[4]،

١- د. عمـار محمـد النهـار، الـتراث الشـعبي غـير المـادي والتنمية، دوائر الإبداع مجلة ثقافية فكرية أدبية فصـلية تصـدر عن جامعة دمشق، العدد الخامس ،آذار ٢٠١٦، ص ١١٣ إلى ١١٥ .

٢- فيما يخص الآداب الكلاسـيكية الغربية يمكن الإشـارة، على سـبيل المثال، إلى كل من سـير جيمس فريزر ومارسيل موس وريـنان. أما بشـأن الآداب الكلاسـيكية الشـرقية، فيمكن ذكر كل من جان هارسون وماكس مولر وروبرتسون سميث.

٣- فيمـا يخصـ إفريقيا وحدهـا يجب ذكـر كل من كرابف وكالاواي وهاهـن وكوبـل وكريسـتالر ويليـك وشـاتلان وغوثمان وجونود وآخرين.

٤- وإلى تاريخ حديث جدًّا، مثل سنة ١٩٦٢، ظل سير موريس بـوورا يتحدث في مقدمة كتابه «الأغنية البدائية» عن فتح منفذ في مجال لم يسـبق - في حدود علمنا - لأي تاريخ للأدب أن اسـتغله. وفي الحقيقـة، لقـد كان عـدد كبير من أسـاتذة الأدب يسـجنون اهتمامهم ضمن المقرر المعمول به في الجامعات.

فإنهم كانوا يتأثرون بالفن والمواهب الشفهية، ولذلك لا زال هـذان الأخـيران يحظيـان إلى اليـوم باهتمام الأنثروبولوجيين المتخصِّصين في دراسة اللُّغة والأدب.

إلا أن الروابـط التـي تجمـع بـين الأنثروبولوجيـا والأدب سرعان ما ستميل إلى الفتور (في بريطانيا أكثر من باقي دول أوروبة وأمريكا) بسـبب النشـأة القوية التي سـتعرفها الأنثروبولوجيا الاجتماعية خلال فترة مـا بين الحربين العالميتين. وفيمـا كان يتزايد توظيف الشـعراء والروائيـين[٥] للجانـب الأدبـي في المؤلفات الأنثروبولوجيا، كان التاريـخ والنقد الأدبيّان يأخذان صـبغة أكثر سوسـيولوجية. غير أن الأنثروبولوجيين، كما نبَّه إلى ذلك و. هـ. ويتلي (Whitely) إليه:

«لم يكونوا يجمعون النصـوص إلا لما تتضـمنه من قيمـة أنثروبولوجيا. وكما يرى ديـك (Deke)، فإنه لا يمكـن اعتبار مجرد نسـخ النصـوص الإثنوغرافيا والتاريخية والتكنولوجية لشـعب ما مسـاهمة في أدب ذلك الشعب».

وإلى عهـد قريـب جـدا... لم يكـن اهتمـام الأنثروبولوجيا بالنصـوص التاريخيـة يتجاوز القيمة التاريخية لتلك النصوص... وقد عرف جمع المعطيات التقليدية تراجعًـا بعد الأعمال الأولى التي أنجزت في القرن الماضي. فالأنثروبولوجيون الاجتماعيون كرسوا كل جهودهـم حـول المجتمعـات المفردة، واللسـانيون ركـزوا جهودهم على دراسـة بنيات اللُّغـة وأنحائها. أما المبشـرون فقد انصـرفوا كليًّا إلى دراسة الأشغال الرَّعويَّة[٦].

٥- سـيفكر القراء الإنجليزيون في كل من د. هـ. لورنس وت. س. إليـوت وعزرا باونـد، وهذا حتـى نكتفي بذكر الأسـماء التي تفرض نفسـها تلقائيًّا على الذاكرة. ويسـتحق آرثر والي أيضًا أن يتذكـر باعتباره مؤلفـاً أدبيًّا قام بكثير (عن طريـق ترجماته من اللغـة الصـينية) من أجل فتـح القـراء المثقفين علـى اهتمامات ومبادئ أدبية مختلفة تمامًا عما ألفوه.

6- W. H. Whitely. A Selection of Africain Prose. I. Traditional Oral Textes. Oxford. Clarendon Press. 1964. p. 10.

لذا، فبسبب انشـغال الأنثروبولوجيين خلال فترة ما بـين الحربين العالميَّتـين بإعداد ترتيبات حصـول حقلهـم المعـرفي علـى «أوراق اعتمـاد» ولوج الوضـع الاعتبـاري للعلميـة، فقـد أغفلـوا الأهميـة الكـبرى للنصـوص التي كانت بين أيديهـم. وإلى أيامنا هذه، لا زال الباحثون الميدانيـون لا يفرقون بما فيه الكفاية بين النصـوص ذات القيمة اللسانية أو الأنثروبولوجيا المحضة والنصـوص التي تستخدم الموارد الأدبية للغة من اللغات بشـكل واع في أغلب الأحيان ويكتسي أهمية قصـوى، علماً بـأن آلات تسـجيل الصـوت قد مكنت الباحثين من أن يجمعوا في بضـعة أيام من النصوص مقدار ما كان يقتضي من سابقيهم عدة أسابيع.

لكـن الأسـس العلميَّـة التـي كانـت ترتكـز عليها أنثروبولوجيا تلك الحقبة سرعان ما تعرضت للتعديل، فاضـطر أهل الاختصـاص إلى العودة من جديد إلى تسـخير معارفهم وملكتهـم النقدية لدراسـة الآداب بعدما كانوا تركوها جانبًا، بتبنيهم الأسـس السابقة، وكرسـوا جهودهم لتطوير بحوثهم على ضـوئها. ومن المؤكـد أن الأعمـال القديمة التي تحظـى بقبول كبير لدى الأنثروبولوجيين المختصـين في الأدب هي أعمال مؤلفين لم يعتبروا «العلم» و«الأدب» و«التاريخ» أنشطة مهنية بينها انفصال تامٌّ.

ومـن بـين هـؤلاء المؤلفـين هـ. مونـرو وك. ن. شـادفيك[٧]. فقد شـجعا دراسـة المحكيات الشفهية غـير الأوروبية بفضـل كتابهما المهـمّ «التطور الأدبي» وبـكل السُّـلطة التـي كانـا يسـتمدانها مـن موقعهما باعتبارهما باحثين مرموقين في الدراسـات الجامعية الأكـثر عراقةً. وقد اسـتخدم مارسـيل غريول (M. Griaul) وإثنولوجيـو مدرسـته هم الآخـرون نمطاً في فهم النصـوص الأدبية علميًا وأدبيًـا في آن واحد، وتأثيراتهـم لا زال يلمس في الأعمـال الفرنسـية

7- Hector Munro Chadwick et K. Nora Chadwick. The Growt of litérature. Cambridge University Press. 1932-1940.

المعاصرة وفي مؤلفين أمريكيين أمثال ف. هـ. صوشنغ (Sushing) وروث بندكت (Benedict) وبول رادن (Radin) وم. ج. وفرانس هرسكفتش (Herskovits). وفي بريطانيا لم يكف مالينوفسكي عن التحاور مع نقاد الأدب والفلاسفة مع أنه كان من أنصار قيام علم أنثروبولوجي. ويبدو ذلك من خلال التذييل الذي كتبه لمؤلف ج. أ. رتشارد وس. ك. أغدن (Ogden) «معنى المعنى» (The Meaning of Meaning). كما تظهر النُّصوص الأنثروبولوجية العديدة التي نشرها مرفوقة بشروح وتعليقات وعيه الجيد ببعض القضايا الأدبيَّة.

وقد استمر علماء الفلكلور هم الآخرون في الجمع بين البحث الأنثروبولوجي والبحث الأدبي. فالفلكلور شكل دائمًا جزءًا من الحقل الأدبي من خلال صلته بفقه اللغة وتناوله بالدرس مشاركة أغلبية أميي مجموع سكان بلد ما وقيمها التحتية في الأعمال الأدبية الرسمية.

وقد استغل مؤرخو الأدب ونقاده بكيفية واسعة تلك «الثَّقافة الجماعيَّة» التي دونها الفلكلوريون والأنثروبولوجيون خلال الحقبة المتسمة بتوجهها التاريخي[٨]. ويولي الأنثروبولوجيون الذين يدرسون الأدب ومؤلفو الأعمال الخيالية أهميةً كبرى لتلك الثقافة لأنها تمثل التقليد الجماعي الذي لا يتأتى تقويم تفرد مختلف المؤلفين إلا بمقارنة إنتاجهم به.

وإذا كان الفلكلور قد أصيب بنوع من الاضمحلال بسبب التقدم الذي عرفته باقي العلوم الاجتماعية فذلك يرجع إلى كونه يبدو بمنزلة تعبير عن فضول متحمس لجمع فتاتات اللغة والعادات الشعبية صادر عن أفراد مثقفين ينتمون إلى طبقات أرقى من طبقة مخبريهم. ولهذا السبب، كثيرا ما كان المثقفون المنحدرون من الشعب – ومعهم آخرون – يرون أن الأنثروبولوجيا تختزل الأدب إلى «فلكلور»[٩]. وقد

٨- يمكن الإشارة إلى مثال من بين أمثلة عديدة جدًّا، وهو كتاب ر. هوغار الذي ترجمه إلى الفرنسية فرانسواز وجان كلود غارسيا، وجان كلود باسورون تحت عنوان «ثقافة الفقير» (La culture du pauvre)».

٩- ويحتمل أن تكون الحالة مختلفة جدًّا عند الفرنكوفونيين. فمثلًا لا نجد في العالم المتكلم بالإنجليزية نظيرًا للعلاقات التي ربطت بين لوسيانليفي برول ول. س. سانغور وما ترتب عنها من نتائج مهمة على صعيد الحوارات والإبداع في الحقل الأدبي، والتي

كان هـؤلاء يتشـككون في التسـاهل الذي يحضـون به خلال دراساتهم الجامعية من قبل المهتمين بالفلكلور. وبصـدد هذا الاختزال يقول شنوا آشيبي (Chinua Achebé) مثلا:

«كثيرًا ما يعتقـد أن الأدب التقليدي النثري يتمثل في الحكايات الشـعبية والملاحـم والأمثال والأحاجي. وعلى العكس من ذلك، يفرض فن الخطابة والمحادثة الجـادة التوفـر علـى موهبـة فرديـة وأصـيلة. وفي أشـكالهما الأكـثر جمالاً يجب وضـعهما في مقام عالٍ جدًّا»[١٠].

غير أن هذه الاعتراضـات فقدت قوتهـا تدريجيًّا خلال العشـرين سـنة الأخـيرة. ويبين مصـنَّف مثل «الدراسـة الفلكلورية (The study of Folklore) لآلان دوندس (Alain Dundes) أن متخصصـي اللغـة والأدب الشـفهيين والمكتوبـين ومتخصصـي الأنثروبولوجيـا والفلكلـور وعلـم النفـس قـد بـدؤوا يعـثرون ثانيـة في موضـوعات أبحاثهم علـى جوانبَ صـالحة لإنجـاز بحث مشـترك حول طبيعـة المخيلة وتاريخها، وهو بحث يرقى إلى مستوى كبير من الدقة بالمقارنة مع سـابقه. ومن هنا فـإن النظرية الحديثة في الأنثروبولوجيا نفسـها تدين بالكثير للأعمال التي أنجزها النقد الأوروبي حول الرمزية والمجاز والتحليل النفسي ودراسات أخرى من هذا القبيل.

واليوم يقاسم أيضاً عددٌ كبير من الأنثروبولوجيين نقاد الأدب والفلكلوريين واللسانيين والفلاسفة العالم البنيوي، هذا العالم الذي يتميز به الحاضـر كما كان «المنهج المقارن» مزيّة للماضي. وتكتسي البنيوية أهمية كبرى بالنسـبة للأعمال الأدبية لأنها تبحث عن إطار يحتـوي مبدئيا على سـائر التعابير الجادة الصـادرة

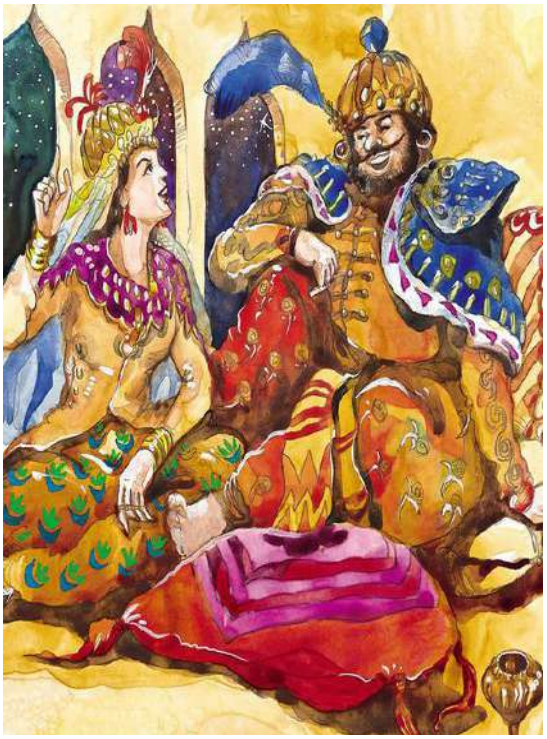

عـن المخيلـة والفكـر[١١]. وإذا كان الأنثروبولوجيـون الذيـن يدرسـون الأدب يتوقفون بالضـرورة مليا عند اختلافـات الأسـلوب والوظيفـة في المحكيـات تثير في مستوى جد عميق مشاكل مشتركة.

ويضـع التداخـل الملاحـظ بـين الأنثروبولوجيا من جهـة، والفلكلـور والدراسـات الأدبية من جهـة أخرى، يضع المسـاهمات السوفياتية (سـابقا) في المقام الأول. فهـي في الواقع متميزة بجدية تصـنيفها وتطور تقنيات تحليلها بمـا فيها المنهـج البنيوي. ويعدّ المصـنف الذي يجري إعـداده – في معهد غوركي لـلأدب العالمي التابع للأكاديمية السوفياتية للعلوم – في عشرة مجلدات حول الأدب العالمـي، دونَ منازع المشـروع الأكثر طموحًا الذي يمكن العثور عليه في هذا المجال، فهو يرتكز على سوابق منهجية مهمة من بينها ما يسمى بعلم الأدب التصنيفي

كانت مجلة الحضور الإفريقي Présence Africaine مسرحًا لها. كان على العـالم المتكلم بالإنجليزية أن ينتظر طويلاً كي يجد حوارًا أصـيلاً حول القضـايا الأدبية والفنية. ويجب الإشـارة هنا إلى أعمـال أولي بيير (Ulli Beier) في إفريقيا الشـرقية ثم في بابوازيا بغينيا الجديدة.

١٠- مقدمة كتاب ويتلي المذكور أعلاه في الهامش (٦)

١١- انظـر تحليـل جاكبسـون وليفـي سـتراوس لقصـيدة «القطـط» لبودلـير المنشـور في مجلـة(L'Homme (1962، وتأمل ليفي سـتراوس في سونيتة الصوامت عند رامبو في علاقتها بتجربـة هنـود أمريـكا الجنوبيـة: – Tristes tropiques. Paris. Plon. 1955. p. 121.

المقارن (la science comparative-typoloique de la littérature). والعنصر البنيوي في الدراسات السوفياتية متميز بالخصوص في الأبحاث المتعلّقة بالأساطير الملحمية والحكايات الخرافية.

وإذا كانت الترجمة وأصالة النصوص والحكم النقدي تعدّ أكثر المشاكل شيوعًا في تاريخ الأدب وسوسيولوجيا الأدب، فإنها لا زالت قائمةً إلى اليوم. لقد ألحقت آلة التسجيل المحمولة - ولا زالت تلحق - بدراسة الأدب والموسيقا تغييرًا سريعًا جدًّا. غير أن ذلك يجب ألّا ينسي إيجابيّات المناهج القديمة التي كانت تجمع النصوص بالكتابة وبمساعدة شرح مُحَلِّل دقيق. ففي تلك المرحلة كان الباحث، بوساطة الاتصال الشخصي المباشر، لا يتمكن من فهم تعقيد التلميحات المتواترة تواترا في قسم مهمّ من الأدب الشّفهي فحسب، بل كان أيضًا يتمكن من استيعاب معايير الأسلوب ووجاهة الحكم الأخلاقي والجمالي وعناصر العادة والتقليد، وكلها أشياء لا تملك سوى حظوظ ضئيلة للظهور وسط تسجيل ميكانيكي سريع. كذلك، وهذا ينطبق على الأدب والأنثروبولوجيا على حد سواء، لا شيء بمقدرته أن يعوض فكرًا متمرسًا قادرًا على البحث عن تفسير نص من النصوص في عين مكان إنتاجه. ويبدو أكثر فأكثر من البديهي أن النص الأصيل، الشعري خاصة، يتحدى في معظمه كل محاولة لترجمته إلى مفردات أوروبية منحدرة من تجربة حياتية مختلفة تمامًا عن تجربته. وتعدُّ المعايير النقدية والمقولات الفنية عند الأهالي من المواضيع التي تتطلب بكيفية مستعجلة إجراء دراسة معمقة. ولإنجاز مهمة مثل هذه يتعين على الأنثروبولوجيين أن يتعلموا كثيراً من الأدب المقارن.

لقد كانت الدراسة الأنثروبولوجية للأدب - وعمليًّا لا زالت - تنكب دائمًا على الأعمال الشفهية أكثر من الأعمال المكتوبة. ولكن الانتقال الذي تشهده اليوم شعوب عديدة، من طور التواصل الشفهي إلى طور التواصل المكتوب، ينبغي أن يشكل مناسبة للأنثروبولجيين أكثر من غيرهم لتحديد الآثار الجمالية والاجتماعية والتاريخية والنفسية المترتبة عن هذا التحول. فالفرصة متاحة لهم بكيفية ملحوظة كي يسجلوا بالتفصيل وفي عين المكان الترتيبات الاجتماعية لدخول عالم الكتابة. وانطلاقًا من ذلك سيتمكنون من دراسة - بمصطلحات إنسانية وواضحة - ماذا يتم عندما يملك المؤلف إمكانية أن يكتب وينشر لجمهور من القراء الفرديين بدلًا من أن يغني أو يحكي أمام جماعة حاضرة[١٢]. لكن أعمال لأنثروبولوجيين ليست في حاجة إلى الاتكال على الأدب الشفهي للشعوب ذات الثقافة المختلفة عن ثقافتهم. فالأهمية التي يولونها للأدب، شأنها شأن تلك التي يولونها للمجتمع، هي مسألة تجربة اجتماعية كلية. وإذا كانوا يمتلكون الكفاءة الأدبية واللغوية الضرورية فلا شيء يمنعهم من القدرة على إعادة خلق هذا السياق حينما يتعلق الأمر بآداب المجتمعات الصغيرة التي لا تعرف الكتابة. ويحدونا أملٌ صادقٌ في إمكانه تحقيق ذلك.

ألف ليلة وليلة

جَمَعَ العملَ على مدى قرون، مؤلّفون ومترجمون وباحثون من غرب ووسط وجنوب آسيا وشمال إفريقيا. وتعود الحكايات إلى القرون القديمة والوسطى لكل من الحضارات العربية والفارسية والهندية والمصرية وبلاد الرافدين، ومعظم الحكايات كانت في الأساس قصصا شعبية من عهد الخلافة العباسية، وبعضها الآخر، ولا سيَّما قصة الإطار، فعلى الأرجح تم استخلاصها من العمل البهلوي الفارسي «ألف خرافة» و(بالفارسية: هزار أفسان) التي بدورها

١٢- من الأمثلة الحديثة عن أعمال هذا المجال يمكن ذكر كتاب جاك غودي «الأدب» في المجتمعات التقليدية (بالإنجليزية)، منشورات جامعة كمبردج، ١٩٦٨. وهناك دراسة شاملة ودقيقة عن هذا التحول، ضمن تحولات أخرى، في التجربة الخيالية عند شعب تمت دراسته بشكل معزول. ويتعلق الأمر بمؤلف كينليم بوريدج (Kenelen Burridge) «تقاليد الطانغو» بالإنجليزية، أكسفورد، كلاندون، ١٩٦٩.

اعتمـدت جزئيا على الأدب الهنـدي. وبالمقابل هناك مـن يقـول إن أصـل هذه الروايـات بابلي أو سـومري ويقول النديمُ: (قال محمد بن إسحق: أوَّلُ من صنف الخرافـات، وجعل لها كتبا وأودعهـا الخزائن، وجعل بعضـ ذلك على ألسـنة الحيـوان، الفرس الأوَلُ. ثم أغرق في ذلك ملوك الأشـغانية، وهـم الطبقة الثالثة مـن ملوك الفرس. ثـم زاد ذلك اتسـع في أيام ملوك الساسـانية، ونقلته العرب الى اللغـة العربية، وتناوله الفصـحاء والبلغاء، فهذبوه ونمقوه وصـنفوا في معناه ما يشبهه. فأول كتاب عمل في هذا المعنى، كتاب هزار أفسـان، ومعناه ألف خرافة. وكان السـبب في ذلك أن ملـكا من ملوكهم كان إذا تزوج امرأة وبات معها ليلة، قتلها مـن الغد، فتزوج بجارية مـن أولاد الملوك ممن لها عقل ودراية، يقال لها شـهرزاد، فلما حصلت معه ابتـدأت تخرفُه، وتصـل الحديث عند انقضـاء الليل بمـا يحمل الملـك على اسـتبقائها ومسـألتها في الليلة الثانيـة عن تمـام الحديـث. الى أن أتى علـى حيلتها عليه، فاسـتعقلها ومال إليها واستبقاها، وكان للملك قهرمانة يقـال لها دينارزاد، فكانـت موافقة لها على ذلـك. وقد قيـل إن هـذا الكتـاب ألف لحمـاني ابنه بهمـن، جاؤوا فيه بخبر غير هذا[١٣]) وقد سـار كثيرٌ من العـرب في تأليف علـى نفس النمـط الذي نهجته ألـف ليلـةٍ وليلة، ومـن ذلك كتـاب الامتاع والمؤانسـة لصاحبه التوحيدي المتوفى نحو سنة ٤٠٠ هـ[١٤].

(وما هو شـائع في جميع النسـخ الخاصة بالليالي هي البادئـة، القصـة الإطارية عن الحاكم شـهريار وزوجتـه شـهرزاد، التي أدرجت في جميـع الحكايات، حيث إن القصـص تنطلق أساسـا من هذه القصـة، وبعض القصـص مؤطـرة داخل حكايـات أخرى، في حين تبدأ أخرى وتنتهي من تلقاء نفسها، بعض النسخ المطبوعـة لا تحتوي إلا على بضـع مئات مـن الليالي، والبعض الآخر يتضـمن ألف ليلة وليلة أو أكثر، الجزء الأكبر من النص هو بأسـلوب النـثر، على الرغم من

١٣-محمد بن إسـحاق النديم، الفهرست، بيروت، دار إحياء التراث ،٢٠٠٦، ط ١ ،ص ٣٦٣ إلى٣٦٤ .

١٤- أبو حيـان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسـة، اعتنى به وعلق عليه محمد الفاضلي، بيروت، دار الجيل ،، ٢٠٠، ط١ ،ص ٥.

استخدام أسلوب الشعر أحيانًا للتعبير عن العاطفة المتزايدة، وأحيانا تستخدم الأغاني والألغاز. ومعظم القصائد هي مقاطعُ مفردة أو رباعية، كما أَنَّ بعضها يكون أطول من ذلك.

هناك بعض القصص المشهورة التي تحتويها ألف ليلة وليلة، مثل علاء الدين والمصباح السحري، وعلي بابا والأربعين لصًّا، ورحلات السندباد، كما أن هناك بعض الحكايات الشعبية في منطقة الشرق الأوسط التي تعدُّ شبه مؤكدة تقريبًا، ليست جزءًا من ألف ليلة وليلة الموجودة في الإصدارات العربية، ولكنها أضافها المستشرق الفرنسي أنطوان جالان ومترجمون أوروبيون آخرون، (وكان أنطوان جالان قد عمل على ترجمة الكتاب إلى الفرنسية سنة١٧٠٤، وهو أول المستشرقين الذين اهتموا بهذا الكتاب).[١٥]

ولا نجد جهدًا للشرقيين حول هذا الكتاب إلا ما ذكره بعض المستشرقين حيث (يذكر بعض المستشرقين أثناء الكلام على ألف ليلة وليلة اسم الأب الصالحاني. ولست أظن أنهم يعنون بحثًا له إلا ما كتبه مقدمة لطبعته التي هذبها وأصلحها وطبعها في مطبعة الآباء اليسوعيين، فإذا كانت هذه المقدمة هي ما يشيرون إليه، وهي في أغلب الظن كذلك، لتوافق ما فيها مع ما يقولون عنها، فهي في نحو عشر صفحات يتكلم فيها عن قيمة الكتاب، ولكن الجزء الأكبر منها والأهم هو كلامه عن أصل ألف ليلة وليلة، وهو يزعم أن أصلها عربيٌّ لأسباب يسردها لا يمكن أن نسميها أسبابًا تستند إلى درس أو علم. ويكفي أن نذكر أنه أصدر نسخة فيها هذا الحذف والتشويه للأصل بقصد التهذيب ليكون عندنا فكرة عن القيمة العلمية لمقدمتها. ولكن لا بأس من ذكر هذه الأسباب. فهو يقرر أنها تأليف عربي مستدلًا بنص النَّديم في الفهرست وبالروح الإسلامي في الكتاب وبذكر هارون الرشيد الذي لا بد أن يكون ذكره قد أتى بعد زمن حياته بكثير وإلا ما رضي خلفاؤه أن ينزل هذا الملك العظيم منزلة السفال والغوغاء، ومستدلًا أيضًا أن اختيار الأمكنة وقع على بغداد ودمشق ومصر، وهكذا يستمرُّ الأب أنطوان الصالحاني في ذكر الأدلة غافلا عن أن لهذه المجموعة تاريخًا طويلًا مرت فيه بتطورات مختلفة للكتاب نفسه، بل غافلا عن أهم شيء وهو أن هذا الأثر لم يكن مؤلفاً أدبيًّا إنما هو مُؤَلَّفٌ شعبيٌّ، والفرق شاسع جدًّا بين النوعين من التأليف في وسائل تحديد تاريخه والاستنتاج مما يذكر فيه، وأما الاستدلال بلغة الكتاب، فمن يدرينا ما حال اللغة الشعبية أيام العباسيين، يوم كانت اللغة في رونقها وكمال شبابها كما يقول، حتى نؤكد أن الكتاب لم يكتب شيء منه في أيامهم[١٦]).

(القصة الإطارية الرئيسة لحكايات «ألف ليلة وليلة» تحكي قصة ملك يدعى شهريار، وهو الابن الأكبر لأخ واحد لملك توفي، وقبل موته قسم المملكة بين الشقيقين، حيث بدأ الأمر عندما اكتشف الملك أن زوجة أخيه كانت خائنة وقد صدم لذلك الأمر، وما زاد ذلك اكتشاف خيانة زوجته له أيضًا، فقد كان أمرًا لا يحتمل بالنسبة إليه، لذا قرر إعدامها، ورأى أن جميع النساء مخطئات .

١٥- سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، مصر، دار المعارف pdf، ب ت ،ص ٥.

١٦- سهير القلماوي، المرجع السابق، ص ٤.

تزوَّج الملك شهريار من العذارى يوميًّا، حيث يقتل العروس ليلة العرس، قبل أن تأخذ الفرصة لتخونه، وبعد فترة لم يجد الوزير الذي كان قد كلفه الملك بتوفير عروس للملك، مزيدا من العذارى، عندها عرضت ابنته شهرزاد نفسها لتكون عروسا للملك، فوافق أبوها، وفي ليلة زواجهما، بدأت شهرزاد تحكي حكاية للملك ولكن لا تنهيها، إذ أثار هذا فضول الملك لسماع نهاية الحكاية، مما دفعه إلى تأجيل إعدامها للاستماع إلى نهاية الحكاية.

وفي الليلة التالية، عندما تنتهي من حكاية ما تبدأ بحكاية جديدة، تشوق الملك لسماع نهايتها هي الأخرى وهكذا، حتى أكملت لديه ألف ليلة وليلة [١٧]).

تختلف الحكايات فهي متنوعة، وتشمل القصص التاريخيَّة والغراميَّة والتراجيديَّة والكوميديَّة، والشعريَّة، والخياليَّة، والأسطوريَّة، وهناك قصصٌ عديدةٌ تَصِفُ الجنَّ والغيلانَ والقردةَ، كما أن هناك قصصاً عن السحرة والمشعوذين والأماكن الأسطورية، التي غالبا ما تتداخل مع أناس حقيقيين وأماكن موجودة على أرض الواقع، ولكنها ليست دائمًا منطقية.

الحياة الاجتماعية في ألف ليلة وليلة

لا بد من الانتباه إلى أهمية أن نفهم الغايات من قراءة ألف ليلة وليلة، لأنها تضم عالم العجائب والأعاجيب، فهي كنز كنوز فهم المخيلة الشرقية، خط الربط بين بلاد الهند وفارس وبلاد العرب.

الكتاب بمنزلة عالم صنعه الناس ليحققوا إرادتهم في صياغة مجريات الحياة، على النحو الذي يأملونه ويرغبون في تحديد ملامحه: مدن مسحورة، بلاد مهجورة، الجن والعفاريت، تجار وحوانيت، عشق وعشاق، انتصارات وانكسارات، صدق ومحبة.. حكايات النفس البشرية. كل ذلك يلزم عدم القراءة من الخارج فقط،، بل يجب تأمل تلك الحكايات، إذ إنها شغلت ألف ليلة وليلة خيال الناس، البسطاء وبحاثة العلم في بلاد المشرق وكل بلدان العالم.

وقد قال د. طه حسين عن الكتاب، حين مناقشة رسالة الدكتوراه لسهير القلماوي: «إن هذا الكتابَ قد خلب عقول الأجيال في الشرق والغرب قروناً طويلةً.. وقد نظر الشرق إليه أنه متعة ولهو وتسلية.. ونظر الغرب إليه، على أنه كذلك متعة وتسلية.. ولكن على أنه بعد ذلك، خليق أن يكون موضوعًا للبحث والدرس الخصيب»[١٨].

إن الإنسان الذي لا ماضيَ له.. ليس له حاضر ولا مستقبل.. إنَّ (جينات) الماضي راسخة في قلوبنا وعقولنا، وحاجتنا إلى التنقيب في تراثنا لا تقل أهميَّة عن رسم الخطط المستقبلية. ولكتاب «ألف ليلة وليلة» وسط التراث الشعبي في كل البلدان العربية أهمية كبيرة، إذ لا توجد بلدٌ واحدٌ لا يلقى الكتاب الاهتمام فيها، ولعل الكتاب من أكثر الكتب التراثية التي يعاد طباعتها.

تكمن أهمية كتاب ألف ليلة وليلة في أن كل جيل يغني حكاياته، ويضمنه حكايات جديدةً. دائمًا هناك حكاياتٌ جديدةٌ أو تحسينٌ حكايات موجودة أصلاً، يأتي جيل ليزيد أو يحسن ما زادهُ وحسنه الجيل الأقدم منه، تقود الأشكال المثالية تحسين الأجيال إلا أنه كمال لا يمكن بلوغه. هكذا إذنْ، فإن كل مخطوط لألف ليلة وليلة يمثل لحظة من لحظات الكتاب الخالدة، وقد حدد الجمهور والثقافة والجمال والاقتصاد النسخ التي ظهرت في مختلف الأزمان والأمكنة قبل أن تطبع ويتوقف تطورها، لقد اندثرت التعددية في نسخ، وعُدِّلت اللغة في نسخ، وبزعم المبدأ الديني والأخلاقي ظهرت طبعات كثيرة.

قبل أن تنشأ حكايات ألف ليلة وليلة، كان السرد العربي بدائيًّا مثلما كانت حياتهم السياسية التي

١٧- ألف ليلة وليلة، بيروت، دار عودة، ١٩٩٩، ج١، ص ٥ إلى ٨.

18- https://www.albayan.ae/books/from-arab-library/2017-11-21-1.3106904

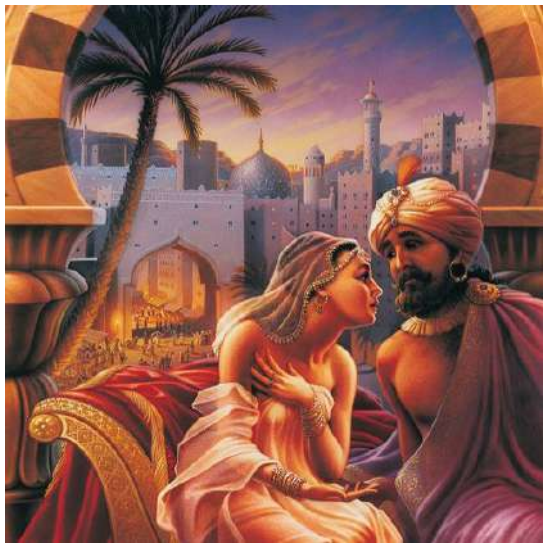

تمثلها القبيلة، تتبادل القبائل الحكايات التي تشير إلى حاجات عملية في حكاياتهم اليومية، وتتكرر الحكايات بصورةٍ دائمةٍ، ويُلجأ إليها لتترسخ أنماطٌ سلوكيةٌ مرغوبةٌ في إطار مجتمع قبلي سياسي، وقد ضاهى فقر الحكايات فقر الأفكار والكائنات والأفعال التي تتضمنها.

لم يكن الراوي العربي وجد ما يكفي من الأفكار، أو أنه لم يكن يعرف بعد كيف يعمق ما هو موجود، وهو لا يعرف سوى القليل من العلاقات والأشكال الحيوانية والإنسانية، ولم يختبر من أفعال الوجود سوى الأفعال التي تكرس وتؤكد قيم القبيلة[١٩]، وقبول الأفعال التي ترتبط بها. ثم نزل القرآن الكريم في القرن السابع الميلادي، فتجاوز السرد الذي تضمنه مستوى السرد المعروف آنذاك، وأحدث قطيعة جمالية مع القصص المعاصرة له والسابقة عليه. فالله عزَّ وجلَّ هو القاصُّ الأَوَّلُ، وما يقصه هو أحسن القَصص[٢٠]، ولا يقارن مع غيره. قصه صادق من الوجهة التاريخية، وقصصه تخضع القارئ أو السامع، وتجسد تعاليم أو نواةً ووعدًا أو وعيدًا أو عبرةً واتعاظًا.

لم تسرد قصص القرآن الكريم لتعجب القارئ أو السامع، إنما تسرد لكي تخضعه. يقرأ القارئ أو يستمع السامع إلى القصص القرآنية، وهما مضطران إلى أن يصرفا انتباههما عن القصة المسرودة ليتجها إلى العبرة منها، وهكذا كسر القرآن الكريم القانون الأساس للتعامل مع القصص، أي أن يعرف القارئ أو السامع أن ما يسرد ليس سوى قصص متخيلة «أساطير»، لذلك لا تتظاهر قصص القرآن الكريم بأنها حدث، إنما تؤكد حدوثها من الوجهة التاريخية.

أصبح السرد في العصر الإسلامي الأول شريكا للسلطة، وترتب على ذلك أن أصبحت قيمته الحقيقية لا تظهر إلا عندما يكون مع أو ضد. ترتب على ذلك أن انقسم إلى قسمين أولهما استمر شريكا للسلطة يكرس ويساند التنظيم المعد سلفا، والآخر تخلص من هذا العبء، وأصبحت مهمته الحرية التي يفتحها السرد، ليحقق بها روح الإنسان النقدية[٢١] ويحولها إلى ثقافة وفكر جماعي. قاوم السرد المتواطئ مع السلطة التغيير، وحافظ على ما هو معروف وموثوق، وكان كل راو ينتمي إليه يصبغ بتعاليمه، ولأن طلاب العلم آنذاك يهاجرون باستمرار من إقليم عربي إلى آخر، ويتنقلون من مسجد إلى مسجد، فكان لهؤلاء وللمسجد تأثيرٌ كبيرٌ في المحافظة على التشدد في السرد، في المقابل، زادت حكايات ألف ليلة وليلة في الفضاءات التي لم يملأها السرد الشريك للسلطة، وفهم الدارسون في العصر الحديث أن هامشية ألف ليلة وليلة و«عزلتها» تلك هو ما أعطاها أصالتَها الفنية، وأن خصائصها الصنفية والتكوينية الفريدة استمدت من الحرية التي لم يتمتع بها آنذاك السرد العربي المشارك في السلطة.

١٩- الذهنية العربية الثوابت والمتغيرات مقارنة معرفية، أ. د حسن حميد، ت٢٩\١\٢٠١٤، دن دمشق، نينوى، pdf.

٢٠- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٣) سورة يُوسُف.

21- %D9%85%D9%87%D8%AF%D9%8A-%D9%85%D9%86-%D8%A3%D9%84%D9%81-%D9%84%D9%8A%D9%84%D8%A9-%D9%88%D9%84%D9%8A%D9%84%D8%A9

وخلافًا للسرد[٢٢] المشارك للسلطة الذي رعته شخصياتٌ ثريَّة تتمتعُ بالثَّراء والسُّلطة والنفوذ، رعت حكايات ألف ليلة وليلة مجموعات بشريةً لا تتطابق أفكارها مع أفكار الأفراد الذين يتمتعون بالسلطة، لذلك فتاريخها صنع من طرف عامة البشر وليس من طرف النخبة منهم.

لقد كشف النديم[٢٣] عن سوق رائجة بين راو وبين مستمع، يتوسط بينهما ناسخ وورّاق، يعني هذا لموضوعي أن حكايات ألف ليلة وليلة نشاط اجتماعي، وأنها من خلق مجموعة، وكما نعرف الآن يعبر عن هذا بأن الفن تواصلي، والدافع الأساس إلى نشوئه هو استجابة الجمهور.

في المقالة الثامنة من كتاب النديم «الفهرست[٢٤]» أفكار مترابطة، ومن ضمنها أن حكايات ألف ليلة وليلة فكرة لمهمة واحدة توارثتها الأجيال بفضل الرواة والحكائيين والمؤلّفين والوراقين والجمهور الذين رسموا هذا المشروع الجديد وأنشؤوا مجتمعين نوعا جديدا من «المهن».

ارتبطت المهنة الجديدة «السمر» كأي مهنة أخرى بنشاطات تمارس في وقت المهنة «الليل»، وتنوقلت من جيل إلى آخر، وتنوقلت معها الغاية التي حفظت للسرد وحدته على رغم كل التعديلات التي طرأت،

فمهما تغيرت موضات المهنة تبق مهمة الرواة والحكائيين إنتاج الحكاية. لا يتعلق الأمر هنا بمهنة أنجزها الرواة والحكاؤون وحدهم، بمهمة أنجزتها الحياة الاجتماعية وعبر سلسلة من الرواة والحكائيين والوراقين والجمهور والحقب الزمنية، كان ثمة فكرة أولية، سواء ولدها العرب أم وصلت إليهم من آخرين وتبنوها كما لو كانت فكرتهم، ظهرت إلى الوجود، وتحولت إلى مهمة يقوم بها بعض الناس من أجل بعضهم حتى تحولت إلى مشروع جدي.

استقر في مشروع حكايات ألف ليلة وليلة ما لا يمكن أن يقوله السرد المتواطئ مع السلطة، وما لفظته النخبة العربية وطردته من مجالاتها الثقافية، وما حذف بدافع أخلاقي إما تحريمًا وإما حظرًا. وأعطى مشروع الحكايات صوتًا لهذا المسكوت عنه في اللاوعي الجماعي والفردي.

لم تعاد حكايات ألف ليلة وليلة الدين، ولم تكن مناقضة له، إنما كانت فتحا جديدا لآفاق جديدة للعقل العربي، ومع مرور الوقت أنهت احتكار الدين

٢٢- ما نقصده في السرد، هو تقنية تقديم الوعي الفردي، كما ورد في كتاب (**معجم مصطلحات نقد الرواية**) لطيف زيتون، لبنان، دار النهار، ط١، ٢٠٠٢، ص ٦٦.

٢٣- النديم :عرف بـ النديم، وقد حقق الدكتور أيمن فؤاد سيد الاسم الصحيح في تحقيقه لكتاب الفهرست، هو أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق الوراق البغدادي توفي في الأول من شعبان من عام ٣٨٤هـ أو عام ١٠٤٧م وأبوه هو الوراق. وقد كان النديم أديباً وكاتب سيرة ومصنفاً وجامع فهارس، صاحب الكتاب المعروف كتاب الفهرست الذي جمع فيه كل ما صدر من الكتب والمقالات العربية في زمنه. لا يعرف كثير عن حياته ولا سبب لقبه بالنديم. من أهل بغداد، وقد عاش في بغداد، وعمل كاتباً وخطاطًا ونساخًا للكتب وهي مهنة ورثها عن أبيه.

٢٤- محمد بن إسحاق النديم، الفهرست، بيروت، دار إحياء التراث ،٢٠٠٦، ط ١ ،ص ٣٦٣ إلى٣٦٤ .

للسرد، ودعمت القدرة الخلاقة والإبداعية للأجيال العربية، ومع أن هدفها لم يكن قط إضعاف السرد الديني، إلا أن تأثيرها كان مقوضًا.

رفض النخبة والعلماء القدامى الذين انحازوا للسرد المتواطئ مع السلطة حكايات الليالي، فلم تدرج في المنتخبات الأدبية القديمة، ولا في المؤسسات التربوية، ولم تشرح أو تفسر أو تؤول. عُدَّت مهنة غير مرغوبة ولا فائدة منها، تسلية وضياع وقت، وهو عائق آخر لاستقبالها عند فئة عريضة من متعلمي المؤسسات التربوية والعلمية والمنتمين إليها، فلم تقدر بما تستحق من تقدير. يمكن أن نستشف من وراء هذا الرفض ما يسميه غولدمان «مأساة الرفض»[٢٥]، أي الحالة الذهنية التي تعبر عن أوضاع تعانيها بعض المجموعات البشرية، وهي تواجه تنامي انفلاتات السلطة الاجتماعية التي تملكها. تعترف هذه المجموعات البشرية بالتطورات، وتعترف بعجزها عن إيقافها، وما يمكنها فعله هو أن تفرض تصوراتها وشروطها لتقبل أي إنتاج أدبي يحظى برضاها. مضت قرون طويلة وحكايات ألف ليلة وليلة تعيش بين الناس من غير أن تعترف النخبة بإبداعها، وفي زمن قريب بمقياس حياتها في التاريخ عرف النخبة العرب أن حكايات ألف ليلة وليلة خطوة لا مثيل لها، لا بالنسبة لتطور السرد العربي وحده، إنما لتطور السرد العالمي والتفكير الفني لكتاب البشرية العظام حتى إنها أصبحت أشهر كتاب عربي بعد القرآن الكريم.

حاول أكثر المستشرقين اللذين تعرضوا للكلام عن الليالي أن يقسموا قصتها إلى أقسام نبعت من مواطن جغرافية معينة. فقسم هندي فارسي

25- http://www.alhayat.com/article/433603/%D8%B9%D9%86-%D9%86%D8%B3%D8%AE%D8%A9-%D9%85%D8%AD%D8%B3%D9%86-

عدوه الأصل الأول، ثم قسم بغدادي، وأخيرا قسم مصري[٢٦]. هذا التقسيم جائز عند الكلام عن أصل القصص إلى حدٍّ بعيد، ولكن هل ظل هذا القصص الهندي الأصل مثلاً حافظًا لمزايا أصله في الليالي؟ لو صح ذلك لانتظرنا أن نجد حياة اجتماعية هندية موصوفة وحياة بغدادية وحياة مصرية وهكذا. فهل هذا ما نجد في الليالي؟. فلننظر إلى هذه المقدمة[٢٧] التي لا يشك مطلقًا في أن أصلها هندي، للسبب البسيط وهو أن مثيلاتها وجدت فيما بقيَ لنا من الأدب الهندي القديم ،أتحمل حقًّا طابعًا خاصًّا من حيث البيئة التي تصف ؟ الأسماء الهندية، والموضوع وخيانة المرأة، عالمي لا يمكن أن نحدد له موطنًا لقدمه وشيوعه في قصص الشعوب وفي أمم وقبائل تختلف في كل ما يمكن أن تختلف فيه الأمم والقبائل. وتستمر القصة التي لا تدل حوادثها على بيئة معينة حتى إذا جاءت فيها قصة الحمار والثور[٢٨] وصاحب الزرع عرضا ظهر الأثر الإسلامي للبيئة الإسلامية في هذا الكتاب كله واضحا جليا. هذا الرجل صاحب الزرع عند ما يزعم على أن يبوح لزوجه بسر ما فهم من لغة الحيوان يتوضأ استعدادًا للموت. والجزء الخاص بفهم الإنسان للغة الطير سواء أكان أصله الأول هنديًّا أو غير هندي متأثراً ولا شك في صورته التي ظهر بها بما قيل حول هذا الموضوع في القرآن الكريم[٢٩] بل إنه متأثر بنفس ألفاظه. وهكذا في القصص الذي يحمل طابعًا فارسيًّا. كله قد خضع للبيئة الإسلامية البغدادية أو المصرية. كل ما فيها من هذه البيئة هو ما قد دخل المدنية الإسلامية منذ أن عرف المسلمون بلاد الهند وفارس، وهو ما أدمج في الحياة الإسلامية إدماجًا طبيعياً، تحرر فيه الجديد قليلًا حتى لاءم الأصل وأصبح جزءًا منه مصطبغًا بنفس لونه يصعب تمييزه. بل إنه وهذا هو الأهمُّ ليصبح من الإسراف ألا نعده من مميزات الحياة الإسلامية بعد أن اندمج فيها هذا الاندماجَ. وأين البيئة أو الحياة الاجتماعية التي يمكن أن تعد خالصة خاصة بقوم دون غيرهم.؟ ومتى كانت الشعوب حتى في أبعدِ عصور المدنية لا تتصل اتصالًا وثيقًا أو كافيًا على كل حال لن يدخل تلك الحياة الاجتماعية المعينة كل ما يمكن أن يدخلها من جديد مما حولها؟ ولئن امتازت المدنية الإسلامية بشيء بأنها برعت منذ فجر الدولة العربية بأن تدمج في حياتها مظاهر الحياة الفارسية، وساعدت ظروف حياة العرب البسيطة على ابتلاع تلك المظاهر الجديدة حتى أن الباحث كثيرًا ما يخفى عليه الأصل فيكون معذورًا فيما وقع فيه من خطأ. من الإسراف إذ نلتمس في الليالي بيئة فارسية أو بيئة هندية خالصة، فقد وصل هذا القصص يفقد كثيرًا من تفاصيله والقاص يهمه الحادث الإنساني الذي يقع في أي مكان أكثر من الحادث الخاص الذي لا يقع إلا في بيئة أو عصر معين. وكان القاص يستمد من ذاكرته ما يعين على سرد هذه الحوادث ويعتمد على ذوق سامعيه وما يمكن أن يتذوقوه لذلك نجد القصة التي حدثت في الهند، لأن القاص ينص على هذا الوطن في تحديد منظر القصة عند بدئها، والأبطال كل هذا وغيره ينم على الأصل الهندي نجده بعد هذا كله لا يستطيع أن يلخص من الفكرة أن هؤلاء قوم مثله أحسوا إحساسه إذن فلا بد لهم أنهم عاشوا حياتهم الخاصة كما عاش هو أكلوا وشربوا وطربوا، ولكن أتستطيع أن تقول لهذا القاص إن بلدًا يخلو من هذا الصنف أو من ذاك من ألوان الطعام؟

٢٦- ألف ليلة وليلة ، سهير القلماوي، القاهرة ، دار المعارف، ص٢١٦

٢٧- المقصود في المقدمة هي القصة الإطارية لـ ألف ليلة وليلة التي تقص حكاية الملك شهريار مع زوجته إلى أن تزوج من شهرزاد
28-%D8%A7%D9%84%D8%B2%D8%B1%D8%B9/

٢٩- نجد كثيرًا من القصص التي جاءت على لسان الطير والنمل وردت في القرآن الكريم مع نبي الله سليمان .

وأن بلـدًا يموت فيه الناس وهم غير مسـلمين ؟ إنه يفهـم ذلك ولكـن لا يلتذ به. ولقد وصـل إلى قاص الليالي قصـصٌ عـن الهنـد وفارس حاملـة كثيراً مـن مزايا بيئتـه الأولى، ولكن القاصـ لم ير الهند ولم يـر فارس، ولئـن رآهما فإن غيره من سـامعيه لم يرهمـا ولئـن رآهمـا هو فهـو بعيـد أن يلاحظ الفـروق الجوهرية بـين بيئته وبيئتهمـا. إلى جانب هـذا يجب أن نعـرف أن الشـعب تـواق إلى معرفة الجديد، ويسـره أن يسـمع عـن الأعاجيـب ويميل إلى تصـديق ما يمكن أن يتقبلوه فأتاهم بقصـص كقصـص السـندباد يتحدث إليهم عـن كل عجيب صـادفه هذا الرحالة العظيم في رحلاته السبع[٣٠] لكـن السـندباد رأى في هـذا البحـر الغامض تلك الأشـياء العجيبة ولم يصف بيئة إنما وصف أشياء، كالسـائح الذي يـزور بلدا جديدا ويبهر لمـا يراه أو يصـف عادة من عادات القوم كالتي ذكرها من أنه في تلك البلاد إذا مات أحد الزوجين دفن صـاحبه معه[٣١]، قصـة هذا البطل البصري الذي عاش في البصـرة[٣٢] عيشة القاص، ودخل على الرشيد كما تصـور القاص وكما قد يكـون رأى من دخول قومه علـى الحاكـم أو الملك. وأمـا هذه الصـعاب وهذه المشـاقُّ فهي مجرد سـرد هذه التفاصيل التي تزين القصة لكنها ليست القصـة، بل هي قلائد لبستها القصـة، لتتزين بها والسامع سيبهر عند سماعها، ولكن الذي سـيبهره منفصل عن سير القصة وعن حوادثهـا سـيذكر مدينـة السـودان[٣٣] وكيف نجا منهم السـندباد، فقصـة السـندباد لا زالت قائمة عنـده، فالسـندباد إن يكـن عاش مع هـؤلاء القوم فقـد عاش وحده بعيـدًا عنهم متشـوقا إلى أن يفر منهم، وأكثر من ذلك أننا نجد قصة السندباد وفي القصـص الأخرى التي تصف عجائب أرض الإنس أو الجن أن هؤلاء القوم هم كأهل بلد القاص في كل شـيء آخر هم مثله في معاملاتهم وفيما يستعملون من أدوات وفيما يتكلمون به من صـيغ، بل هم مثله في عواطفه وفي أعمالهم.

هـذه البيئات الغريبة التي يشـار إليها في الليالي تنقسم إلى قسمين[٣٤] إذ تأثرها ببيئة القاص. فبيئة سـمع عنها القاص وصـلت إليه معلومـات عنها غير التـي وصـلته وهي بيئات تمتعت بشـيء مـن الحياة في الليالي، وعاشـت مصـطبغة ببيئـة القاص ولكن معالم أصـلها فيها. وقد سـمع القاصـ عن قوم غير قومـه. هؤلاء كانوا هنودًا أو فرسًـا أو نصـارى. كما نجد في قصـة وردخان بن[٣٥] الملـك جلعياد، أو عن قصـة تكـون إطارا لمجموعـة من القصـص كما في قصـة الوزراء السبع، فإن شخصـية الملك أو البطل الهندي أو الفارسـي تظل قائمة متميزة، وإن القاص لمجـرد خياله أراد الإبعاد في وطنها فسـمى ما شـاء من أسماء، وكذلك الأمر في البلدان أو العادات فهي أعلام في الواقع لا تضيف بقدر ما تضيف كلمة الهند

٣٠- ألف ليلة وليلـة، بيروت ،المركز الثقافي اللبناني للطباعة والنشـر والترجمة والتوزيع، ت٢٠٠٤ م، ج٧ ،ص ١٧٦ ـ ص ٢٢٢، ج ٨ ص ٥ ـ ٢١.

٣١- ألـف ليلـة وليلة، بيروت، المركز الثقـافي اللبناني المرجع السابق، ج ٧، ص ١٩٧، الليلة ٥٤٦.

٣٢- حسـام الفرحـان، السـندباد البحـري.. هـذا الشـاب الوسيم من أين أتى؟! دمشق، جريدة المسيرة، الصفحة الثقافية، تاريخ العدد٨/٤/٢٠١٨، دمشق.

٣٣- ألـف ليلـة وليلة، السـندباد البحـري، الرحلـة الرابعة، http://www.muslimphilosophy.com/books/sinbad.htm

٣٤- ألف ليلة وليلة ، سهير القلماوي، القاهرة ، دار المعارف، ص ٢٢٠ 35-http://al-hakawati.la.utexas.edu/2011/12/27/%d8%ad%d9%83%d8%a7%d9%8a%d8%a9-%d9%88%d8%b1%d8%af-%d8%ae%d8%a7%d9%86-%d8%a8%d9%86-%d8%a7%d9%84%d9%85%d9%84%d9%83-%d8%ac%d9%84%d9%8-a%d8%b9%d8%a7%d8%af/

أو فارس في نفس السامع من خيال حول القصة، أما إذا حصلت لهؤلاء الأبطال حوادث، فعندئذ ينزل هذا الهندي أو الفارسي أو الصيني إلى مصر في عصر المماليك ويعيش مع الشعب المصري ويتكلم مثلهم، أما إذا كانت البيئة من خيال القاص ولم يسمع عنها إلا ما قد أثار تخيلها في نفسه، كبيئة الجن وأهل البحر، فإن هذه البيئات إسلامية صرفة مصرية صرفة. أهل البحر يقيمون الأفراح كأهل الأرض، والجنيات في قصة الحسن البصري يعشن في قصرهن كأهل الأرض تمامًا، وفي كل هذا القصص نجد الصلات، التي تصل إلى الزواج غالبا، بين أهل البحر أو الجن وبين المسلمين من أبطال القصة[٣٦]، هذه البيئات احتاجت إلى الخيال فأمدها الخيال بأسماء ماديات كثيرة، كما أن هؤلاء الجن يتزوجون ويحاربون ويغارون ويحفظون الجميل[٣٧] كأهل الإنس كل الفرق بينه وبينهم في مظهرهم الذي يسرد وصفه، ولكن عاداتهم ومعاملاتهم وتصرفاتهم من صميم حياته. بل إنهم يتكلمون لغته لا بألفاظها فحسب وإنما بكل ما يمكن أن تدل عليه اللغة من تأثر بالدين أو التقاليد أو العادات، وهم كثيرا ما يكونون مسلمين مثله، خاضعين

لأحكام الإسلام وخلفية المسلمين يرفعون أمرهم إليه ويقفون بين يديه، كما وقف بين يدي حاكمه وألقى السلام وما علمته لهم حياة التجار من دروس عن المال وطبائع الناس وما قاسوه في حياتهم من مرارة الخسارة والذل بعد المكسب والعز، أو الغربة والأخطار بعد الأهل والأمن، فحنوا على حزينهم وأكرموا غريبهم وصبغت بيئة التجار تلك بإسلامها وحياتها العادية الشخصية أكثر قصص الليالي، ونفذت إلى بيئات لم يكن يريد القاص إلا إبعادها عن مصر، فجذبتها بيئة تجار مِصر بقوة واقعها الذي عاشوا فيه قاصين ومستمعين.

٣٦- الأمثلة كثيرة في هذا الباب، ولكن نستطيع هُنا أَنْ نضرب مثل ،قصة الحمَّال والبنات الثلاث.

٣٧- لقد حفظت الجنية الجميل، في قصة التاجر والعفريت، لزوجها، وأنقذته من الغرق.

حكاية شعبية من سورية

الملك والعجوز الحكيمة

د. ثائر زين الدين

كان يا ما كان في سالف العصر والزمان، ملك جبار شديد البأس قوي الإرادة والشكيمة، تخشاه رعيته، ويتقرب إليه أمراء الممالك المجاورة، تفاديًا لغضبه. وقد بلغ من شأن هذا الملك أنه استطاع أن يدجّن الحيوانات المفترسة، وأن يستخدمها في أعماله. فعلى باب مخدعه وقف أسدان ضخمان، يثيران الهلع في نفوس أشد الرجال، فكانا يقومان بحراسته كأفضل حارسين، وفي حديقة قصره سرحت النمور المهيبة، وفوق غصون أشجارها الباسقة استقرت الصقور والنسور.

وكان الملك يرجو الله أن يرزق ابنًا ذكرًا، تتم به فرحته، ويشتد به سلطانه. وطال انتظاره وطال، حتى كان يوم حملت فيه زوجته، وعمت الفرحة القصر، وبدأ الترقب والانتظار. وحين وضعت الملكة حملها لم يصدق الملك عينيه! وأصر أن المولود ذكر. وكان يضرب رأس كل من يقول عكس ذلك، وأجبر كل من في القصر على معاملة الطفلة على أنها ذكر، فألبسوها لباس الأولاد، وحين بلغت سن الفتيان، بدأ الملك يأخذها معه إلى الصيد، ويدربها على استخدام

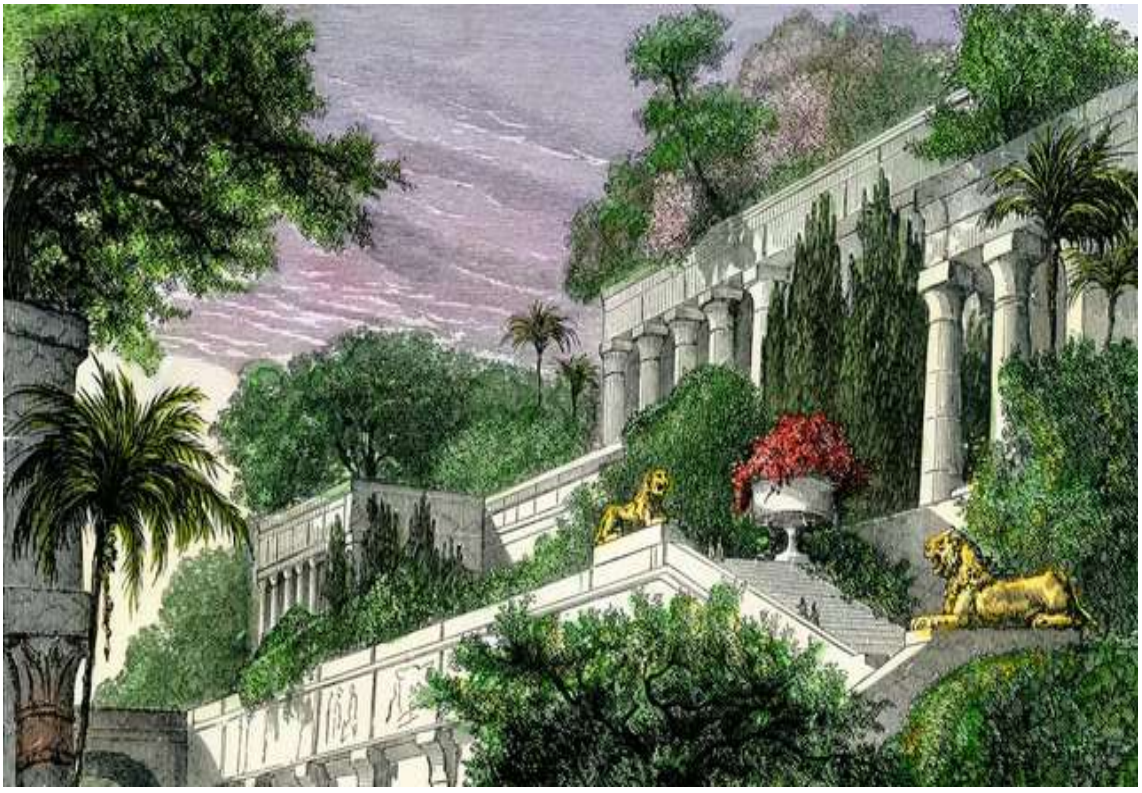

السيف والرمح والقوس، فنمت عضلاتها، وخشن جسمها، وأمعن الملك في القسوة عليها، فتلون وجهها بالسمرة الغامقة، وتشققت راحتاها، وأصبحت لا تمت بصلة لعالم النساء، لا من قريب ولا من بعيد.

وذات صباح؛ بينما كان الملك وابنته في ساحة التدريب كالمعتاد، وكانت الأميرة تحمل على ظهرها حجرًا ثقيلًا، وتقف دون حراك، ليرى الملك قوة اصطبارها وتحملها، مرت بهما امرأة عجوز تسير مستندة في مشيتها إلى عكاز، لا يقل عنها عمرًا. فوقفت تتأمل ما يجري ثم أطلقت ضحكة غير مبالية، سقطت كالصاعقة على أسماع الملك. فاستدار الملك نحو العجوز وصرخ بها:

«ويحك لماذا تضحكين؟! ألا تعلمين كيف تكون عاقبة أمثالك؟!»

فهزت العجوز رأسها، وأجابت بصوت سلبته السنون رقته ونعومته:

«أضحك أيها الملك العظيم لأنني أعلم تمام العلم أنك مهما حاولت أن تغير طبيعة الأشياء والأحياء فإنها ستعود في النهاية إلى أصلها».

فقهقه الملك ساخرًا، واتهم العجوز بالخرف، ومضى يهزأ بها فقالت:

«حسنًا أيها الملك طالما أنك واثق مما تفعل فلن يضيرك أن تراهنني وعلى حياتي، لأثبت لك صحة كلامي».

أجاب الملك:

«موافق أيتها العجوز المخبولة، فما هو رهانك؟»

قالت العجوز:

«لنختر أيها الملك العظيم من عبيدك من لا يقوى على ذبح عصفور، ولتكلف هذا العبد أن يعمل برفقة الأميرة على جرش محصول الحنطة

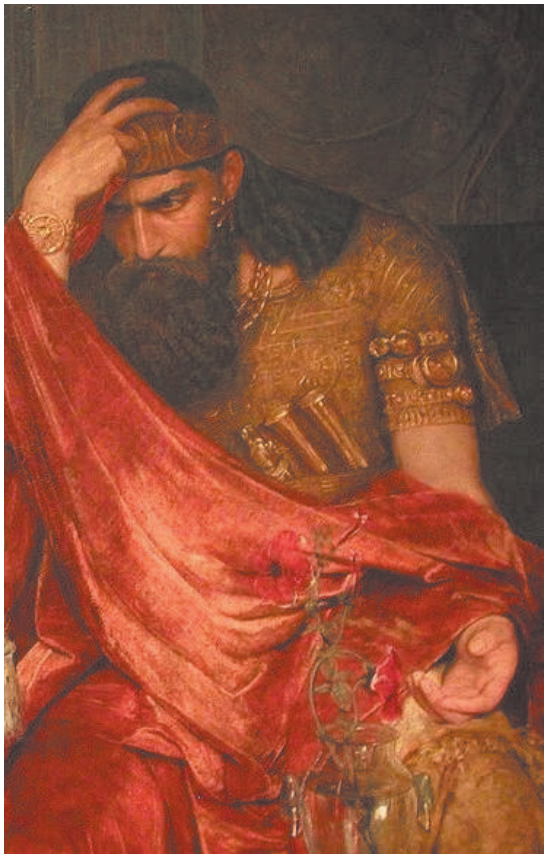

الـذي فـرغ عاملـوك مـن تخزينـه في صومعـة القصـر، علـى ألا يخرج أحدهما مـن الصومعة قبـل انتهـاء العمل بالكامـل. ولك أنـت فقط أن تـزور ابنتك مرة في اليـوم إن شئت، وسنرى من منا الرابـح في النهاية». وجم الملك برهة ثم فكر قليلًا، ولكنه عاد بعـد ذلك للضحك والسخرية، ووافق على خوض الرهان.

وجـد الملك بـين عبيده شابًـا نحيـلًا ضعيفًا شديـد القبـح، لا يستطيع ذبـح العصفور. فوقع الاختيار عليه ليحبس مـع الأميرة في الصومعة، وكان الملك يفكر حينئذ:

«أن هـذه الأمـيرة التي دربهـا عشرين عامًا، فأصبحت أشد ضراوة مـن كل فرسان المملكة.. هـذه الأمـيرة القـادرة علـى قتـل أسـد بيديها العاريتـين ؛ هـل يستطيـع صعلوك أسـود يمكن لأنسام الصبا أن تحمله خـارج أسوار المملكة أن يغيرها ؟!»

ومـرت الأيـام الأولى فالأسابيـع، وكان الملك يدخـل إلى الصومعة وينظـر إلى ابنته وعبده ثم يخرج راضيًـا مطمئنًا.. ومـرت الشهور... حتى كان يـوم دخل فيه الملك إليهمـا، فوجد أن العمل لا يـزال مستمرًّا، ولكن الأمـيرة أسدلت شعرها علـى كتفيها بعـد أن كانت تخفيـه تحت خوذتها الفولاذيـة، فارتعش قلبـه لثانيـة ثم خـرج من الصومعة وهو يهمس لنفسه: «هذا الأمر لا يعني شيئًا...» لكنه لم يعد لزيارتها ثانية.. وبعد مرور عـام كامل، بينمـا كان الملك ينهض صباحًا من نومه، فوجـئ بأحدهم يفتح بـاب مخدعه، فإذا بالأميرة تقف أمامه.

كانـت أَوَّلَ مـرة في حياتهـا تلبس فستانًـا ملونًـا بأزهار الحقول، وينسـدل شعرها الطويل كشلال ذهبي فـوق كتفيها. أما خداها فقد تلونا بالحمـرة، ورقت بشرتهـا كبشرة طفـل صغير، واختفت الشقوق من يديها، قالت الأميرة:

«لقـد أنهينـا العمـل يـا أبـي!» وصـرخ الملك كالمجنون:

«لا لسـت ابنتـي»، ففرت الأمـيرة من مخدع أبيها وهي لا تدري ماذا تفعل... وفي المساء أعلن الحاجـب أن بالبـاب عجـوزًا مسنـة تطلب لقاء الملك وحين وقفت بين يديه قالت:

«أيها الملك العظيم! ألا ندخل الصومعة ونرى من منا الخاسر؟» سار الملك واجمًا مهمومًا تتبعه العجوز، لكن الصومعة كانت خالية إلا من القمح المجروش، وتابعـا بحثهما عن الأمـيرة والعبد، فلاح لهما ظل فتاة وشاب يتبادلان القبلات تحت شجرة من أشجار الحديقة.

آخر الكلام

«الثَّعْلَبُ» في الذّاكرة الشّعبيَّة

مُحَمَّد قاسم

الثَّعْلَبُ سَبُعٌ جَبَانٌ مُسْتَضْعَفٌ، ذو مَكْرٍ ودهاءٍ وخديعة، لكنَّه لفرط خُبْثِه يجري مَعَ كبار السِّباع.

الذَّكَرُ منه ثُعْلُبَان، والأُنثى ثَعْلبة، والجمع ثَعَالب وأَثْعُلٌ، وفي الأثر: «شرُّ السِّباع هذه الأَثْعُلُ»، أي الثَّعالب، وله كُنًى كثيرةٌ: أبو الحُصَيْن، وأبو النَّجْم، وأبو نَوْفَل، وأبو الوَثَّاب، والأُنثى أُمُّ عَويل، وكَثْرَةُ الكُنَى تدلُّ على شَرَفِ المُكَنَّى وعُلُوِّ منزلته.

ومِنْ أَشَدِّ سلاح الثَّعلب الرَّوَغَانُ والتَّماوت؛ فمِنْ حيلته في طَلَبِ الرِّزْقِ أَنَّهُ يتماوتُ، وينفخُ بَطْنَهُ، ويرفع قوائمه، حَتَّى يَهْجُمَ على النَّاظِرِ إليه أَنَّهُ ميت، فإذا اقترب منه حيوان وَثَبَ عليه وأَحْرَزَهُ، على أَنَّ هذه الحيلةَ لا تنطلي على كَلْبِ الصَّيد.

ومِن سلاحه سُلاحُهُ؛ فإنَّهُ أَنْتَنُ وأَلْزَجُ وأَكْثَرُ مِن سُلاح الحُبَارَى، وقالوا: «أَدْهَى، وأَنْتَنُ مِنْ سُلاحِ الثَّعْلَبِ»؛ فإذا تَعَرَّضَ للقُنْفُذِ، ولَقِيَهُ كالكُرَةِ، وتَحَصَّنَ بشَوْكِه، سَلَحَ عليه، فيَتَأَذَّى مِنْ رائحته، فينبسط، فحينئذٍ يقبضُ على مَرَاقِ بَطْنه.

ومِن طريف ما يُحْكَى عنه أَنَّ البراغيث إذا تكاثرتْ في فَرْوِه، تَنَاوَلَ صُوْفَةً منه بفيْه، ثمّ يدخل النَّهْرَ قليلًا قليلًا، والبراغيثُ تصعدُ فِرارًا مِن الماءِ، حتَّى تجتمعَ في الصُّوفةِ الّتي في فيْه، فيُلقيها في الماءِ، ثمّ يخرج.

ومِنَ الحكمةِ الموضوعةِ على لسانِه أَنَّهُمْ قالوا لَهُ: ما لك تعدو أَكْثَرَ مِنَ الكلب؟ فقَالَ: لأَنِّي أَعدو لنَفْسي، والكلب يعدو لغيره!

وزعموا أَنَّ أسدًا وثَعْلَبًا وذئبًا اصطحبوا فخرجوا يتصيّدون، فصادوا حمارًا وظبيًا وأرنبًا، فقال الأسدُ للذِّئب: اقسِمْ بيننا صَيْدَنا؛ فقال: الأمر أَبْيَنُ من ذلك، الحمارُ لك، والأرنبُ لأبي معاوية – يعني الثَّعلب –، والظَّبْيُ لي. فخَبَطَهُ الأسدُ، فأَطَاحَ رَأْسَهُ، ثمَّ أَقْبَلَ على الثَّعلب وقال: قاتله الله، ما أَجْهَلَهُ بالقِسْمَة! هات يا أبا معاوية.

فقال الثَّعْلَبُ: يا أَبا الحارث – كُنية الأسد –، الأَمْرُ أَوْضَحُ من ذلك؛ الحِمَارُ لغدائِك، والظَّبْيُ لعَشَائِك، والأرنب فيما بَيْنَ ذلك.

فقال لَهُ الأسد: قاتلك اللهُ، ما أَقْضاكَ! مَنْ عَلَّمَك هذه الأقضيةَ؟

قال الثَّعلبُ: رَأْسُ الذِّئب الطَّائحُ عَنْ جُثَّتِه!

وزعموا أَنَّ الأَسَدَ مَرِضَ، فعادَه جميعُ السِّباع ما خلا الثَّعلبَ، فنَمَّ عليه الذِّئْبُ، فقال الأسدُ: إذا حَضَرَ فأَعْلِمْني. فلمَّا حضر أَعْلَمَهُ، فعاتَبَهُ في ذلك، فقال الثَّعْلبُ: كُنْتُ في طَلَبِ الدَّوَاءِ لك.

فقال الأَسَدُ: فأَيَّ شَيْءٍ أَصَبْتَ؟

قال الثَّعْلَبُ: خَرَزَةٌ في ساقِ الذِّئب ينبغي أَنْ تُخْرَجَ!

فضَرَبَ الأَسَدُ بمخالبِه في ساقِ الذِّئب، وانسلَّ الثَّعْلَبُ.

فمَرَّ به الذِّئْبُ بعد ذلك ودَمُهُ يَسِيلُ، فقَالَ له الثَّعْلَبُ: يا صاحبَ الخُفِّ الأَحْمَرِ، إذا قَعَدْتَ عندَ الملوكِ، فانظرْ ماذا يَخْرُجُ مِنْ رَأْسِك!!

وقد ضربوا به الأمثال، فقالوا: أَروغ من ثَعْلَبٍ؛ قال طَرَفَةُ بْنُ العبد:

كُلُّ خليلٍ كنتُ خالَلْتُهُ ... لا تَرَكَ اللهُ لَهُ واضِحَهْ

كُلُّهُمْ أَرْوَغُ مِن ثَعْلَبٍ ... ما أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بالبارِحَهْ

وقالوا: أَذَلُّ ممَّنْ بالتْ عَلَيْهِ الثَّعالب؛ قال حُميد بن ثور:

أَلَمْ تَرَ ما بَيْني وبَيْنَ ابنِ عامرٍ ... مِنَ الوُدِّ قَدْ بالتْ عليه الثَّعالبُ

وأَصبح صافي الوُدِّ بيني وبَيْنَهُ ... كَأَنْ لَمْ يَكُنْ، والدَّهْرُ فيه عَجَائِبُ

وفي الأثر: مَثَلُ الذي يَفِرُّ من الموت، كالثَّعْلَبِ تطلُبُه الأَرضُ بدَيْنٍ، فجَعَلَ يسعى، حتَّى إذا أَعيا وانْبَهَرَ، دَخَلَ جُحْرَهُ، فقالتْ له الأرضُ: يا ثَعْلَبُ دَيْنِي دَيْنِي، فخَرَجَ فلم يَزَلْ كذلك حتَّى انقطعتْ عُنُقُهُ، فمات.